جهاد المسلمين في الحروب الصليبية

الدكتور
فايد حمّاد عاشُور



مؤسسة الرسالة



الطبعة الرابعة

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران



تأليف
الدكتور فايد حماد محمد عاشور
ماجستير فى الآداب من جامعة عين شمس
دكتوراه فى التاريخ الاسلامى من جامعة عين شمس
دكتوراه فى التاريخ الوسيط من جامعة الإسكندرية

مؤسسة الرسالة



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاء بالحق ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده وبعد

فان دراسة التاريخ الاسلامي من الدراسات الهامة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالاسلام وانتشاره في الآفاق، ولقد سارت حركة التأريخ عند المسلمين ملازمة لانتشار الاسلام، بداية بسيرة الرسول الاعظم والمثل الاعلى صلى الله عليه وسلم وغزواته وأعماله، ثم حمل هذا اللواء الصحابة الكرام رضوان الله عليهم اجمعين ، وسجل المؤرخون المسلمون الأتقياء تاريخ الاسلام وضمنوه جهاد المسلمين خلال القرون ضد أعداء الاسلام وكيف انتصر المسلمون بفضل الله وقوة ايمانهم وتطبيقهم للشريعة الاسلامية . اذ كانت عواطف الأمة الاسلامية مع الاسلام والمسلمين وعقولهم تفكر في آيات الله البينات فكانوا امة القرآن الكريم ظاهرا وباطنا ، وبقي النصر والتوفيق والازدهار ملازما لهم حتى بدأ الاهمال في جانب الدين والدنيا يأخذ طريقه بين صفوفهم، فاصاب المسلمين ضعف وانحلال وانقسام، اسدل الستار بعضا من الوقت على عظمة المسلمين وحضارتهم حتى اعتقد بعض الناس ان تاريخ الاسلام من بعد الراشدين لامكان للعظمة أو القوة فيه . وصار الناس أمة مسلمة ظاهرا لا حقيقة .واختلفت الآراء وتبلدت القوة في خضم هذا الانحراف والضعف، مع العلم بعدم امكانية ضعف المسلمين في حال تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن من المعالم البارزة في الاسلام الاعداد للقوة بلا حدود والتعلم الى اقصى ما يمكن للإنسانية الوصول اليه من العلوم النظرية والعلمية العملية ، فكان ضعف المسلمين يعني انحراف بعض الساسة وأولي الأمر من المسلمين عن جادة الاسلام دون أن يجدوا من يرشدهم أو يقوم اعوجاجهم . فكانت

فرصة لاعدائهم حيث بدأت الهجمة المعادية للاسلام ، ولعل اشنع هذه الهجمات ما عرف في التاريخ الاسلامي بالحروب الصليبية التي استغرقت قرونا عديدة ، لحق فيها بالعالم الاسلامي خسائر كثيرة في جميع المجالات ، الى أن شاء الله وبعث في المسلمين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه واخلصوا للاسلام وجاهدوا في سبيل الله جهادا صادقا أدى إلى انحسار موجة العدوان الصليبي وظهرت قوة المسلمين من جديد، الا أن هذه الظروف، من احياء قوة المسلمين وجهادهم في سبيل الله مع وجود الشوائب من الاطراف المعادية للاسلام وما سجله خصوم الاسلام من التاريخ الفاسد، كل ذلك ألحق الكثير من التشويه والتحريف بتاريخ الاسلام، وركزت جهود معظم الكتاب والمؤرخين المحدثين خاصة سواء في العالم الاسلامي أم الغرب الاوروبي على الجوانب السلبية،وأظهروا المساوىء دون المحاسن حتى اعتقد الناس في زماننا هذا انه لم يكن في تاريخ الاسلام جهاد حقيقي او مسلمون غيورون على الاسلام الا في عصر قصير لا يتعدى صدر الاسلام . وربما يرجع ذلك الاعتقاد الى اسباب منها تدخل الساسة في العصر الحديث في توجيه مسار التاريخ وتشكيله بالشكل الذي يريدون، وتحديد مجالاته بما لا يتعارض مع اوضاعهم السياسية، أو نتيجة لجهالة الكتاب والمؤرخين، وبعدهم عن النزاهة والروية والدقة والموضوعية أو اعتمادهم في الكتابة على مراجع اجنبية تتكلم بلسان الخصم ، فهي غير صادقة في معظمها، والمستشرقون على ما يقال في المعتدلين منهم ، فانهم لم يكونوا ثقة لدرجة تعطيهم حق توجيه الحقائق التاريخية ، ومن الاسباب التي ادت الى هذا الانحراف التفكير غير السليم عند مؤرخي الشرق المحدثين، وتبعيتهم الفكرية للاقطار والمدارس التي تعلموا ودرسوا فيها ، أو لارتباطاتهم الحزبية الباطلة ومبادئهم الهدامة، ومن ثم رأيت من الخير أن أشرع في اخراج هذا الكتاب تحت عنوان «جهاد المسلمين في الحروب الصليبية» وفي مقدمة الاهداف لهذا الكتاب بيان الدور الاسلامي الحقيقي في الجهاد في سبيل الله من ناحية ، وكيف كانت العلاقات بين المسلمين وغيرهم تسير، وان الشريعة الاسلامية كلما كانت منهجا لحياة المسلمين كان النصر في ميادين القتال، كما يتضمن هذا الكتاب الحقائق التاريخية والمعلومات المنسية عن المعارك الاسلامية بعيدة عن كل تحريف ومن ثم إعتمدنا على ايراد الكثير من النصوص التاريخية لتكون أدلة وبراهين على صدق ما نقول. وركزنا أيضاً على المواقف الاسلامية من حركة الجهاد، وموقف المسلمين المجاهدين من القاعدين عن

الجهاد سواء كان ذلك من عامة المسلمين أو أهل الحكم والسلطان ، كما أوضحنا أن الدين هو المحرك لتلك الحروب الصليبية لا اثر للقومية او الاسباب الدنيوية الأخرى فيها ، استخدمت في ذلك الأدلة التاريخية ، واوضحنا ان نجاح المسلمين لم يكن يعتمد على قومية معينة ولم يعرف المسلمون هذا المعنى وانما كانوا مسلمين لا تعنيهم الجنسية وسوف يرى القارىء ان معظم القادة والمجاهدين في ميادين بلاد الشام وفلسطين ومصر ليسوا ممن ولدوا في تلك الديار ولا تربطهم بالارومة العربية رابطة ولكنهم كانوا مسلمين حقيقيين ويعلمون ان الجهاد واجب عليهم في كل زمان ومكان .

وخلاصة القول أن التاريخ الاسلامي مرتبط تماما بالشريعة الاسلامية ولهذا فانك تجد ان كبار المؤرخين المسلمين هم من القضاة والفقهاء ، وعلماء الدين ومفسري القرآن الكريم مثل الطبري وابن كثير والسيوطي وغيرهم كثير ،

وخطة هذا الكتاب أن يتكون من اجزاء ثلاثة : الاول منها يعالج جهاد المسلمين في العصر الفاطمي والزنكي والسلجوقي ، واما الثاني فهو خاص بالعصر الأيوبي والجزء الثالث خاص بجهاد المسلمين في العصر المملوكي والله اسأل ان يرشدنا الى طريق الصواب وطريق الجهاد في سبيل الله ، وسبيل الله هو الاسلام، والاسلام هو الاجابة الصحيحة على كل سؤال للانسان والله ولي التوفيق .

المؤلف

الفصل الأول

الجهادُ في الإسلام

واجب الدعوة الى الجهاد والاستعداد له : ـ اهداف القتال والجهاد عند المسلمين ـ المجاهدون ـ إمام المسلمين يدعو الى القتال ويشرف عليه ـ وجوب الثبات أمام العدو ـ موقف الاسلام من القاعدين عن الجهاد ـ الهدنة الواقعة بين ملوك الاسلام وملوك الكفر ـ شروط عقد الهدنة في الاسلام ـ الاعداد للقوة في الاسلام ـ موالاة الاعداء ـ الجنوح الى السلم اذا جنح لها العدو ـ موقف عامة المسلمين اثناء الجهاد ـ القتال بين المسلمين ـ الانفاق على الجهاد في الاسلام.

الجهاد في الإسلام

يفهم من القرآن الكريم ان معنى كلمة الجهاد أوسع مدىً وتناولا من كلمة القتال ، وان كلمة الجهاد تعني بذل الجهد مطلقا في حرب وغير حرب ، وعلى ذلك يمكن القول أن القتال نوع من أنواع الجهاد ، وجاءت آيات بينات في القرآن الكريم لا تحتاج الى جهد لبيان معانيها الخاصة بالجهاد، فقد اوضحت معنى الجهاد ووجوبه واهدافه ، ومن ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم »[1] وقوله تعالى في سورة البقرة ايضا « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[2] وجاء في سورة التوبة قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » وفي آية اخرى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[3] .

ويفهم من القرآن الكريم أن سبل الله التي أمرت الآيات القرآنية بالقتال والجهاد من أجلها هي الرسالة الاسلامية سواء منها العقائد الايمانية أم الواجبات الفعلية الايجابية والسلبية ، وبناء على ذلك يكون الجهاد في سبيل الله هو بذل الجهد القوي في التبشير بالرسالة الاسلامية وتأييدها ونشرها والدفاع عنها حربا وسلما ، وقال احد الفقهاء « اعلم ان الجهاد انما يتحقق اذا كان خالصا لله تعالى ويكون لاعلاء كلمة الله عز وجل واعزاز الدين ونصرة المسلمين ، أما من جاهد وغزا لحيازة

١) سورة البقرة الآية ١٩٠ ثم انظر :الصنعاني : سبل السلام ج ٤ ص ٥٣ ؛ البعلي : الروض الندي ص ١٩٨

٢) سورة البقرة الآية ٢١٦

٣) سورة التوبة ، الآيات ٢٩ ، ٤١ ثم انظر تفسير الطبري ج٢ - ص ٣٤٤ - ٣٤٥

الغنيمة واسترقاق العبيد واكتساب اسم الشجاعة وتحصيل الصيت أو طلب دينا أو امرأة ، فانه تاجر او طالب وليس بمجاهد »[٤] .

وكلمة الجهاد كلمة اسلامية خاصة بالمسلمين ، ولا يصح اطلاقها الا على ما كان في سبيل الله ، ولا يقوم بالجهاد الحقيقي الا المجاهدون ، وهم المسلمون المؤمنون ، وقد جعل الله الجهاد مقياسا لصدق ايمان المسلم ،وماذا بعد أن يجود المرء بماله ونفسه في سبيل الله ، وقد قرر القرآن الكريم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ووعدهم الله سبحانه وتعالى اذا هم آمنوا حق الايمان، وجاهدوا حق الجهاد ، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة ، وأخذوا بأسباب النصر ، وأنفقوا في سبيل الله واتقوا الله في اعمالهم . فان الله ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ويستخلفنهم في الأرض وليبدلن خوفهم أمنا وعسرهم يسرا ، ويكتب لهم النصر على من عاداهم ويحقق امالهم ويسدد خطاهم ، ولقد وضح ذلك المعنى في بعض آيات القرآن الكريم في سورة الحجرات ، منها قوله تعالى « قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وأن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم ، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون »[٥] ويفهم من الآيات السابقة أن ايمان المسلم يبقى ناقصا ان هو لم يجاهد في سبيل الله ، والأمة التي لا تجاهد آثمة تستحق العقوبة من الله تعالى[٦] .

وفي الآية الكريمة « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » ما يوضح فرض القتال ، واختلف أهل العلم في الذين عنوا بفرض القتال ، ولكن عامة علماء المسلمين يقولون بأن القتال فرض على كل واحد حتى يقوم به من في قيامه الكفاية ، فيسقط فرض ذلك حينئذ عن باقي المسلمين ويقول ابن حزم : « والجهاد فرض على المسلمين فاذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم ويحمي ثغور

٤) الخوارزمي : مفيد العلوم ص ٥٨٩
٥) سورة الحجرات ، الآيات ١٤ ـ ١٥ ثم انظر : ابن قيم الجوزيه : زاد المعاد ج٣ ص ٥ ـ ٧
٦) دروزه : الجهاد في الاسلام ص ١٣ ثم انظر : ابن قيم الجوزيه : زاد المعاد ج٣ ص ٦ ـ ٩

الاسلام سقط فرضه عن الباقين وإلا فلا»[٧] .

واجب الدعوة الى الجهاد والاستعداد له :

ولا يكون الجهاد بدون استعداد وعلى إمام المسلمين ان يدعو الى الجهاد وقتال الاعداء ويرى معظم الفقهاء ان الجهاد لا يجب الا على ذكر حر مكلف مستطيع القيام بلوازمه ، وأقل ما يفعل مرة في كل عام الا أن تدعو حاجة الى تأخيره ، وقالوا ايضا « ومن حضر الصف من اهل فرض الجهاد وحصر العدو بلدة تعين عليه (أي الجهاد) ، وأفضل ما يتطوع به الجهاد ، وغزو البحر افضل من غزو البر ، ويغزي مع كل بر وفاجر ، ويقاتل كل قوم من يليهم من العدو ، وتمام الرباط أربعون يوما وهو لزوم الثغر للجهاد ، ولا يستحب نقل اهله اليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه » وتجب الهجرة على من يعجز عن اظهار دينه في دار الحرب ، وتستحب لمن قدر عليه ، ولا يجاهد من عليه دين لا وفاء له ، ومن أحد أبويه مسلم الا باذن غريمه وأبيه ، الا أن يتعين عليه الجهاد ، فانه لا طاعة لهما في ترك فريضة ، ولا يحل للمسلمين الفرار من ضعفهم الا متحرفين لقتال أو متحرفين الى فئة ، وان زاد الكفار فلهم الفرار الا أن يغلب على ظنهم الظفر ، وان القي في مركبهم نار فعلوا ما يرون السلامة فيه ، فان شكوا فعلوا ما شاءوا من المقام أو القاء نفوسهم في الماء وعنه يلزمهم المقام[٨] . والذي يدعو للقتال هو أمير المسلمين أو رئيسهم ، ولا يجوز الجهاد الا باذن الامير ، لأنه اعرف بمصالح الحرب ولوازمها الا أن يفجأهم غالب يخافون كلبه أو تعرض فرصة يخافون فواتها ، فمتى جاء العدو بلدا وجب على أهله النفير اليهم ولم يجز لأحد التخلف عنهم الا من يحتاج الى اقامته لحفظ المكان والأهل والمال ومن يمنعه الامير من الخروج ، ومن ثم فان مسؤولية الدعوة الى الجهاد تقع على أمير المؤمنين أو سلطانهم أو رئيسهم مهما كان

---

٧) ابن حزم : المحلى ج ٧ ص ٤٦١ ثم انظر : تفسير الطبري ج٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ ؛ ابن ابراهيم المقدسي : العدة في شرح العمدة ص ٥٨٢ - ٥٨٣ ؛ ابن قدامة المقدسي : المقنع ج١ ص ٤٨٣ ، الصنعاني : سبل السلام ج٤ ص ٥٣ - ٥٤

٨) ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٤٨٣ - ٤٨٥ ، ابن ابراهيم المقدسي : العدة شرح العمدة ص ٥٨٣ - ٥٨٥ ؛ البعلي : الروض الندي ص ١٩٨ - ١٩٩

هذا الامير برا او فاجرا[٩] وفي الحديث الشريف « الجهاد واجب مع كل امير برا كان أو فاجرا وان عمل الكبائر » وذلك لأن الجهاد ضد الاعداء هو دفاع عن الاسلام والمسلمين يسقط الاعذار كافة ، لأن التلكؤ فيه بأية حجة وعذر يؤدي بالتأكيد الى ضعف المسلمين وذلهم وذهاب ريحهم تجاه اعدائهم وزوال ملكهم وضياع هيبتهم . واذا كان حال الجهاد ووجوبه قضية دائمة فانه لا يحق لولي امر المسلمين ترك الجهاد واهمال الدعوة اليه ، فان لم يفعل كان على المسلمين واجب حثه عليه وتوجيه اللوم اليه فان لم يفعل وجب عليهم خلع طاعته ونبذ موافقته وضرورة استبداله بآخر يقوم بواجب الجهاد والقتال ، لأن مصلحة الاسلام وعامة المسلمين تقتضي ذلك وهذه من المسائل الهامة العامة التي ترتبط بحياة امة الاسلام وشريعة الاسلام لا تقبل المساومة ، وعلى المسلمين واجب تحطيم كل قوة تعترض طريق الدعوة الى الاسلام ومن يقف في وجه ابلاغها للناس في حرية ، وعلى المسلمين يقع أيضا التصدي لكل من يهدد حرية اعتناق العقيدة الاسلامية أو يحاول أن يفتن الناس عنها ، وينبغي على المسلمين أن يجاهدوا حتى لا تكون فتنة في بلاد الاسلام والمسلمين لقوتهم في الارض بمعنى استعلاء ولي الله في الارض بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ، ولا يخاف قوة في الارض تصده عن دين الله ان يبلغه وأن يستجيب له ولا يكون في الارض وضع أو نظام أو جبهة معادية تحجب نور الله وهداه عن أهله أو تضلهم عن سبيله بأية وسيلة وبأية أداة . وفي حدود هذه المبادىء العامة كان الجهاد في الاسلام ـ جهادا للعقيدة الاسلامية ، لحمايتها من الحصار وحمايتها من الفتنة وحماية منهجها وشريعتها في الحياة ، وإقرار رايتها في الارض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء وهذا هو الجهاد الذي يأمر به الاسلام ويسعى اليه المجاهدون ، والذين يقتلون فيه هم الشهداء حقا ، وفي حديث شريف « من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه مات على شعبة من نفاق »[١٠] .
وفي حديث شريف آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا هجرة بعد الفتح

---

٩) انظر : ابن ابراهيم المقدسي : العدة شرح العمدة ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ ؛ ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٤٨٤ ؛ ابن حزم : المحلى ج٧ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣

١٠) انظر : سيد قطب: في ظلال القرآن ، المجلد الاول ص ٢٦٨ ، ابن حزم : المحلى ج٧ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ ؛ الطبرى : جامع البيان ج٢ ص ١٨٩ ـ ١٩٤ ؛ الدهلوي : حاشية الدهلوي ج٢ ص ٢٧١ ، البعلي : الروض الندي ص ١٩٨ ـ ١٩٩

ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا» وعن أنس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » وفي هذا دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج مباشرة للكفار وبالمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه ، والجهاد باللسان باقامة الحجة عليه ودعائهم الى الله تعالى وبالاصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو[11] .

واما الاستعداد للقتال والجهاد في سبيل الله فأمر واجب ، والاستعداد بالوسائل الممكنة كافة ، وبذل الجهد في أن تكون قوة المسلمين اقوى من غيرهم ، فاذا أتموا الاستعداد ، واخلصوا النية في قتال عدوهم ، كان النصر لهم ، ولكن اذا لم يقم ولي امر المسلمين أو أميرهم بواجب الاستعداد الحربي ، فانه مؤاخذ ومقصر في اداء واجبه المكلف به ، فان فرض الجهاد يعني في نفس الوقت فرض الاعداد اللازم للقوة العسكرية المادية والمعنوية لا انفصام بينهما ، وواجب على المسلمين الاعيان والعامة حثه على ذلك ، وان لم يفعلوا يقع عليهم اثم كبير ، والأصل ان كل مايسبب ضعف المسلمين يبغي القضاء عليه ان لم يمكن اصلاحه وتداركه ، ذلك أن الجهاد فرض في الاسلام، فاذا وجدت أسباب تعوق يمكن تنفيذ هذا الفرض وجب على المسلمين ازالة هذه العوائق بكل اشكالها حتى يتسنى للمسلمين ان يكونوا على مقدرة واهبة للجهاد والقتال في سبيل الله، وهكذا كان حال الخلفاء والسلاطين والملوك المسلمين خلال العصور الاسلامية المختلفة، وان لم يقوموا بواجب الجهاد ويدعوا اليه، فان الناس المسلمين مطالبون بارغامهم على الجهاد، لأن دفع العدو مقدم على الامور كافة والاحوال قاطبة، وكان امراء الاسلام لا يتركون الجهاد اما خوفا من الله تعالى وتنفيذا لشريعة الجهاد واما خوفا من ثورة عامة المسلمين عليهم ؛ لأن عاطفة المسلمين لم تكن تسمح للمتخاذلين بالبقاء في قيادة الامة امدا طويلاء هذا من ناحية ومن جهة اخرى اذا امر ولي امر المسلمين بالجهاد الى دار الحرب ففرض على المسلم المكلف ان يطيعه في ذلك الامر الامن له عذر قاطع[12] .

---

١١) انظر :الصنعاني: سبل السلام ج٤ ص ٥٤ ؛ الدهلوي : حاشية الدهلوي ج٢ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

١٢) انظر : ابن حزم : المحلى ج٧ص ٤٦٢ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ؛ البعلي: الروض الندى ص ١٩٩ .

اهداف القتال والجهاد عند المسلمين :

عن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[١٣] ولم يستهدف الاسلام اكراه الناس على الدخول فيه واعتناقه ، وكذلك لم يستهدف الجهاد في الاسلام اكراه الناس على الدخول فيه واعتناقه ، وكذلك لم يستهدف الجهاد في الاسلام الحصول على الغنائم والاسلاب ، ولكن المؤمنين كانوا يرجون حماية العقيدة الاسلامية والتي من أهدافها اعلان تحرير الإنسان اعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ، ولا يكتفي بالبيان النظري السلبي ، ولم يكن الجهاد مشروعاً من أجل حماية الوطن الاسلامي في حد ذاته ، وإنما حماية العقيدة الاسلامية والنظام الاسلامي الذي يسود فيه هذا المنهج هي الهدف الاول عند المجاهدين المسلمين[١٤] وكان هتاف المجاهدين في ميادين القتال اذا تعرضوا لمحنة أو ضيق أو كسره فانهم ينادون ويصيحون « وا اسلاماه ، أوهلك الاسلام ، أو عبارة : لولا نصر الله لضاع الاسلام » ومن ثم يمكن القول ان حماية دار الاسلام حماية للعقيدة الاسلامية والمجتمع الاسلامي الذي تسود فيه الشريعة الاسلامية ، مع العلم ان حماية دار الاسلام والعقيدة الاسلامية ليست الهدف النهائي ، وليست حمايتها هي الغاية الاخيرة لحركة الجهاد الاسلامي ، انما حمايتها هي الوسيلة لقيام حكم الاسلام في الارض ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق الى مختلف انحاء الارض والنوع الانساني بجملته ، فالنوع الانساني هو موضوع هذا الدين ، والارض هي مجاله الكبير ، والجهاد لحفظ الدين والدفاع عن المسلمين فمصلحته عامة مقدمة على غيرها وهو مقدم على مصلحة حفظ البدن وبر الوالدين فرض عين وعندما يكون الجهاد فرض عين فهما مستويان ولكن يقدم الجهاد في هذه الحالة[١٥] .

---

١٣) انظر : الدهلوي : حاشية الدهلوي ج٢ ص ٢٧٣ ثم انظر حجازي التفسير الواضح ج٢ ص ٣٣ ، ٤٧ ـ ٤٨ ؛ ابن قيم الجوزيه : زاد المعاد ج٢ ص ٩ ـ ١٢ ، ص ٧٢ ثم انظر الشيخ خالد : مصرع الشرك والخرافة ص ٦٤٥ ـ ٦٤٦

١٤) انظر في هذا سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ص ٧٤٨ ثم انظر الطبري : التفسير ج٢ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ثم الجزء ٢٦ ص ٤٠ ـ ٤٥ ثم الصنعاني : سبل السلام ج٤ ص ٥٤ ـ ٥٨ ؛ ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٤٨٤ ؛ ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ج١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ؛ الخوارزمي : مفيد العلوم ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠

١٥) الصنعاني : سبل السلام ج٤ ص ٥٥ ؛ ابن قيم الجوزيه : ج٣ ص ٧٢ ـ ٨٨

المجاهدون هم المسلمون المؤمنون فقط ، وهـم المقيمـون للصـلاة والمؤدون للزكاة والمنفقون في سبيل الله ، هم الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهم الذين يخشون ربهم في السر والعلانية وهم الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وهم الذين يبحثون عن الشهادة في سبيل الله لا يريدون مغنما خاصاً أو جاها وفخـرا وحـديث الرسـول صلى الله عليه وسلم : « رب قتيل بين الصفين والله أعلم بنيته » وروي عن أبي موسى الاشعري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : جاء رجل الي وقال يا رسول الله اي الجهاد افضل فان الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء ويقاتل ابتغاء عرض الدنيا فاي ذلك في سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[١٦]

واذا كان الجهاد فرضا على المسلم ، والقتال أمرا لا يجوز التأخر عنه اذا ظهرت دواعيه ووقعت اسبابه حتى ولو لم يكن معه أحد لما صح أن يكون ذلك مانعا له من القيام بهذا الغرض ، والمسلم مكلف به شخصيا ، ويمكن القول ان هذا الغرض هو فرض عين على جميع المسلمين من حيث المبدأ ولـكن لا يعنـي خروج جميع الأمة للحرب ، فيكفي انتداب جماعة تقوم بهذا الواجب في حين يكون القاعدون الذين لم يشتركوا في القتال مستعدين للقتال اذا اقتضى الأمر ذلك ، ولكن الذين نفروا للقتال كفوا باقيهم ، ويفهم ان القتـال فرض كفـاية في بعض الاحيان اذا قام به البعض بنجاح سقط عن الباقين واحيانا اخرى يكون القتال فرض عين على كل مسلم مع قبول الاعذار المشروعة للمعتذرين[١٧] .

والمجاهدون في سبيل الله يسعون الى رفع راية الاسلام والاستشهاد في سبيل الله ، ولا يقوم بهذا الدور الا المسلمون ، ويقوم بالجهاد الرجل العاقل لأن لوجوب الجهاد شروط . احدها ان يكون ذكرا ، فأما النساء فلا يجب عليهـن ، لما روت عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله هل على النساء جهاد ؟ فقال « جهاد لا قتال فيه ، الحج والعمرة » وأما الشرط الثاني : الحرية ، فلا يجب على العبد ولأنه

---

١٦) الخوارزمي : مفيد العلوم ص ٥٨٩

١٧) الخوارزمي : مفيد العلوم : ص ٥٨٤ ـ ٥٨٦ ؛ ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤

عبادة تتعلق بقطع مسافة فلم يجب على العبد كالحج . والشرط الثالث البلوغ ، والرابع العقل ، والخامس المستطيع ، وأن يكون صحيحا في بدنه قادرا على النفقة ، ولا يدخل من النساء دار الحرب الا امرأة طاعنة في السن لسقي الماء ومعالجة الجرحى ، اما إن دخل العدو في دار الاسلام فيتعين على الكل دفعه .

والجهاد في البحر والاسطول افضل من جهاد البر وفي حديث الشريف : « المائد في البحر الذي يصيبه القيء له اجر شهيد ، والغريق له اجر شهيدين » وفي حديث رواه ابن ماجه عن أبي أمامه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « شهيد البحر مثل شهيدي البر ، والمائد في البحر كالمتشحط في دمه في البر ، وما بين الموجتين كقاطع الدنيا في طاعة الله ، وان الله تعالى وكّل ملك الموت بقبض الأرواح الا شهيد البحر فانه يتولى قبض ارواحهم ، ويغفر لشهيد البر الذنوب كلها الا الدين ، ويغفر لشهيد البحر الذنوب والدين » وهذا التكريم الزائد لشهيد البحر انما سببه ان الغازي في البحر اعظم خطرا ومشقة فانه بين خطر العدو وخطر الغرق ولا يتمكن من الفرار الا مع اصحابه ، فكان افضل من غيره[١٨] .

ولقد كان المسلمون منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يهتمون بالجيش والمقاتلين ويربونهم تربية اسلامية صادقة حتى ينطبق عليهم وصف المجاهدين ، الذين يستحقون نصر الله وتأييده عند اللقاء مع عدوهم ، فقد كان الجهاد في عصر الحروب الصليبية الشغلُ الشاغل للدول الاسلامية التي تعاقبت في تلك الفترة ، ومن ثم كان اهتمام السلاطين بتربية المجاهدين على شريعة الاسلام ، وان يكونوا من حفظة القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة وخصوصا تلك التي تتعلق بالجهاد في سبيل الله ، فانظر الى الدولة النورية ومن بعدها الدولة الايوبية ثم دولة المماليك فقد قامت كل دولة من هذه الدول بدورها في الجهاد ضد اعداء الاسلام . لقد

---

١٨) انظر في هذا الموضوع : تفسير ابن كثير ج١ ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ ج٢ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ؛ ابن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير ج١ ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ ؛ الشوكاني ؛ نيل الاوطار ج٨ ص ٣٧ ـ ٤٠ ؛ تقي الدين : كفاية الأخيار ج٢ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ؛ ابن ابراهيم المقدسي : العدة شرح العمدة ص ٥٨٣ ـ ٥٨٧ ؛ ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٤٨٣ ، الصنعاني : سبل السلام ج٤ ص ٥٤ ؛ الحسين بن المبارك : التجريد الصريح ج٢ ص ١٤ ـ ١٥ ؛ الخوارزمي : مفيد العلوم ومبيد الهموم ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣ .

اهتمت الدولة الايوبية بهذا الأمر اهتماما كبيرا ، فقد كان السلطان صلاح الدين الايوبي يركز على تقوية الروح الدينية عند افراد جيشه بما يثبتهم في القتال ويدفعهم الى الجهاد ضد عدوهم ، وفي ميدان المعركة كان صلاح الدين يمشي وبين يديه جماعة القراء والعلماء والصلحاء وهم يتلون على الجيش القرآن الكريم ويحذرونهم من الفرار ويذكرونهم بما اعد الله تعالى من ثواب للشهداء في الجنة ويتلون عليهم آيات الجهاد الخاصة بالشهداء في سور الجهاد والصف والاحزاب ويبينون لهم ان الفرار من القتال هو احد الكبائر الخمسة ، بل كان رواة الحديث يحدثون المقاتلين بالاحاديث النبوية الشريفة ويشجعونهم اثناء القتال ، كما اتخذ المسلمون التهليل والتكبير لتقوية الروح المعنوية عند المجاهدين ويبينون لهم ان من حضر الصف من أهل الجهاد وحصر العدو بلدة تعين عليه ولا يجوز للمسلم الفرار من ميدان القتال الا متحرفا لقتال أو متحيزا لفئة ، واذا دخلوا دار الحرب لم يجز لأحد أن يخرج من العسكر لعلف او احتطاب أو غيره الا باذن الأمير أو قائد الجيش[19] .

اما الصلاة في جيش الدولة الأيوبية ، فقد كانت اذا جاء وقتها ضج العسكر بصوت الأذان ، وأم إمام كل خيمة المصلين ، وفي بعض الاحيان كانت الجيوش تصلي نوبة بعد نوبة مثل صلاة الخوف . وكثيرا ما تكون صلاة النوبة تحدث عادة اذا ما حل وقت الفرض والمعركة دائرة الرحى ، والقتال لا زال ، فيؤدي العسكر الفرض نوبة بعد أخرى حتى لا تخلو الصفوف من المقاتلة اثناء الصلاة ، وحتى لا يتمكن العدو من اختراق صفوفهم أو استغلال انشغال المسلمين في الصلاة فيميلون عليهم ، وكان المقاتل المسلم يشعر بأن تأدية فريضة الصلاة والقتال محتدم عمل يزيده شجاعة وايمانا وقوة على مواجهة الاعداء ، وتزيد ايمانه بأن صلاة الجيش في ميعادها سبب هام في الحاق الهزيمة بالاعداء ، وتحقيق النصر للاسلام والمسلمين ، فقد كانوا يستعينون بالصبر والصلاة على قتال الاعداء ، ولقد ورد في المصادر ان السلطان صلاح الدين الايوبي شوهد في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحته سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة .والى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه

19) حجازي : التفسير الواضح ج٢ ص ١٠، ج٤ ص ٤١ ـ ٤٢ ، ٥٠ ـ ٥١؛ ثم انظر ابن قدامه المقدسي : المقنع ج ص ٤٨٥ ، ابن ابراهيم المقدسي : العدة شرح العمدة ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ ؛ ابن خلدون : العبر ج٥ ص ٣١٤ ؛ وسعداوي : جيش مصر في عصر صلاح الدين ص ٤٨ ـ ٤٩

معلق في عامود الخيمه ، والمعروف أن الاسلام فرض صلاة الخوف وحذر من الغفله والاهمال وفي هذا ما يدل على عظمة الصلاة واهميتها عند المسلم[٢٠] .

اما جيش الدولة المملوكية ، فقد تكون من صغار السن الذين احضروا الى دار الاسلام وربوا تربية اسلامية ، وحفظوا القرآن الكريم أو على الأقل آيات الجهاد والاستشهاد في سبيل الله والاحاديث النبوية الشريفة علاوة على سيرة ومغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يعتقدون أن الغاية من كل شيء هي حماية الاسلام والمسلمين من اعدائهم ، وكانوا يرون ان العدوان ايا كان شكله وزمانه ومكانه فانما يريد الاسلام وأهله قبل أية عوامل اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية فقد كانوا مسلمين حقيقيين يدافعون عن الاسلام وأهله ويحبون الاستشهاد في سبيل الله ، وكان المسلمون في العصرين الايوبي والمملوكي يلبون نداء الجهاد ، وشارك فيه السلاطين والامراء والاجناد وعامة المسلمين ، هدفهم رفع راية الاسلام وتأمين دار الاسلام ودفع الأخطار عن البلاد ، وفي المعارك الحربية التي خاضوها ضد الصليبيين والتتار الدلائل الواضحة على ان الأمة المجاهدة لا بد أن تحقق النصر ولها حق البقاء .

امام المسلمين يدعو الى القتال ويشرف عليه :

قال رسول الله الصلى الله عليه وسلم « الجهاد واجب عليكم مع كل امير برا كان او فاجرا»[٢١] ومن ثم فلا يصح الاحتجاج بالقول ان ولي امر المسلمين أو سلطانهم فاجر فلا ينبغي الاستجابة الى دعوته الى الجهاد ، لأن الجهاد دفاع عن عقيدة الاسلام والمسلمين وديارهم والتقاعس عن ذلك مرفوض ، لأن ذروة سنام الاسلام الجهاد وفيه مصلحة الاسلام والمسلمين المقدمة على الامور كافة ، والسلطان في الاسلام يمثل رياسة الدولة وهو الذي يدعو للقتال وتنظيم شؤونه والاعداد له ، ودعوة ولي الامر أو رئيس الدولة من أجل الجهاد ملزمة واجبة الاجابة ، والجهاد

---

٢٠) حجازي : التفسير الواضح ج٥ ص ٥٣ - ٥٦ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧ - ٨ ؛ البعلي : كشف المخدرات ص ٢٠٣ ؛ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص ٢١١ .

٢١) العدة شرح العمدة : ص ٥٨٤ ثم انظر ابن قدامه المقدسي المقنع ج١ص ٤٨٤ ، ابن حزم : المحلى ج ٧ ص ٤٧٧

يصبح محتما والقعود عنه يعتبر اثما عظيما ولأن الرئيس هو المكلف بالدعوة للجهاد[٢٢] . ولقد قام الخلفاء المسلمون من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الدور العظيم واتسعت الدولة الاسلامية حتى بلغت أقصى الشرق وأقصى الغرب ، وأقاموا لهذا الهدف الجيوش المرابطة استعدادا لمواجهة الطوارىء و الاخطار.

ولقد بدأ الخليفة عمر بن الخطاب اهتمامه بالجيش فانشأ ديوان الجند لمعرفته باهمية هذا الجانب في حياة الدولة الاسلامية وادراكا منه لاهمية تنظيم الجيش والانفاق عليه والاستعداد للجهاد ، ولقد استمر الخلفاء والسلاطين في الاعداد للجهاد والقتال حتى يرهبوا اعداء الله ، واقاموا الحصون والقلاع وشحنوا الثغور بالمرابطين المجاهدين الذين يؤمنون بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » وبقي المسلمون في قوة ومنعة يرهبهم خصومهم الى أن أهمل بعض ولاة امر المسلمين الجهاد وتوقفت الصوائف والشواتي ، وانقسم المسلمون الى احزاب ودول وتنازعوا فيما بينهم فأعطوا بذلك الفرصة للاعداء لمحاولة النيل من الاسلام والمسلمين والقضاء عليهم وازالة سلطانهم ، فكانت الحروب الصليبية مظهرا واضحا لهذا الضعف الذي أصاب المسلمين ، وحلت بالعالم الاسلامي كارثة كبرى خلال هذه الحروب وسقطت مدينة القدس في أيدي الصليبيين ، واعتبر ذلك الحادث ايذانا ومقدمة لكوارث عظيمة ، فكان لا بد للمسلمين أن يغيروا ما بأنفسهم واصلاح شأنهم والعودة الى الأخذ باسباب القوة وتنفيذ أوامر عقيدتهم الاسلامية كما تبينوا يقينا انه ما لم يقم ولي امر المسلمين بالجهاد وجب على المسلمين الخروج عن طاعته واستبداله بآخر يقوم بفرض الجهاد ، ولهذا كان معيار صلاح السلطان في العصرين الايوبي والمملوكي هو قيامه بتطبيق الشريعة الاسلامية والجهاد في سبيل الله ، ومما يؤكد هذا العزم وصدق ايمانهم وصحة نواياهم انهم انتصروا على اعدائهم وحرروا بلاد

---

٢٢) تفسير ابن كثير : ج١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤ ، ج٢ ص ٣٥٩ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢ ، ثم انظر ابن ابراهيم المقدسي : العدة ص ٥٨٨ ، ابن قدامة المقدسي : المقنع ج١ ص ٤٨٤ ، حجازي: التفسير الواضح ج٥ ص ٤١ ـ ٤٢ ، ابن حزم ، المحلى ج٧ ص ٤٦٢ ، الشوكاني : نيل الاوطار ج٨ ص ٣٠ ـ ٣٢ ، الشيخ خالد : مصرع الشرك والخرافة ص ٦٤٤ ـ ٦٤٥ .

الاسلام وازالوا الكرب عن المكروبين وبدلوا الهزيمة نصرا والخوف امنا والاضطراب استقرارا لأنهم عملوا تنفيذا للسياسة الحربية في الاسلام(٢٣) .

وجوب الثبات امام العدو والرقابة على الاخبار :

يجب على المسلمين أن يثبتوا في ميدان القتال وان لا يتأثروا بما قد يقع في الحرب من موت بعض القادة أو الجنود ولا ينزعجوا لانهزام جانب من قواتهم وذلك تفاديا من الانهيار المعنوي ووقوع الهزيمة التامة ، والنتائج المترتبة على الثبات في ميدان الحرب دائما افضل من تلك النتائج التي تأتي بعد الهرب والانهزام .

ولقد تقرر في الشريعة الاسلامية وجوب ترك الخوض في اخبار الحرب والقتال والظروف المتصلة بها وعدم بث الشائعات السيئة بين المسلمين بهدف اضعافهم واثارة الاضطراب في صفوف المجاهدين والمسلمين عامة ، وعلى جيش الاسلام الصبر والثبات امام العدو ويحذر التولي والهرب من العدو الا لاسباب مشروعة تقتضيها المصلحة كما يجب عليهم الطاعة والانضباط وعدم الاختلاف والتنازع في ظروف الحرب وتلافي اسباب الاختلاف لما في ذلك من اخطار على المسلمين ، ولقد اهتم الخلفاء والسلاطين المسلمون بما يثبت الجيش في ميدان القتال وعاقبوا كل من سبب الاضطراب أو أثار الفتن وكذلك مروجي الاشاعات بأشد العقوبات لأن الاسباب المؤدية الى ضعف الجبهة الاسلامية ينبغي أن تؤخذ بالحزم وعدم اهمال تلك الاسباب وضرورة القضاء عليها ، وسوف ترى ان السلاطين الايوبيين والمماليك من بعدهم كانوا من أشد المسلمين اهتماما بالمحافظة على الروح المعنوية وتقوية المسلمين والقضاء على أسباب الضعف والخوف ومنع تسرب الاخبار السيئة الى قلوب المجاهدين(٢٤) .

موقف الاسلام من القاعدين عن الجهاد :

يمكن ادراك خطورة موقف القاعدين عن الجهاد بما ورد في سورة التوبة (وعلى

---

٢٣) انظر : حجازي : التفسير الواضح ج٥ ص ٣٤ - ٣٨ ثم انظر : ابن حزم : المحلى ج٧ ص ٤٦٦ - ٤٦٧

٢٤) راجع : التفسير الواضح ج٥ص ٤١ ج٩ ص ٦٦ - ٦٧ ،ج١ ص ٧ - ٨ ؛ انظر ابن حزم ، المحلى ج٧ ص٤٦٣ - ٤٦٥ البعلي : كشف المخدرات ص ٢٠٢ ، الخوارزمي : مفيد العلوم ص ٥٩٣ .

الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم)[٢٥] . وفي هذه الآية القرآنية الكريمة اشارة الى ثلاثة من المسلمين المخلصين غير المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر صحيح فقاطعهم الرسول والمسلمون بعد عودتهم من تلك الغزوة ، واشترك في هذه المقاطعة زوجاتهم وأقاربهم ودامت المقاطعة أكثر من اربعين يوما ، ولقد اشتد الامر على هؤلاء المتخلفين حتى ضاقت عليهم الارض رغم سعتها ، وضاقت عليهم أنفسهم ولبثوا طيلة المدة يبكون على ما فرط منهم ويضرعون الى الله ليتوب عليهم ، واستمروا على هذه الحال من المكابدة الى أن استجاب الله لهم وقبل توبتهم فانفرجت أزمتهم ، ويفهم من هذا الموقف ما يجب على المسلمين من اتخاذ موقف الحزم والشدة مع الذين يخرجون عن جماعة المسلمين ، ويقصرون في واجبهم العام وخاصة في واجب الجهاد وحتى لو لم يكونوا متهمين في اخلاصهم وقوة ايمانهم ، وكان تقصيرهم وشذوذهم لاسباب واهية ، وبطبيعة الحال انه من باب أولى ان يكون الموقف مع المتهمين في اخلاصهم أشد وأقوى ، وكيف الحال مع أولئك المعطلين والمعوقين للجهاد بقصد سيء أو بطريق مباشر أو غير مباشر ، وما موقف الاسلام من الذين يضعون العراقيل امام المسلمين بل يثبطون العزم وينشرون الوهن بين المسلمين ولا يقومون بالاستعداد من أجل الجهاد ضد اعداء الله المعتدين الظاهرين والمتسترين ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة فيها حملات قارعة على المثبطين والمعوقين والمعتذرين بالاعذار الواهية الكاذبة والمتهربين عن واجب الجهاد اذا ما دعاهم الداعي له ، وعلى ولي أمر المسلمين تجاه هذه الفئات ايضا من زجر وردع وتأديب وتعزير وتغريم وتضييق لأن مثل هؤلاء يكونون من عوامل دخول الوهن في قلوب وصفوف عامة المسلمين ، فيكون له اثره السيء على المجاهدين ولأن القعود عن الجهاد يكون مذموما حيث لا عذر يمنع منه[٢٦] ولقد كان في التاريخ الاسلامي صور تطبيقية وعملية لما جاء به الاسلام من أحكام في الجهاد ، فقد جعل الاسلام طاعة ولي الأمر المسلم مرهونة بمدى تنفيذه لأحكام

٢٥) سورة التوبة : آية ١١٨

٢٦) انظر : حجازي : التفسير الواضح ج٥ص ٤٤ ـ ٤٦ ـ ٥٠ ـ ٥١ ص ٧٢ ـ ٧٣ج١٠ ص ٧٧ ـ ٨٠ ، ج١١ ص ٢٠ ـ ٢٣ انظر : الحسن بن المبارك : التجريد الصريح ج٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٤

الشريعة وصيانتها والجهاد في سبيل الله ، فان أهمل ولي الأمر المسلم هذا الشأن وجب ترك طاعته وخلعه من السلطنة لأنه مقصر فيما تعهد القيام به . وفي العصر المملوكي حدث في سنة ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م ان اضطربت بلاد الشام بسبب تهديدات التتار ، وخشي المسلمون على أنفسهم من العدو ، فسار شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية على خيل البريد من دمشق الى القاهرة . وفور وصوله اجتمع مع الامراء والسلطان الناصر محمد بن قلاوون وحرضهم على الجهاد وضرورة الخروج من أجله وأمرهم بتجهيز الجيش لانقاذ بلاد الشام من خطر التتار وقال الشيخ ابن تيمية للسلطان : « ان كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته اقمنا له سلطانا . . يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن » وقال للسلطان الناصر محمد ايضا« لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر فكيف وانتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وانتم مسؤولون عنهم »[٢٧] وواضح مما تقدم أن الشيخ ابن تيمية الفقيه المشهور جعل عدم القيام بواجب الجهاد ملزما بخلع السلطان واقامة اخر يقوم بهذا الدور ، ولذلك اجابه السلطان الناصر محمد والأمراء عملا لا قولا ، وخرج الجيش الاسلامي من مصر الى بلاد الشام لقتال التتار .

الهدن الواقعة بين ملوك الاسلام وملوك الكفر :

الهدنة في اللغة معناها المصالحة ، يقال : هادنه يهادنه مهادنة اذا صالحه والاسم الهدنة ، وهي اما من هدن بفتح الدال ويهدِن بكسرها هدوناً اذا سكن، ومنه قولهم : « هدنة على دَخَن» أي سكون على غل أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها ، ويراد منها أيضا الفاظ أخرى احدها ـ الموادعة ، ومعناها المصالحة أيضا ، اخذا من قولهم : عليك بالمودوع يريدون بالسكينة والوقار ، فتكون راجعة الى معنى السكون ، واما اخذا من توديع الثوب ونحوه . وهو جعله في صوان يصونه ، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال واما اخذا من الدعة : وهي الخفض والهناء لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب ومشاقها وتكاليفها .

٢ ـ من معناها ايضا المسالمة ومعناها ظاهر : لأن بوقوعها يسلم كل من أهل الجانبين

---

٢٧) الصيرفي : خبر من غبر ج٥ ص ٤٠٩ ، شذرات الذهب ج٥ ص ٤٥٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٤ ص ١٥ ،

من الآخر .

٣ ـ المقاضاة ، ومعناها المحاكمة مفاعلة من القضاء بمعنى الفصل والحكم .

٤ ـ المواصفة ، سميت بذلك لأن الكاتب يصف ما وقع عليه الصلح من الجانبين .

واما في الشرع الاسلامي فالهدنة عبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصه ، والأصل ان تكون المهادنة بين ملكين أو سلطانين مسلم وكافر أو بين نائبيهما أو بين أحدهما ونائب الآخر ، ولقد رتب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة في كتبهم مفصلة واضحة المعاني وهي في الشرع عقد امام أو نائبه على ترك القتال مدة معلومة لازمة ولا يجوز لغيرهما عقد المهادنة لانه لو جاز « ذلك للآحاد لزم تعطيل الجهاد ، فعلى هذا لو هادنهم غير الامام أو نائبه لم يصح ، فلو دخل بعضهم بهذا الصلح دار الاسلام كان امنا لاعتقاده ولا يقر في دار الاسلام بل يرد الى دار الحرب ، ولو مات الامام أو نائبه بعد العقد لم ينتقض عهده » اما رتبتها فانها متأخرة ـ عند قوة سلطان المسلمين عن عقد الجزية : لأن في الجزية ما يدل على ضعف المعقود له ، وفي الهدنة ما يدل على قوته[٢٨] .

أما أصل وضع المهادنة لأهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى : (فسيحوا في الارض أربعة أشهر)وقوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها)وماثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه عن صلح الحديبيةوما انتهت اليه المفاوضات مع قريش التي صدت الرسول والمسلمين عن زيارة الكعبه ما اتفق المسلمون مع قريش على المهادنة المعروفة بصلح الحديبية وهذه نسخة الكتاب :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » وأشهد في الكتاب على الصلح رجالا من المسلمين والمشركين[٢٩] . والمفهوم من هذا الصلح أنه كان محدودا بعشر

---

٢٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص ٢ـ٣ ابن قدامة المقدسي : المقنع ج١ ص ٥٢٠ حجازي : التفسير الواضح ج١ ص ١٤ ـ ١٥ ابن ابراهيم المقدسي : العملة ص ٦١١ ـ ٦١٢

٢٩) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٥ ـ ٦٠

انظر : ابن قدامة المقدس : المقنع ج١ ص ٥٢٠

سنوات فقطوروى مروان بن الحكم والمسور بن مخرمه « ان النبـي صلى الله عليه وسلم صالح قريشا على وضع القتال عشر سنين »[30] وانه لم يكن يعني الاختلاط بين الجانبين أو ترك الحرب الى ما لا نهاية وهو بذلك هدنة مؤقتة اقصاها عشر سنوات اذا التزم الجانبان بشروطها .

شروط عقد الهدنة في الاسلام :

وهي الشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد بحيث لا يصح عقد الهدنة مع اهمال شيء منها وهي اربعة شروط :

الاول : في العاقد ويختلف الحال فيه باختلاف المعقود عليه ، فان كان المعقود عليه اقليما كالهند والروم ونحوهما أو مهادنة الكفار مطلقا فلا يصح العقد فيه الا من الامام الاعظم أو من نائبه العام المفوض اليه التحدث في جميع امور الدولة الاسلامية

الثاني: ان يكون في ذلك مصلحة للمسلمين، بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة أو توقع اسلام المعقود معهم الهدنة بسبب اختلاطهم بالمسلمين أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وانفاق مال. فان لم تكن مصلحة فلا يهادنـون بل يقاتلون حتى يسلموا أو يقرروا الجزية ان كانوا من أهلها.

الثالث : ان لا يكون في العقد شرط يأباه الاسلام كما لو شرط ان يترك بأيديهم مال مسلم أو أن يرد عليهم أسير مسلم انفلت منهم أو شرط على المسلمين مال من غير خوف على المسلمين أو شرط رد مسلمة اليهم ، فلا يصح العقد مع شيء من ذلك بخلاف ما لو يشرط رد الرجل المسلم أو المرأة الكافرة فانه لا يمنع صحة المهادنة فان كان في المسلمين ضعف خارج عن ارادتهم وخيف عليهم جاز التزام المال لهم دفعاً للشر كما يجوز فك الأسير المسلم اذا عجزنا عن انتزاعه .

الرابع : ان لا تزيد مدة الهدنة عن أربعة أشهر عند قوة المسلمين وأمنهم ولا يجوز أن تبلغ سنة بحال ، وفيما دون سنة وفوق اربعة أشهر قولان للامام الشافعي رضي الله عنه اصحهما انه لا يجوز ، اما اذا كان في المسلمين ضعف وهناك خوف فانه تجوز المهادنة الى عشر سنين ، فقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة

٣٠) ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٥٢٠ انظر : الصنعاني : سبل السلام ص ٩٠ ـ ٩١

عشر سنين كما رواه ابو داود في سننه ، ولا تجوز الزيادة عليها على الصحيح ، وفي وجه تجوز الزيادة على ذلك للمصلحة ، فلو أطلق المدة فالصحيح من مذهب الشافعي أنها فاسدة غير جائزة وقيل : ان كانت في حال ضعف المسلمين حملت على عشر سنين ، وان كانت في حال القدرة فقد قيل تحمل على الاقل وهو أربعة أشهر وقيل على الاكثر وهو ما يقارب السنة ، ولو صرح بالزيادة على ما يجوز عقد الهدنة عليه . فان زاد على أربعة أشهر في حال قوة المسلمين أو على عشر سنين في حال ضعف المسلمين فان عقد المهادنة يصح فقط في المدة المعتبرة ويبطل في الزائد ، فان احتاج المسلمون الى زيادة المدة على عشر سنوات جاز لهم عقد عشر سنوات اخرى ثم عشر ثم عشر قبل أن تنقضي المدة الاولى وهذا عند الشافعية بينما ذهب أصحاب الامام مالك الى أن مدتها غير محدودة ، بل يكون موكولا الى اجتهاد الامام ورأيه[٣١]
والخلاصة لا بد من أن تكون المهادنة معلومة محدودة لأن تركها من غير تقدير يقضي إلى ترك الجهاد بالكلية . والمهادنات المذكورة لا تكون الا في حالة ما يكون العدو في بلاده أو بأطراف البلاد الاسلامية على الحدود كما قلنا خارجا عن بلاد الاسلام اما أن أخذ العدو جزءا من بلاد الاسلام وادعى ملكيته لهذا الجزء، بل انكر حق المسلمين فيها وجار عليهم في العدوان فان المهادنة أو المصالحة أو الموادعة لا تجوز باجماع اراء الفقهاء في كافة العصور الاسلامية، فان كان في المسلمين ضعف في مثل هذا الحال فالأجدر بالمسلمين البحث عن أسباب هذا الضعف وتلافيه فان تعمد ولي امر المسلمين الاهمال وجب نبذ طاعته ومخالفته والخروج عليه وعزله واستبداله باخر يقوم بواجب الجهاد من اعداد للقوة والقتال في سبيل الله حتى يدفع عن الاسلام والمسلمين خطر المعتدين، فان كان ضعف المسلمين لاسباب خارجة عن ارادتهم وظهور قوة عدوهم عليهم جاز لهم المهادنة فقط ولمدة محدودة ومعلومة حتى يزول سبب الضعف وتستجد عوامل القوة فيقومون بقتال عدوهم واستخلاص ارضهم[٣٤]
وهذا ما كان عليه المسلمون خلال التاريخ الاسلامي الطويل وخصوصا في فترة

---

٣١) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص ٧ـ٨ نيل الاوطار ج٧ ص ٢٣٦ ـ ٢٥٩ انظر : ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ ابن ابراهيم المقدسي : العمدة ص ٦١٢ الدهلوي : حاشية الدهلوي ص ٢٩٧ الخوارزمي : مفيد العلوم ص ٥٩٤ تقي الدين : كفاية الاخيار ج٢ ص ٤٠٨
٣٢) انظر ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١

الحروب الصليبية، اذ لم تعقد الهدنة الدائمة بين المسلمين وأهل الكفر الا عندما يكون الاعداء في دار الكفر (بلادهم) ويكون عقد الهدنة معهم وفق شروط فأما أن يدخلوا في الاسلام أو الجزية أو القتال. ومن الدلائل على ذلك أيضاً ان عقد الهدنة ينبغي أن يتضمن أمورا هامة منها:

١ ـ ان يشترط سلطان المسلمين أو ولي امرهم على الطرف الاخر مالا يحملة اليه في كل سنة أو أن يسلم اليه ما يختاره من حصون وقلاع واطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين أو احب انتزاعه أو استضافته من بلاد من يهادنه من ملوك الكفر وأن يبقي من بها من أهلها ويقررهم فيها نساؤهم وأولادهم ومواشيهم وازوادهم وسلاحهم والاتهم دون أن يلتمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا أو يطلب عنه بدلا وما ينخرط في هذا السلك .

٢ ـ أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته والمسافرين من رعيته برا وبحرا بنوع من أنواع الأذية والاضرار في أنفسهم ولا في أموالهم وللمجاورين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها.

٣ ـ ان يشترط عليه امضاء ما وقعت عليه المعاقدة ، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه ولا يؤخر شيئا عن الوقت الذي اتفق عليه .

٤ ـ ان يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج الى الاستعداد فيه أن يعلمه بما يريده من مهادنة أو غيرها .

٥ ـ ان يشترط عليه أنه اذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمنه .

٦ ـ ان يشترط مالا يحمله اليه في الحال أو في كل سنة أو حصونا أو بلادا يسلمها من بلاده أو مما يغلب عليه من بلاد مهادنه الى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاق مما لا تحصى كثرة[٣٣] والمدقق في هذه الشروط يستدل على أن المصالحة أو المهادنة انما هي لفترة زمنية معينة وليس على سبيل الأبدية ، ولقد كان المسلمون في

٣٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص ١٢ ـ ١٣ انظر : ابن قدامه المقدسي : المقنع ج١ ص ٥٢١ ـ ٥٢٣ ؛ ابن ابراهيم المقدسي : العدة ص ٦١٢ ـ ٦١٤

عصر الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان في فلسطين خاصة هكذا فلم يعقدوا في حال ضعفهم الا هدنة قصيرة وفق الشروط الشرعية التي ذكرناها، واذا نقض العدو شرطا من شروطها عاد المسلمون لقتاله وتأديبه ، والمصالحة على سبيل الأبدية أو الدائمة معناها تسليم بسقوط حق المسلمين في الجزء المتصالح عليه ، وفي الاسلام لايسقط الحق، ويبقى مع مرور الزمن الحق حقا الى يوم القيامة والمطالبة به واجبة والسكوت عنه اثم ديني كبير .

ولقد اجتهد المسلمون في أن تكون الهدنة شرعية في كل شيء ومن ثم وضعوا شروطا يلزم الكاتب في كتابة الهدنة مراعاتها وأن يقوم بترتيب قوانينها وأحكام معاقدها ومن ذلك الأمور الاتية :

١ ـ ان يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجري الهدنة بينه وبين ملكه أو سلطانه .

٢ ـ ان يأتي في ابتدائها ببراعة الاستهلال اما بذكر تحسين موقع الصلح والندب اليه ويمن عاقبته او بذكر السلطان أو الرئيس أو الخليفة الذي تصدر عنه الهدنة أو السلطانين المتهادنين أو الامر الذي ترتب عليه الصلح .

٣ ـ ان يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب الهدنة ودعا الى قبول الموادعة .

٤ ـ ان كانت الهدنة من قوي لضعيف أخذ في الاشتداد آتيا بما يدل على علو الكلمة وانبساط القدرة وحصول النصرة واستكمال العدد وظهور الأيد ووفور الجند ومنعة الدولة لا سيما اذا كان القوي مسلما والضعيف كافرا فانه يجب الازدياد من الامور التي توقع الخوف والهلع في نفس العدو . وذكر ما للاسلام من العزة وما توالى له من النصرة ، وان كانت الهدنة من ضعيف لقوي أخذ في الملاينة بحسب ما يقتضيه الحال مع اظهار الجلادة وتماسك القوة خصوصا اذا كان القوي المعقود معه الهدنة كافرا ومن اعداء الاسلام ، وان شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة جاز ذلك رغبة في الصلح المأمور به لا عن خور طباع وضعف قوة اذ يقول تعالى : (فلا

تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم)[٣٤] .

٥ ـ على كاتب الهدنة ان يتحفظ من احتوائها على شيء ليس من الاسلام ويحذر كل الحذر من خلل يتطرق اليه من اهمال شيء من الشروط او ذكر شرط فيه خلل على الاسلام أو ضرر على السلطان أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجب السبيل الى التأول ، وأن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة ولا تتطرق اليه مناقضة ولا يدخله تأويل .

٦ ـ ان تكون الهدنة بعد تشاور وتروية النظر وظهور الخير فيها ومشاورة ذوي الرأي وأهل الحجى وموافقتهم على ذلك .

٧ ـ ان يبين مدة الهدنة ، فقد تقدم أن الصحيح من مذهب الامام الشافعي أنه اذا لم تبين المدة في مهادنة الكفار واعداء الاسلام فان الهدنة فاسدة وغير جائزة البتة[٣٥]

وقد جرت العادة ان يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالسنة القمرية ويذكر سنين واشهرا واياما وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها ، اما في حالة عقد الصلح بين المسلمين فانه لا يشترط ذلك بل ربما قالوا: ان ذلك صار لازما للأبد بحكم أنهم مسلمون . .

٨ ـ الاشهاد على الاتفاق من المتعاقدين بذلك سواء كان ذلك الرؤساء أو نوابهم والرسل الذين قاموا بإبرام الهدنة[٣٦] وهنا نؤكد على أن في التاريخ الاسلامي الصحيح في كافة العهود والدول الاسلامية ، كانت المهادنات او الموادعات أو ما يعبر عنه بالصلح المؤقت كان وفق الشروط المشروعة في الاسلام ، وسوف نرى من خلال كتاب « جهاد المسلمين في الحروب الصليبية » التطبيق العملي لهذه الشروط وسوف نتبين أن المسلمين كانوا يعقدون الهدنة للضرورة ووفق احكام الشريعة الاسلامية كما

---

٣٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص١٠ ـ ١٣ ابن قدامة المقدسي: المقنع ج١ ص ٥٢١ ـ ٥٢٢

٣٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص ١٣ انظر : ابن ابراهيم المقدسي : العدة ص ٦١٢ ابن قدامة المقدسي : المقنع ج١ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١

٣٦) صبح الاعشى ج ١٤ ص ١٤ ـ ١٥

ان المسلمين كانوا خلال الهدنة المعقودة مع اعداء الاسلام يعملون على جمع الصف وتقوية جيوشهم والاستعداد للقتال اذا انتهت مدة المهادنة أو في حالة نقض الطرف لآخر لشرط من شروطها ومن ثم كان لتنظيم المسلمين شؤون حياتهم وفق الشريعة الاسلامية عظيم الأثر في النصر على عدوهم استجابة لقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين).

الاعداد للقوة في الاسلام:

اذا كان الاسلام هدف الامة وتطبيق الشريعة الاسلامية في حياة الناس وكانوا بذلك من المؤمنين فان من اركان هذا الايمان إعداد القوة المادية اضافة الى القوة الروحية لكي تتحقق الرهبة للعدو والانتصار عليه والآية القرآنية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم. . . » والاعداد والتكوين امر شاق على النفوس عسير على الناس الا المؤمنين بالله المتوكلين عليه اصحاب النفوس العزيزة والهمم العالية.ويفهم من الآية الكريمة ان الاسلام لا بد له من قوة ينطلق بها في الارض لتحرير الانسان ، وأول اهداف هذه القوة في حقل الدعوة الاسلامية .

١ ـ ان تؤمن الذين يختارون العقيدة الاسلامية على حريتهم في اختيارها ، فلا يصدون عنها ويفتنون كذلك بعد اعتناقها .

٢ ـ الامر الثاني ان ترهب اعداء الاسلام فلا يفكروا في الاعتداء على دار الاسلام التي تحميها تلك القوة المسلمة .

٣ ـ الامر الثالث ان يبلغ الرعب هؤلاء الاعداء فلا يفكروا في الوقوف في وجه المد الاسلامي اثناء تبليغ الدعوة من أجل تحرير الانسان كله في الأرض كلها ، لأن هذا الدين للناس كافة .

٤ ـ الامر الرابع أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الالوهية فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها وتنكر أولا تعترف بأن الالوهية لله وحده ، هذه اهداف رئيسة هامة في قيام الاسلام وانتشاره ومن ثم فالاستعداد بما في

---

٣٧) الانفال آية ٦٠ ، انظر : ابن حزم : المحلى ج٧ ص ٥٧١

الاستطاعة الانسانية فريضة تصاحب فريضة الجهاد ، وليس هناك جهاد بدون اعداد قوة والنص القرآني الكريم يأمر باعداد القوة على اختلاف صنوفها والوانها وأسبابها ، وليس المقصود برباط الخيل أنها دائمة في كل العصور كما يظن البعض ، وانما جاءت في صدر الاسلام عندما كانت الخيل الأداة البارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة ولكن المهم أن اعداد القوة غير محدود والبحث عن الطاقة الى اقصاها بحيث لا يترك المسلمون سببا من أسباب القوة يمكنهم فعله الا فعلوه من أجل اعلاء كلمة الله في الأرض وارهاب الاعداء الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم او لم يجهروا لهم بالعداوة والله يعلم سرائرهم وما تخفي صدورهم وهؤلاء ترهبهم قوة الاسلام ولو لم تمتد بالفعل اليهم ، والمسلمون مكلفون أن يكونوا اقوياء ، وان يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ، كما أن الاستعداد للحرب والقتال أمر يدوم بدوام الحياة ، والاعداد للقوة العسكرية يتطلب الدراسة والعلم والبحوث التي تخدم في مجالات الحياة المدنية والسلمية بمعنى أن السعي من أجل اعداد القوة العسكرية للمسلمين يعني في نفس الوقت التقدم في مختلف العلوم العملية والطبيعية والانسانية وهذا بدوره يحقق الفوائد الكثيرة والتي منها قوة الدولة الاسلامية وتحقيق الاستقلال والاكتفاء الذاتي ، وهذا في حد ذاته من أسباب القوة وركيزة هامة من ركائزها . ومن ضمن الاعداد الحربي المادي ايضا الاعداد المعنوي الروحي (الديني) لأن الاستعدادات العسكرية كافة تفقد قيمتها اذا كان القائمون عليها ينقصهم الايمان بالله ، كذلك من أسباب القوة اشاعة العدل والمساواة بين الرعية وهذا يؤدي الى تحقيق النصر على العدو ، فقد حرص المسلمون دائما على رد المظالم الى أهلها خوفا من أن يكون ذلك من أسباب ضعفهم أمام عدوهم ، وشهدت كتب التاريخ بأن السلطان صلاح الدين الايوبي في بداية حكمه بدأ بازالة الظلم عن الناس وخفف عنهم الضرائب وازال عنهم المشقة فأصحبت قلوبهم معه لا عليه ودعوا له بالتوفيق والنصر وانقادوا لاوامره .

ويقع على المسلمين أمر منع تقوية عدوهم عن طريقهم سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر ، اذ حرص المسلمون طوال التاريخ الاسلامي على عدم جواز تزويد الاعداء ومن سار في فلكهم بأي شيء من الأشياء التي قد تزيد في قوتهم

بشكل أو بآخر ويشمل هذا حظر كل المجالات العسكرية والاقتصادية ، فقد كان المسلمون في عصر الحروب الصليبية يحرمون التعامل مع الغرب الاوروبي ما دام أهل الغرب يحاربون الاسلام ، وسوف نرى تفصيلات كثيرة لمثل هذه المواقف في متن هذا الكتاب .

وخلاصة القول أن على المسلمين اعداد كل ما في استطاعتهم من قوة ومن رباط الخيل لمواجهة الاعداء الظاهرين والمتسترين والمتربصين ، لأن الاستعداد للحرب يمنع قيامها بمعنى أن اعداد القوة الاسلامية كفيل بارهاب العدو فلا يجرؤ على الاعتداء على الاسلام وأهله ، هذا واجب الاعداد ومن ناحية أخرى يجب على المسلمين عدم اتاحة الفرصة لعدوهم للإستفادة من أموالهم وقدراتهم واقتصادياتهم، لأن اعانة العدو بطريق مباشر أو غير مباشر معناها اضعاف حقيقي للقوة الاسلامية نتيجة لزيادة قوة الاعداء بسبب ما حصلوا عليه من المسلمين سواء كان ذلك بقصد أو بدون قصد والأصل الحذر والاحتياط لكل طارىء وحتى يكون استعلاء المسلمين على سائر الامم الأخرى لا بد أن يكون الاعداد للقوة كاملا وشاملا ونؤكد على أن التقصير في الاعداد أو اهماله اثم ديني كبير لأنه مخالف لامر الله ، ويعرض المسلمين وبلادهم ودينهم للأخطار والأضرار المادية والمعنوية ، وان هذا المعنى دائم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فان قصر أولو الامر في الاعداد للقوة الاسلامية وجب على المسلمين حثهم على ذلك فان هم لم يفعلوا فعلى المسلمين تقع مسؤولية خلع طاعتهم ونبذ سلطتهم ،فان أهملت الأمة الاسلامية ذلك الأمر كان لزاما أن يلحق بها الذل والهوان والخوف والبطش وتضيع البلاد ويهلك العباد ، ويسود الظلم ويعم البلاء[٣٨] .

واذا كان الاعداد للقوة العسكرية فريضة لا تقبل التأخير او الاهمال لارتباطها بارتقاء العلم وتطور اساليبه ، فانه من الواجب على الأمة الاسلامية الا تساهم في قوة

٣٨) انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع الجزء العاشر ص ٤٨ ـ ٥٠ ثم انظر محمد عزه دروزه : الجهاد في سبيل الله ص ١٢٠ انظر : حجازي : التفسير الواضح ج١٠ ص ١٣ ـ ١٤ ، الدهلوي ، حاشية الدهلوي ص ٣٠١ ؛ ابن قدامه المقدسي ، المقنع ج١ ص ٤٩٢ ؛ البعلي : كشف المخدرات ص ٢٠٣ ، تفسير ابن كثير ج١ ص ٥١٥ ـ ٥١٦ ، الشيخ خالد : مصرع الشرك والخرافة ص ٦٣٢ ـ ٦٣٩ ؛ انظر : الشوكاني نيل الاوطار ج٨ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨

عدوها بطريق مباشر أو غير مباشر وسواء كانت تلك المساهمة قليلة أو كثيرة ، وقد تكون تلك المساهمة عن طريق التبادل الاقتصادي او الائتمان للاعداء على الاموال ، فكل تعامل مع اعداء الاسلام فيه ما يسبب قوة لغير المسلمين حرام في الشريعة الاسلامية وخصوصا اذا لم تكن هناك ضرورة لمثل هذا التعامل أو أن يكون هذا التبادل في مصلحة الطرف المعادي اكثر من فائدته في الجانب الاسلامي . فقد كان المسلمون في عصر الحروب الصليبية التي اعلنها العالم المسيحي على الأمة الاسلامية ، أشد تحفظا واكثر حرصا على اضعاف عدوهم ، فقد حرم المسلمون بيع المواد الحربية مثل الحديد والنفط واخشاب بناء الاساطيل وكذلك الرقيق الذي يستخدم في عمليات التجديف التي تسير بها الاساطيل البحرية ، وان كان المسلمون في حاجة للتعامل التجاري مع هؤلاء الأعداء فانهم كانوا يلتزمون بمبدأ التعامل بالمثل وخصوصا في العصرين الايوبي والمملوكي ، فان الدولة الايوبية كانت حازمة في التعامل مع الغرب الاوروبي في المجال التجاري اسوة بموقفها العسكري القوي في الجهاد ضدهم ، فكانت تفرض على التجار الاجانب أن يأتوا بالمواد اللازمة من أجل الحرب والقتال والا فأن تجارتهم سوف تتوقف ، ولقد أصدر السلطان صلاح الدين الايوبي اوامره المشددة باحكام الرقابة في الموانىء والسواحل ومنع تصدير المواد التي تزيد في قوة العدو حتى لا يتفوق الطرف المعادي على المسلمين[٣٩] وعبثا حاول الباباوات نيقولا الرابع ١٢٨٨ ـ ١٢٩٢ م (٦٨٧ ـ ٦٩٢ هـ) ومن بعده البابا بونيفاس الثامن ١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ م (٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ) وكلمنت الخامس ١٣٠٥ ـ ١٣١٤ م (٧٠٥ ـ ٧١٤هـ) بعد ان حرر المسلمون بيت المقدس حاولوا تحريم التبادل الاقتصادي والتعامل التجاري مع المسلمين بهدف اضعاف المسلمين ، وهددوا من يقوم بالتجارة مع المسلمين بأشد الوان العقوبات . ولكن الموقف الاسلامي الصريح الذي جعل مصلحة الاسلام والمسلمين فوق كل اعتبار آخر جعل محاولات الغرب الاوروبي في عصر الحروب الصليبية لاضعاف المسلمين لا تحقق اهدافها ، بل لجأت بعض القوى البحرية التجارية الاوروبية بحثا عن مصالحها المادية الى التهريب وبدأت تتعامل مع المسلمين ، فاضطرت البابوية المسيحية

٣٩) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٨ ، د . الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ص ١٩ ، عبادي وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٧٥ د . فايد عاشور : العلاقات بين الشرق الادنى الإسلامي والبندقية في العصر الايوبي ص ١٤١

وحكومات الغرب الاوروبي الى اطلاق دوريات بحرية تجوب البحر المتوسط لمنع مرور التجارة الى بلاد المسلمين ولو ادى ذلك الامر الى استخدام القوة ، الا أن حاجة العالم المسيحي كانت دائما هي الأشد وخصوصا لتلك المواد التي لها علاقة في قيام الصناعات ، لأن عملية الجهاد الاسلامي ضد اعداء الاسلام والمسلمين تشمل جميع الميادين[٤٠]

موالاة الاعداء :

فان من استكمال الأخذ باسباب القوة بعد الاعداد الروحي والعسكري للجهاد ضد الاعداء ايضا عدم موالاة اعداء الاسلام ، والموالاة هنا تعني التحالف والتناصر مع الاعداء كما تعني الولاء لهم واتباع سياستهم ، فقد جاء في القرآن الكريم في سورة آل عمران (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير) وفي سورة المائدة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) وقوله في سورة التوبة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون) . ويفهم من آيات القرآن الكريم السابقة هذه المعاني :

١ ـ ان موالاة اليهود والنصارى والكفار غير جائزة إطلاقاً لأنهم يعادون الاسلام والمسلمين وليست معاداتهم لأسباب اقتصادية او مصالح مشتركة كما يقول البعض المنافق ، فالأصل أن العداوة في قلوبهم والكيد للاسلام ، كما لا يصح الاعتذار عن جهادهم لأن ذلك يتناقض مع الايمان الصادق ، لأن الايمان الصحيح من أصوله الجهاد والاعداد له بمختلف الوسائل ومباشرته ، ولا يقبل الاسلام أن يعلق المسلمون آمالهم في النصر على مساعدة الكفار أو الكتابيين أو المنافقين.

---

٤٠) انظر د. فايد عاشور : العلاقات بين الشرق الادنى الاسلامي والبندقية في العصر الايوبي ص ١٤١ .

٢ ـ قرر القرآن الكريم أن وجود أقارب للمسلمين كفار وغير مسلمين لايجيز للمسلم أن يتحالف ويتناصر مع اعداء الاسلام ، ولو كانوا من ذوي القربى ، لأن المسلم الصادق في اسلامه يجعل الله ورسوله والجهاد في سبيل الله أحب اليه من أبيه وابنه واخيه وأزواجه وعشيرته وماله ، ان الذي ينظم ويشكل علاقة المسلمين بغيرهم من الكفار هو الاسلام ، وليس المصالح المتبادلة أو القربى أو الجوار ، وانما اعداء الاسلام على اختلاف طوائفهم يتفقون على محاربة الاسلام والمسلمين ، ودليل ذلك تحالف شعاب الكفر كافة في كل زمان ضد المسلمين في كل بقاع الارض .

والقرآن الكريم يحذر من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين ، ويؤكد على أنه لا ايمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله الكريم ، ومن ثم لا يجوز للمسلمين خاصتهم أو عامتهم اتخاذ الكفار اولياء بدلا من المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، وقد يجوز للمسلمين في حالة ضعفهم أو عند محاولة المسلمين اثارة الخلاف بين الكفار أو بقصد اضعاف جانب منهم في حالة مسايرتهم لبعض الوقت واتقاء شرهم اذا كان ذلك مما تقتضيه مصلحة المسلمين وبشرط عدم قبول ما يأباه الاسلام في سبيل هذه المسايرة أو الموالاة وقوله تعالى (الا أن تتقوا منهم تقاة) ترشد الى ضرورة الحذر والتأكد من حسن نواياهم، فليس في معنى مسايرتهم أو موالاتهم ما هو صحيح اذا كان ذلك يعود بالضرر على المسلمين . لأن الاسلام لا يقبل أن يكون المسلم مواليا للكفار واعداء المسلمين . ولا يمكن هؤلاء الأعداء من التعرف على اسرار المسلمين وكشف عوراتهم او اصطناعه اليد عندهم والتزلف لهم سواء منهم الذين هم في حالة حرب مع المسلمين أو الذين يكيدون لهم ويدسون عليهم ويضمرون لهم البغض والحقد ويتربصون بهم الدوائر ويتخذون دينهم هزوا ، وينطبق هذا على المشركين والكتابيين من يهود ونصارى ، واعتبر ان من يواليهم ويسايرهم مرتدا عن الاسلام . ونؤكد هنا على أن المسلمين جميعا يشكلون أمة واحدة وبلادهم وطن واحد لا يتجزأ عن بعضه ، فلا يصح للمسلم أن يقول لا علاقة لي بمن هم في دولة اسلامية اخرى ، اذ الأصل في الامة الاسلامية انها واحدة ، وارضهم واحدة واموالهم واحدة ، وهدفهم واحد ، وعدوهم واحد ، ويعبدون الها واحدا ولهم رسول واحد ، فمن اشاع الانقسام بينهم يعتبر عدوا للاسلام والمسلمين تجب مناهضته ، ولقد جاهد السلطان صلاح

الدين الايوبي وكذلك خلفاؤه والسلاطين المماليك من أجل مقاومة دعاة الانفصال وموالاة الاعداء[41] .

الجنوح الى السلم اذا جنح لها العدو :

غاية الجهاد الاسلامي تأمين الدعوة للاسلام وحمل العدو على الكف عن عدائه للاسلام والانتهاء من موقفه المعادي للدعوة الاسلامية بالدخول في الاسلام أو المسالمة أو الخضوع ، فان أظهر العدو الرغبة في السلم عن عجز وخضوع وكف عن عدائه للمسلمين ، ففي هذا الحال يمكن مسالمته ، ومن شروط هذه المسالمة أيضا ان لا تقبل في ثناياها شرطا يأباه الاسلام ، وكذلك لا تكون المسالمة والمصالحة قائمة على جزء من أرض الاسلام لا يسقطحق المسلمين فيه الى الأبد ، ومن ثم فان الجنوح من العدو للسلم اذا كان ذلك في دار الكفر وليس في دار الاسلام اما والعدو يحتل جزءا من أرض الاسلام فلا يصح مهادنته والافضل بل الواجب العمل من أجل الاستعداد والأخذ باسباب القوة المعنوية والمادية ثم الجهاد من أجل استرداد ما اغتصب من أرض المسلمين ، وكان هذا سبيل المسلمين في عصور التاريخ الاسلامي الماضية .

أما عن الوفاء بالعهد فيجب على المسلمين الوفاء بالعهد والمواثيق ما دام العدو ملتزما بها ، فاذا تغير الخصم ونكث كان من حقهم اتخاذ ما يرونه مناسبا لردعه ويجب التنكيل به وتأديبه وعودة الحرب معه ، وان كانت المعاهدة قد انتهت مدتها ينبغي الابلاغ بنهايتها حتى يعلم الطرفان بأن حالة القتال والحرب بينهما أصبحت ماضية[42] .

---

41) انظر : في ظلال القرآن المجلد الاول ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨ محمد عزه دروزه : الجهاد في سبيل الله ص ١٤٦ ـ ١٤٧ انظر : الشيخ خالد : مصرع الشرك والخرافه ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧ ، حجازي : التفسير الواضح ج٥ ص ٧٥ ـ ٧٦ ، ج١ ص ٢٠ ثم انظر : تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦ ، الشوكاني : نيل الاوطار ج٨ ص ٤٢ ـ ٤٥ ، ابن حزم : المحلى ج٧ ص ٥٧٠

42) حجازى : التفسير الواضح ج١٠ ص ١٤ ـ ١٥ ابن قدامه المقدسي : المقنع ج٧ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ ، الشوكاني : نيل الاوطار ج٨ ص ١٨٣ ـ ٢١٠ .

موقف عامة المسلمين اثناء الجهاد :

ان المسلمين في كل انحاء العالم يمثلون أمة واحدة متحدة في كل شيء في ايمانها واخلاقها واهدافها وجهادها ، وقول القرآن الكريم : (إن هذه أمتكم أمة واحدة) وقوله (إنما المؤمنون أخوه) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم لا يخذله، ولا يظلمه) وقوله ايضا (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كالجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الجسد بالحمى والسهر) وقوله (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) كل ذلك يؤكد وحدة المسلمين ، وأنهم مهما تباعدت بهم الاوطان فهم اخوة في اسرة كبيرة هي العالم الاسلامي ، ومن ثم فان عدوهم ينظر اليهم نظرة واحدة ، فهو يحارب المسلمين في كل مكان ، ولهذا فان حركات الجهاد الاسلامي كانت تشمل الدعوة للجهاد في كل اقاليم الدول الاسلامية ، ومن حق كل مسلم المشاركة فيه وليس لأحد أن يمنعه من اداء واجبه ، فقد كانت الحروب الصليبية شاملة ، هدفها بلاد المسلمين في القدس وفلسطين والشام ومصر وبلاد الحجاز وتونس ومختلف الجهات وسائر الأطراف القريبة والبعيدة وبلاد المسلمين في البحر المتوسط وفي الاندلس، اي انها كانت موجهة ضد المسلمين في كل مكان ، ومن ثم كان جهاد المسلمين للصليبيين بهذا المعنى ، لأن المسلمين كانوا يفهمون ان هدف الصليبيين هو تحطيم الاسلام وأهله ، كما ان المؤرخين المسلمين في كل مؤلفاتهم كانوا يجعلون الاسلام الهدف الاول الذي يقصده الاعداء ، وان هدفهم تحطيم ما للاسلام من قوة وفي المذابح التي ارتكبوها ضد المسلمين ما يدل على تعصبهم وسوء نواياهم وهنا نؤكد ان الاسباب الاقتصادية والمصالح الدنيوية لم تكن هدفا أو سببا في الجهاد الاسلامي طوال العصور الاسلامية ، وتخلو المصادر الاسلامية تماما من أية اشارة الى أن المسلمين كانوا يجاهدون من أجل الحصول على المغانم ، وانما قد تكون جهادا لضرب اقتصاد العدو وتموينه وما يمكنه من التفوق على المسلمين ، فالقضية كانت جهادا في سبيل الله وتأييد الاسلام ، ومن ثم نجد المصادر الاسلامية تشير الى هذا المعنى ، فمثلا قول المؤرخين المسلمين : لولا نصر الله لهلك الاسلام ، وقول السلطان المظفر قطز في موقعة عن جالوت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م عندما اشتد القتال وخشي من الهزيمة صرخ باعلى صوته « واإسلاماه» ومثل هذا القول ايضا أن يقول المسلمون « أصبح الاسلام على خطه » ولم تشر المصادر

الاسلامية الى فقدان الارض او المتاع على أنه الهدف من هذه الحرب او الغاية التي من أجلها يجاهدون .

وكان عامة المسلمين الذين لم يخرجوا مع الجيش الاسلامي للقتال يجتمعون في المساجد ويقرأون القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة ويتضرعون الى الله بالدعاء والبكاء ويسألون الله أن ينصر جيش الاسلام ، ويستمرون على هذا الحال حتى يصلهم الخبر بنتيجة المعارك ، فان كانت انتصارا حمدوا الله وشكروه وأدوا الصلاة شكرا لله تعالى ، وان كانت انكسارا حمدوا الله وبدأوا في دراسة اسباب الخلل وأسباب الهزيمة ولايقنطون من رحمة الله ويبدأ الاستعداد للخروج من جديد الى ميادين الجهاد لمقارعة اعداء الاسلام من جديد .

القتال بين المسلمين :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حمل السلاح علينا فليس منا » اي يكون مفارقا للجماعة الاسلامية ، خارجا عليها ، فيكون قتاله واجبا ، وقول الله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »[٤٣]

ويفهم من الآيات السابقة أنه اذا وقع خلاف بين طائفة واخرى من المسلمين ، فعلى الطائفة الثالثة أو الفريق الثالث من المسلمين الذي ليس طرفا في القتال ، يجب عليهم التدخل لحل الخلاف بين الفريقين المتخاصمين واصلاح ما بين المتقاتلين المسلمين ، لأنهم أخوة لا يجوز أن يقع بينهم قتال ولا بغي أحد على أحد ، وينبغي مناصرة المظلوم المبغي عليه بالسلاح اذا لم يرتدع الظالم ويقف عند الحق والعدل وحدود الله بمعنى أن الطائفة الباغية منهما ينبغي ردعها بقوة السلاح خصوصا

---

٤٣) سورة الحجرات : الآيات ٩ ـ ١٠ محمد عزه دروزه : الجهاد في سبيل الله ص ١٥٨ ـ ١٥٩ حجازي : التفسير الواضح ج٥ ص ٤٧ ـ ٤٨

اذا كانت احداهما موالية للاعداء وتستعين بهم ضد المسلمين [٤٤] وأخوة الاسلام اقوى من أخوة النسب ومن ثم وجب على المسلمين الاصلاح بين المختلفين المتقاتلين ولا بد أن يعلموا «ان تقوى الله هي العلاج العام التي يمنع النزاع ويفك الخصام وهي سبيل الرحمة وطريق النجاة» [٤٤]

الانفاق على الجهاد في الاسلام :

من الملاحظات الهامة التي ينبغي ان نؤكد عليها ان الجهاد لا بد وان يكون من مال حلالٍ لا شبهة فيه ، لأن ذلك من عوامل قوة المسلمين ، ولقد ورد في آيات كثيرة في القرآن الكريم ربطت بين الجهاد بالنفس والمال ، ويفهم من ذلك ان فريضة الجهاد على المسلمين قد شملت المال ايضا ، ففي الآية الكريمة : (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)[٤٥] وقوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)[٤٦]

المال عصب الحرب ولا يتم جهاد بدون مال ومن ثم فهو عظيم الأثر في حركة الجهاد ووسائله والاعداد له والصناعة الحربية وما يتصل بشؤون الجيش، كل ذلك يحتاج الى المال ، وان عدم الانفاق في سبيل الله من أجل الاعداد للقوة ووسائل الجهاد واعانة المجاهدين يؤدي الى التهلكة والضرر لما في ذلك من اغراء اعداء الاسلام على مهاجمته وتسهيل هجومهم عليه وبطشهم بأهله ، ولقد وردت آيات كثيرة تشجع على الانفاق في سبيل الله بهدف الحصول على الثواب من الله ، ففي سورة البقرة قال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت

---

٤٤) انظر : حجازي : التفسير الواضح ج٢٦ص ٦٠ ـ ٦١ ثم انظر : ابن ابراهيم المقدسي : العدة ص ٥٧٥ ـ ٥٧٧

٤٥) سورة التوبة آية رقم ٤٠

٤٦) سورة التوبة الآية رقم ١١١ ثم انظر : تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٢٨

سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) وقوله تعالى : (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)[٤٧]

ويفهم ان الانفاق في سبيل الله باب مفتوح واجب على كل مسلم على حسب طاقته وقدرته ودليل على قوة ايمانه ، لأن من يبخلون ولا ينفقون اموالهم في سبيل الله لهم عذاب شديد ، فقد حذر القرآن الكريم من هذا الموقف ، فقال تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)[٢٧] ويكفي هذا الوضوح في الانذار الرهيب للذين يكنزون المال ويضنون به على الانفاق في سبيل الله هذا على مستوى الافراد والجماعات فكيف يكون الحال مع الدول والحكومات والمؤسسات التي تملك الاموال الزائدة عن الحاجة ولا ينفقونها في سبيل الله ، أضف الى ذلك اذا سخر هذا المال لخدمة غير المسلمين ، فلا شك أن من يفعل ذلك ليس من الله في شيء ، ففي قول الله تعالى ما يرشد الى سوء حال مثل هذه الأمة التي لا تنفق في سبيل الله (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .[٤٨]

وخلاصة القول ان الانفاق في سبيل الله واعداد الجيوش والنفقة عليها امر واجب على كل مسلم بقدر استطاعته ، فان استطاع ولم يفعل وقع عليه اثم ديني كبير ، هذا ان كان من عامة المسلمين ، فان كان من اولياء الأمور والحكام ولم ينفق في سبيل الله فانه يكون مقصرا في واجبه نحو الاسلام والمسلمين وان اعرض ولي امر المسلمين عن الانفاق في سبيل الله وهو يملك المال فيحثه العلماء والفقهاء وأهل الرأي والمشورة على الانفاق في سبيل الله ، فان لم يفعل كان لزاما على المسلمين الزامه بذلك وان لم يفعل وجب خلع طاعته وعزله ، لأن طاعة من يسبب ضعف المسلمين

---

(٢٧) التوبة : آيات ٣٤ ـ ٣٥

(٤٧) سورة البقرة الآية ١٩٥

انظر : تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٢٨

(٤٨) سورة محمد الآية ٣٨

غير واجبه ، بل تأثم الأمة على قعودها عن الجهاد وسكوتها عن التباطؤ في أمـوره ويحق عليها قول الله تعالى بالمهانة والذلة و ان يستبدلها الله سبحانه بأمة أخرى أفضل منها أو أسوأ تقوم بعذاب المقصرين المتخاذلين . ولقد كان المسلمون يسارعون في الانفاق في سبيل الله رغبة وطواعية . وفي اثناء الحروب الصليبية كان المسلمون في حاجة الى المال من أجل الجهاد الذي أصبـح فرض عـين ومـن ثم كانـت الدولـة الاسلامية تجتهد ما تستطيع في الحصول على المال الحلال ، وهكذا كان المسلمون في عصر الحروب الصليبية تقوم الدولة بدفع المال من خزائنهـا وهـذا المال يؤخـذ من مصادره المشروعة ، كما ان الانفاق في سبيل الله مفتوح دون قيود امام المؤمنين فاذا لم تكف هذه الاموال التي تملكها الدولة لانشاء الجيش وما يلزمه من معدات كانـت الدولة تستعين بأموال الرعية او تقترض من التجـار والاغنياء جزءا من الأمـوال . فمصلحة الاسلام والمسلمين العامة تقتضي ذلك ، اذ ليس في الاسلام حدود اقليمية بين المسلمين وكذلك الجهاد في الاسلام فرض على كل المسلمين افرادا وحكومات بصرف النظر عن الحدود السياسية او الاختلافات في العرق والنسب ، فالمسلمون أمة واحدة ومن ثم يمكن القول : ان مسؤولية الجهاد ضد اعداء الاسلام تقع على كاهل المسلمين دون استثناء بسبب القرب أو البعد ، فهذا مثلا السلطان المظفر قطز قام في مصر للجهاد ضد التتار والصليبيين ونودي في القاهرة وسائر اقليم مصر في عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠ م بالخروج للجهـاد في سبيل الله ونصرة للاسـلام ، وكان الملك المظفر قطز في حاجة الى المال من أجل اعداد الجيش اللازم للحرب ، فجمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في الحصول على الاموال للجهاد ، وكان المظفر قطز يريد أن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهاد الاعداء ، وفي اجتماع بحث الفقهاء والقضاة هذا الموضوع رغم خطورته واهميته لأن العدو يهدد أبواب مصر ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام من بين العلماء الـذين حضروا هذا الاجتماع ، فأصدر الفتوى وخلاصتها : « انه اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم (يريد المسلمين) قتالهم وجاز لكم ان تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة . واما اخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخـرة

فلا . »[40]

ونفذ السلطان سيف الدين قطز هذه الفتوى فقد احضر الامراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم واقسم كل واحد منهم انه لا يملك شيئا في الباطن ، ولما جمعت هذه الأموال ولم تكف لتكوين الجيش والنفقة عليه أخذ السلطان قطز من الناس دينارا واحدا من كل انسان لديه القدرة على دفع الدينار ، فكان بذلك الاسلوب المال الذي اجتمع لدى السلطان مالا حلالا طيبا ، لا ظلم ولا عدوان فيه .

وفي عام ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م احتاج السلطان الناصر محمد بن قلاوون للمال من أجل الجهاد ، واستدعى مجد الدين عيسى بن الخشاب نائب الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الرعية للانفاق على الجيش ، ولكن الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد أبى الموافقة على ذلك المشروع مع العلم بأن المطلوب من كل انسان دينار واحد للجهاد ، وقال نائب الحسبة ابن الخشاب أن الشيخ العز بن عبد السلام قد أصدر الفتوى واجاز أخذ الدينار لأجل دفع العدو فقال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد « لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى احضر سائر الامراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم واولادهم ورآه وحلف كلا منهم انه لا يملك سوى هذا ، وكان ذلك غير كاف ، فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد . وأما الآن فبلغني ان كلا من الامراء له مال جزيل ، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ ، ويعمل الاناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر » وقام الشيخ تقي الدين دون الموافقة على أخذ دينار من الرعية للجهاد خوفا من الظلم ، لأن الظلم اعتداء على شريعة الاسلام ، وان الله لا يريد ظلما للناس والجهاد اداء طاعة في سبيل الله وينبغي أن يكون اداء مثل هذه الطاعة بعيدا عن الحرام والظلم والإستغلال[50] وازاء الموقف الشرعي اضطر السلطان الناصر محمد الى النظر في « اموال التجار ومياسير الناس وأخذ ما يقدر عليه من كل منهم

---

(٤٩) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٤٢٧ - ٤٣١ ، ص ٨٩٧ - ٨٩٨ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٧٢ - ٧٣

(٥٠) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٨٩٧ - ٨٩٨ د . فايد عاشور :العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ١٥٥

بحسب حاله . . » « واعتبر حال التجار وارباب الاموال وفرض على كل واحد من مائة دينار الى عشرة دنانير فلم يدع تاجرا ولا متسببا ولا من يعرف بغنى الا وأخذ منه ، وطلب من تجار الكارم (تجارة البهار) واعيان التجار مالا على سبيل القرض . . »[51]

ومن هذا يفهم ان الجهاد يتطلب مالا حلالا ، فان وجد المال عند التجار أو الاغنياء وحكام المسلمين فانه يجب عليهم النفقة في سبيل الله ومن أجل الاعداد للجهاد ، فان بخلوا فانهم بذلك يكونون قد جانبوا الاسلام حقيقة ، ومن ثم يؤخذ منهم المال قسرا للاستعانة به على جهاد العدو ، فمصلحة الاسلام العليا مقدمة على الاعتبارات كافة » .

(٥١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٨٩٨ ـ ٨٩٩

الفصل الثاني

أحوال العالم الإسلامي قُبَيل الغزو الصليبي

ـ الخلافة العباسية والتطورات التي طرأت عليها وضعفها ـ السلاجقة في عصر قوتهم وجهادهم ضد الاعداء ـ تفكك دولة السلاجقة واثره على العالم الاسلامي ـ الدولة الفاطمية وعوامل ضعفها واثر ذلك على المسلمين.

أحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو الصليبي

قبل أن نعرض لعوامل قيام الحروب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين نرى انه من الاهمية بيان احوال المشرق الاسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي لنتعرف على حقيقة الاوضاع التي جعلت الاعداء يفكرون في العدوان على الاسلام وبلاد المسلمين ، وسوف نركز في ذلك على ثلاث قوى هامة ، كان لها عظيم الاثر في تسيير دفة الامور في الشرق الاسلامي وهي الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ودولة الاتراك السلاجقة لأن القوى الثلاث المذكورة هي التي عاصرت الحروب الصليبية وخاصة في بدايتها ثم أعقبتها دول اسلامية اخرى رفعت راية الجهاد .

الخلافة العباسية والتطورات التي طرأت عليها وضعفها :

كانت الخلافة العباسية أول ما ظهرت تعتمد على العناصر الفارسية اذ انها قامت على اكتاف الفرس الذين سخطوا على الامويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك التصرف لمبدأ المساواة الذي أقره القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[1]

ولقد أخلص العنصر الفارسي للعباسيين في البداية ، حتى ان الخلفاء العباسيين تقربوا من هذا العنصر لدرجة أثارت غضب وحقد العنصر العربي ، ودليل هذا التفوق الفارسي ما وصل اليه البرامكة في العصر العباسي ، فقد اعتمد العباسيون عليهم في تصريف شؤون دولتهم ، ولقد بلغت هذه الاسرة عظمتها في عهد الخليفة الرشيد الذي ترك لوزيره يحيى بن خالد البرمكي كل ما يتعلق بأمور

(١) النظم الاسلامية ص ٦٣

الدولة العباسية من تعيين وعزل الحكام كما جعل له النظر في الامور المالية حتى أصبحت الاموال لا تصل الخليفة الرشيد الا عن طريقهم[٢] فأدى ذلك الى سخط العرب ثم ما لبثت الدولة العباسية ان أخذت تعتمد على العنصر التركي الذي بدأ نفوذه يتغلغل في جسم الدولة العباسية ، ويعتبر الخليفة العباسي المعتصم أول من اهتم بهم وقربهم وادخلهم في خدمته ، وأهمل العنصرين العربي والفارسي ، وذلك الوضع زاد في عوامل الشقاق في داخل الدولة ومع ذلك أن الخليفة المعتصم « اتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الاسلام سببا للاعتماد عليهم فولاهم حراسة قصره واسند اليهم أعلى المناصب وقلدهم الولايات الكبيرة وأدر عليهم الهبات والارزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء »[٣] وبعد ذلك انشأ المعتصم لهم مدينة سامرا سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م ونقلهم اليها وما لبث أن انتقل مركز الخلافة العباسية الى سامرا بدلاً من بغداد فازداد نفوذ العنصر التركي حتى أصبح هؤلاء الاتراك بأيديهم القوة الفعلية ومن أمثلة ذلك عزل وتعذيب وقتل من يعارضهم من الخلفاء وتولية آخرين ممن يوافقون اهواءهم ، ولذلك أصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الاتراك مما ادى الى اضطراب الاحوال ، وأصبح الخليفة لا يفكر في امور الدولة واحوال الرعية بقدر ما يفكر في أموره الخاصة وسلامته ، واعتماد الخلفاء العباسيين على عنصر وإهمال العناصر الاخرى يعني عدم نجاح سياسة الدولة في السيطرة على الاحوال كافة ، ويعني في نفس الوقت الانحراف عن منهج القرآن الكريم .

أما فيما يتعلق بتولية الحكم في الدولة الاسلامية لانسان غير كفء فقد نتج عن هذا اضطراب الاحوال واشاعة الفتن وطمع العدو في البلاد ، والأصل ان يتولى امر المسلمين أنفعهم للناس واحرصهم على اقامة شرع الله في الارض وحماية المسلمين وتأمين حدودهم ، لأن شخص الخليفة او السلطان راع ومسؤول عن رعيته في كل شيء.ولما اعيد مركز الخلافة العباسية من سامرا الى بغداد في عهد الخليفة المعتضد لم يزل قادة الجيوش من الاتراك هم اصحاب القوة الحقيقية في الدولة العباسية ، وبقي

(٢) د . حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٥١

(٣) د . حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٢٩ ، د . سعيد عاشور الحركة الصليبية ج١ ص ٥٣ ـ ٥٤

الحال على هذا الوضع حتى دخل البويهيون بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ م . ولقد حاول الخليفة الراضي ان يصلح من حال الخلافة العباسية فأوجد منصبا جديدا أطلق على صاحبه « امير الأسراء » وهو منصب يعلو منصب الوزير فتركزت السلطات في يد هذا الامير ولم يبق للخليفة العباسي من الخلافة الا اسمها[٤] وازدادت الدولة العباسية في ظل هذا النظام سوءا ، اذ تفاقم النزاع بين الاتراك على هذا المنصب مما ادى الى ازدياد حالة الفوضى في البلاد ، ولم يعد للخليفة من سلطة فعلية، بل اكتفي بذكر اسمه في الخطبه ، ونقش اسمه على النقود . فاضطر الخلفاء العباسيون امام هذا الحال الى الالتجاء الى بني بويه لتخليصهم من سيطرة العنصر التركي الا أن الخلافة العباسية ضاعت هيبتها وسطوتها ودب فيها الضعف والانحلال حيث نشأت في انحائها المختلفة دويلات مستقلة انفصلت عن جسم الخلافة العباسية فظهرت دولة الأدارسة الشيعية في مراكش(١٧٢ ـ ٣٦٤هـ/ ٧٨٨ ـ ٩٧٤م) واتخذ حكامها مدينة فاس حاضرة لهم في حين قامت دولة الاغالبة السنية في تونس (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩ م) واتخذ حكامها مدينة القيروان حاضرة لهم وعلى انقاض هاتين الدولتين تأسست الدولة الفاطمية في شمال افريقية فيما بعد (٢٩٧ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٦٩ م) اما في مصر فقد قامت فيها الدولة الطولونية ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) التي أسسها احمد بن طولون وبسط سيطرته على سوريا سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧م ثم قامت في مصر الدولة الاخشيدية ٣٢٣ ـ ٣٥٨/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) التي أسسها محمد بن طغج الاخشيد بتفويض من الخليفة العباسي الراضي ، وبعد ذلك سيطر على سورية وفلسطين ومكة والمدينة واستمرت الدولة الاخشيدية حتى سقطت مصر في ايدي الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م .[٥]

اما في شرق العالم الاسلامي فقد ظهر ضعف الخلافة العباسية ايضا بظهور عدد من الدول الاسلامية المستقلة ، فنجد الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين في خراسان (٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٧٢ م) واتخذ من مدينة مرو حاضرة له ، وامتد نفوذ خلفائه حتى حدود الهند ، ونقلوا حاضرتهم الى مدينة نيسابور ،

---

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٠ ، د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٥٣ ـ ٥٤

(٥) د . حافظ حمدي : الشرق الاسلامي ص ٢٥ ـ ٢٦ ، د . سعيد عاشور الحركة الصليبية ج١ ص ٥٥

وظلت هذه الدولة حتى حلت محلها الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠ هـ/ ٨٦٧ ـ ٩٠٣ م) التي أسسها يعقوب بن الليث الصفار ، وشملت هذه الدولة بلاد فارس وبعض بلاد الهند ، وامتدت حتى هددت بغداد نفسها في عهد الخليفة المعتمد ثم ورثتها الدولة السامانية التي قامت في بلاد ماوراء النهر وفارس (٢٠٤ ـ ٣٩٥هـ/ ٨١٩ ـ ١١٠٤م) واتخذ السامانيون من بخارى عاصمة لهم ، واصبحت سمرقند تنافس بغداد في علومها وفنونها ، بعد أن سيطر السامانيون على سجستان وكرمان وجرجان والري وطبرستان .

هذا بالاضافة الى عدد من الدويلات الصغيرة التي استغلت ضعف الخلافة العباسية ، واعلنت استقلالها ، وهذا الوضع من اكبر الأدلة على ضعف الدولة العباسية وعدم قدرتها على بسط سيطرتها ونفوذها على ارجاء الدولة الاسلامية[٦] .

بقي هذا الوضع الى أن ظهر البويهيون حوالي عام ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م وهم فئة شيعية من ابناء بويه الذي نشأ في اقليم مازندران وكان بويه هذا قائد قبيلة تركية دخلت في خدمة الدولة السامانية تارة وفي خدمة الاسماعيلية جنوبي بحر قزوين تارة أخرى ، وبعد أن تمكن هؤلاء من التخلص من التبعية ساروا نحو الجنوب واحتلوا اقليم فارس مستغلين في ذلك ضعف الدولة العباسية في بغداد وتقلص نفوذها واضمحلال هيبتها ، ودليل ضعف الخلافة العباسية في هذه الفترة ان الخليفة المتقي هرب من بغداد وطلب معونة الحمدانيين ثم طلب معونة الاخشيد في مصر الذي عرض عليه ان يترك بغداد ويقيم في مصر ، ولكن الخليفة المتقي رفض هذا العرض وعاد الى بغداد فخلع من الخلافة وتولى بعده الخليفة المستكفي بالله الذي لم يكن أحسن حالا من سابقه ، فدخل احمد بن بويه بغداد سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م وتوقع الخليفة كل الخير فاطلق على احمد بن بويه لقب معز الدولة ولقب اخاه عليا باسم « عماد الدولة » واخاهما الحسن « ركن الدولة » وبالغ في اكرامهم فضرب القابهم على السكة زيادة في التقرب اليهم[٧] ولكن الفترة التي حكم فيها بنو بويه بغداد (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م) كانت تنطوي على اذلال الخلفاء

---

(٦) د . حافظ حمدي : الشرق الاسلامي ص ٢٦ ـ ٢٧

(٧) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢

واستخدام الخلع والتعذيب والتشريد للخلفاء حتى أصبح البويهيون كل شيء في الدولة ، ولقد وصف هذا الحال صاحب كتاب الفخري حين قال عن هذه الجماعة انها « استولت على الخلافة فعزلت الخلفاء وولتهم واستوزرت الوزراء وصرفتهم وانقادت لاحكامها أمور بلاد العجم وامور العراق وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق »[8] وهذا يدل على ما وصل اليه الحال بخلفاء الدولةالعباسية في عصر بني بويه ، وقد عجز الخلفاء عن استرداد مكانتهم وباتوا يتطلعون الى منقذ ، وكان هذا الأمل في الاتراك السلاجقة .

السلاجقة في عصر قوتهم وجهادهم ضد الاعداء

أصل السلاجقة من قبائل الغز التركية ، اندفعوا حوالي سنة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ م من سهول تركستان ، واستقروا في بلاد ما وراء النهر ، وهناك دخلوا في دين الاسلام ، واتبعوا مذهب السنة ، ودخل سلجوق وابناؤه في خدمة السامانيين ، وقد استطاع طغرلبك حفيد سلجوق ان يتحرك بقواته حتى وصل الى خراسان .

وفي عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م وضع السلاجقة ايضا أيديهم على مرو ونيسابور من ممتلكات الدولة الغزنوية ، ثم ضموا اليهما بلخ وجرجان وطبرستان وخوارزم وهمذان والري واصفهان وبازدياد نفوذ السلاجقة ضعف نفوذ البويهيين في وقت كان فيه الخليفة العباسي القائم بأمر الله يئن تحت حكم البساسيري الذي كان مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، وكان البساسيري قد عظم قدره بالعراق واستفحل فطار اسمه ، وعظمت هيبته ، وخافته امراء العرب والعجم ، وخطب له على منابر العراق ،ولم‌يبق للملك الرحيم بن بويه الا مجرد الاسم ، ثم بلغ الخليفة القائم بأمر الله ان البساسيري قصد دار الخلافة للقبض عليه ، وفعلا تمكن البساسيري من القبض على الخليفة القائم وسجنه في قلعة الحديثة فاضطر الخليفة العباسي أن يستنجد بطغرلبك السني المذهب لانقاذه من تحكم البساسيري الشيعي المذهب ، فاستجاب طغرلبك السلجوقي لاستغاثة الخليفة ، وتحرك من مدينة الري ، ووصل الى ابواب بغداد ، فاستأذن الخليفة في دخول بغداد ، فأذن له

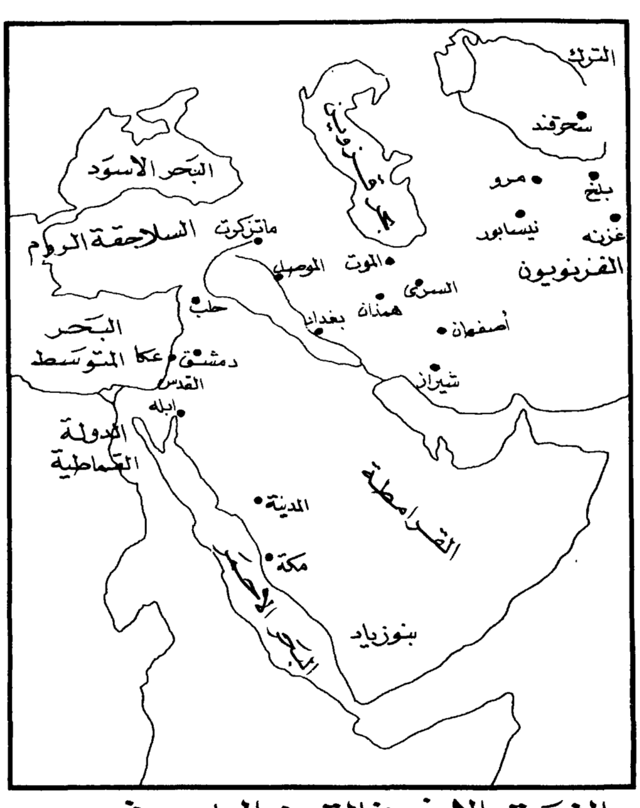
---

(٨) ابن طباطبا : الفخري في الأداب السلطانية ص ٢٤٤

فدخلها في ٢٥/ ٩/ ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥م[١٠] واستقبله الخليفة وكبار رجال الدولة واعيانها باعظم تكريم ، وامر الخليفة بذكر اسمه في خطبة الجمعة كما لقبه باسم « ركن الدولة طغرلبك امام امير المؤمنين » ازاء تلك الاحداث هرب البساسيري الى الرحبه وخطب هناك للخليفة المستنصر بالله الفاطمي فأمده بالاموال واستطاع البساسيري ان يحتل بغداد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م منتهزا فرصة غياب طغرلبك عنها ، اذ كان مشغولا في القضاء على ثورة نشبت في شمال العراق ، وخطب البساسيري للخليفة الفاطمي على منابر بغداد ، وأرسل الهدايا الى مصر ، ومن بينها عمامة الخليفة القائم بامر الله العباسي وشباك جميل من شبابيك قصره ، وذلك دليل على ما احرزه من نصر ودليل طاعة البساسيري للخليفة الفاطمي وتبعيته له ، الا أن طغرلبك عاد الى بغداد وقبض على البساسيري وقتله سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م واستقر الأمر في بغداد بعد ذلك للسلاجقة وزاد نفوذ طغرلبك حتى ان امبراطور بيزنطة ارسل يطلب الهدنة من طغرلبك وهاداه «وعمر مسجدالقسطنطينية واقام فيه الصلاة والخطبة طغرلبك »[١١] ولقد كان السلاجقة يستحقون تولي امر المسلمين في ذلك الوقت ، فقد كانت الفترة الواقعة بين سنتي(٤٤٧ ـ٤٨٥ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٠٩٢م) تعتبر أعظم عصور السلاجقة ، لأنهم تمكنوا خلالها ان يوحدوا العالم الاسلامي من جديد في منطقة الشرق الاسلامي ، واوجدوا بذلك دولة قوية بدلا من دول ضعيفة متنافرة متعادية ، والاسلام يوجب على المسلمين أن يقوم بأمرهم من هو أقدر على تقديم الخير للمسلمين وتوفير الامن وردع الاعداء وحفظ الاسلام والذود عنه ، ولهذا قام السلاجقة بتوسيع املاك المسلمين تدريجيا ، فقد استطاع طغرلبك ان يبسط نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينية ، ولما توفي سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م خلفه في الحكم الب ارسلان (لفظ تركي معناه أسد) وتمكن من توسيع املاكه على حساب الدولة البيزنطية حتى امتدت املاك الدولة السلجوقية الى بحر مرمره بعد أن ألحق الهزيمة بالامبراطور البيزنطي رومانوس وأسره في موقعة فاصله هي موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٤

(١٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٩ ص ٢٥٤ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ص / ٢٧ ، ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٥٦ ، المقريزي : السلوك ج١ ص ٣١ ـ ٣٣

(١١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٣٢ ، ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٧١ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧ ، ابن الاثير : الكامل ج٩ ص ٢٦٧ ، ٢٧١



الشرق الادنى في القرن الحادي عشر

هـ/ ١٠٧١ م . كما تمكن السلاجقة من الاستيلاء على حلب سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧٠م وبهذا منع السلاجقة الدولة الفاطمية من اجتياح هذه البلاد ، بل استطاع الب ارسلان ان يستولي على مكة والمدينة وخلصهما من السيطرة الفاطمية .

ولما تسلم السلطان ملكشاه الحكم سنة ٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م استطاع أن يخضع سورية وجورجيا في ناحية الغرب وبخارى وسمرقند وخوارزم في الشرق ، كما أخضع بلاد تركستان فيما وراء نهر سيحون ، وضربت النقود باسمه في هذه البلاد وخطب له في مدينة كاشغر ، ولذلك بلغت الدولة السلجوقية ازهى عصورها في عهد هذا الملك ، فقد امتدت من حدود الصين شرقا الى جورجيا والاراضي المجاورة لمدينة القسطنطينية غربا كما شملت بلاد العرب وبيت المقدس في فلسطين . وهذا الموقف جعل السلاجقة ملزمين بالجهاد ضد اعداء الاسلام ، وبفضل جهادهم لم يتمكن البيزنطيون من تحقيق اهدافهم التوسعية في العالم الاسلامي ، ويرجع الفضل لهم ايضا في التصدي للصليبيين في بداية الحروب الصليبية واشعلوا نار الجهاد الاسلامي لدرجة أدت في النهاية الى فشل الصليبيين ، هذا بالاضافة الى نشاط السلاجقة في مجال العلم والمعرفة والفنون والعمران ، بل انهم الأصل الذي ظهر فيه آل زنكي ، ومن ثم أسرة صلاح الدين الايوبي[١٢] غير أن الدولة الاسلامية السلجوقية القوية لم تلبث ان بدأت تعاني من عوامل الضعف بعد وفاة السلطان ملكشاه لاسباب كثيرة من بينها انقسام السلاجقة على أنفسهم ، ومحاولة أبناء ملكشاه وأحفاده تحقيق اهدافهم الخاصة وآثروا الدنيا على الآخرة في كثير من الاحيان ، وانقسمت الدولة الى عدة دويلات صغيرة عرفت باسم دول الاثابكة ، وانشغلت كل دولة منها بالنزاع مع الاخرى ، والسبب في ذلك عدم وجود خلافة قوية تستطيع أن تستوعب هذه الدويلات وتشملها في دولة الخلافة الاسلامية ، ولذلك كانت الفترة التي اعقبت وفاة ملكشاه حتى نهاية الحكم

---

(١٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١ ص ٧٦ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص ١٦٢ ، د .حافظ حمدي : الشرق الاسلامي ص ٣٤ ـ ٣٧ ، د . زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي ص ١٨ ـ ٢٦ ،

Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire ,Vol. 6, pp.20—21,
J.B.Bury : The cambridge Medieval History pp. 299—300; Browne : A literary History of persia, vol, 2. p 165; Le strange : Baghdad During the Abbasid caliphate, p. 326.

السلجوقي في بغداد سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣ م تعتبر فترة نزاع داخلي بين ابناء السلطان ملكشاه واحفاده لتحقيق اهداف شخصية ، ومن ثم كانت هذه الروح من أسباب ضعف الشرق الاسلامي امام الغزو الصليبي وبقي الخلفاء العباسيون على حالهم من الضعف ، ويصور هذا الضعف ان السلطان ملكشاه قرر طرد الخليفة المقتدي من بغداد سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م لأنه رأى فيه ميلا ورغبة الى التدخل في الحكم فارسل اليه ملكشاه يقول له : « لا بد ان تترك بغداد وتذهب الى اي بلد شئت ، فانزعج الخليفة وقال : أمهلني ولو شهرا قال : ولا ساعة واحدة ، فأرسل الخليفة الى وزير السلطان يطلب المهلة الى عشرة ايام ، فاتفق مرض السلطان وموته ، وعد ذلك كرامة للخليفة »[١٣]

ومن أدلة ضعف الخلفاء أيضا انه لما توفي السلطان ملكشاه وسأ نزاع بين ابنائه لم يستطع الخلفاء التدخل في هذا الوقت لاسترداد سلطتهم واظهار قوتهم ، بل بقي الخليفة ينتظر نتيجة الصراع القائم بين الاخوة لينضم في النهاية الى الجانب الغالب والمنتصر ضد المغلوب ، على الرغم من محاولات بعض الخلفاءالاستفادة من هذا الوضع لمصلحته الخاصة ، مثال ذلك ان الخليفة المقتفي استطاع في سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م ان يرغم السلطان السلجوقي سليمان شاه على النزول عن كل حق له في بغداد ما عدا الخطبة[١٤]

وخلاصة القول ان انحلال الدولة السلجوقية وضعفها ترتب عليه خطر عظيم على العالم الاسلامي ، فقد أصبح لقمة سائغة للمعتدين من الشرق ومن الغرب ، وكان العدوان الصليبي من الغرب ، ونجاح الصليبيين في تحقيق اهدافهم واحتلال معظم بلاد الشام ، دليل لا يقبل الشك على انقسام العالم الاسلامي وضعفه في هذه الفترة، وعلى الرغم من ضعف العالم الاسلامي ، ممثلا هذا الضعف في الخلافتين العباسية والفاطمية والسلاجقة ، فان الاتراك السلاجقة لم يكونوا يهملون تماما الجهاد ضد البيزنطيين الذين يناهضون المسلمين ويعتدون عليهم كلما سمحت الظروف لهم بذلك ولاعتقاد السلاجقة بان الجهاد ضد الاعداء ينبغي أن يستمر بقدر

---

(١٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٨١ - ١٨٢

(١٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٢٢

الاستطاعة ولا يصح أن يتوقف مهما كانت الاسباب ومهما كانت التضحيات فهذا سبيل المؤمنين . ومنذ النصف الاول للقرن الحادي عشر الميلادي ، كان السلاجقة يهاجمون اراضي الدولة البيزنطية بين الحين والآخر ، فقد تمكن ابراهيم بن اينال سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م من غزو أرمينية البيزنطية، ووصل السلاجقة في تقدمهم حتى ملا زكرد وارزن ثم طرا بيزون على شاطىء البحر الأسود وعندئذ اكثر السلاجقة من «القتل في الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم»[١٥] وكان من بين الأسرى البيزنطيين القائد البيزنطي الذي أطلق سراحه فيما بعد.

وفي عام ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م هاجم السلاجقة اراضي بيزنطة في أقليم قرس بل أن السلطان طغرلبك غزا أرمينية سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م ودمر ما صادفه من القرى والمزارع الواقعة ما بين بحيرة فان وجورجيا وارزن وحاصر مانزكرت « وضيق على أهلها ونهب ما جاورهما من البلاد وأخربها »[١٦]

ولقد استمرت غارات المسلمين السلاجقة ضد الدولة البيزنطية في عهد الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤ م/ ٤٣٤ ـ ٤٤٦ هـ) وشملت جميع انحاء أرمينية بل ازدادت هذه الغارات في الفترة من ٤٤٩ ـ ٤٧٤ هـ/ ١٠٥٧ ـ ١٠٨١ م ، واجتاح السلاجقة كبادوكيا وملطيه وبقي السلاجقة يهاجمون اراضي بيزنطة حتى وفاة السلطان السلجوقي طغرلبك سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م دون الاستقرار في اراضي الدولة البيزنطية ، وانما اكتفوا بانزال الرعب في قلوب البيزنطيين وارهابهم تنفيذا لفريضة الجهاد في الاسلام ولاشعار العدو بيقظة المسلمين وانتباههم واظهار قوتهم فلا يفكر العدو في مباغتتهم ، ولكن الخطط العسكرية للسلاجقة بدأت تتغير بعد سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م بعد ان تأكدوا من ضعف الامبراطورية البيزنطية من ناحية ووجود شخصية قوية في السلطنة السلجوقية هي شخصية ألب ارسلان ٤٥٦ ـ ٤٦٥ هـ/ ١٠٦٣ ـ ٧٢ ١م فدخلت سياسة السلاجقة العسكرية نحو البيزنطيين دورا جديدا هو احتلال الاراضي البيزنطية وضمها الى دار الاسلام . ففي سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م استولى ألب ارسلان على آني ثم على قرس وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية والمركزان الأساسيان لقوة الدولة البيزنطية في الاقاليم الشمالية

---

(١٥) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٧٩

(١٦) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٨١

الشرقية من آسيا الصغرى[١٧] واستمرت الهجمات الاسلامية السلجوقية ضد الدولة البيزنطية حتى دمروا اقليم كابادوكيا بأكمله ثم وصلوا قيصرية فخربوها سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م ولم يتمكن الامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧ م/ ٤٥١ - ٤٦٠ هـ) من الوقوف في وجه الهجمات الاسلامية المتتالية لأن المسلمين أوقعوا في قلبه الوهن والخوف فلما انتقلت السلطة في بيزنطة الى الامبراطور رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١ م/ ٤٦٠ - ٤٦٤ هـ) بدأ باصلاح الاوضاع الداخلية في الاسبراطورية البيزنطية . ثم اهتم باعادة بناء الجيش البيزنطي وتنظيم قواته ، وشرع في التحرك للانتقام من المسلمين السلاجقة واسترداد الاناضول حتى الفرات شرقا ولم تكد تنتهي سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م حتى تمكن الامبراطور من الوصول بجيشه الى منبج الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات في حين وصلت حامية اخرى من قواته الى ارتاح شرقي انطاكيه وقال ابن الاثير « في هذه السنة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف الى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما بن جموع العرب ثم ان ملك الروم ارتحل وعاد الى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع » .[١٨] .

ولم يتوقف السلاجقة عن الهجوم على اراضي الدولة البيزنطية ولم تعد أرمينيا تقف حاجزا بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى كما استولى السلاجقة على مدينة ملطية بعد ان هزموا حاكمها البيزنطي .

وفي عام ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م انزل السلاجقة المسلمون هزيمة اخرى شديدة الاثر بالقائد البيزنطي مانويل كومنين قرب سيواس واسروا ذلك القائد [١٩]

وفي هذه السنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م سار السلطان ألب ارسلان الى حلب وجعل طريقه على ديار بكر، فخرج اليه صاحبها نصر بن مروان وخدمه بمائة الف دينار وحمل اليه اقامة عرف السلطان أنه قسطها على البلاد ، فأمر السلطان بردها » الى

---

(١٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٣٧ - ٣٨
(١٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٦٠
(١٩) Grousset : l'Empire de levant p. 165

اصحابها ، لأن اخذ مال المسلمين وتقديمه هدية للسلطان ليس مقبولا في الاسلام[٢٠] وكان السلطان ألب ارسلان قد انتهى من تصفية المشاكل الداخلية في دولته ، وعاد من ايران وقد قرر اتباع سياسة الجهاد الديني العام ضد الدولة البيزنطية ، وخضعت له حلب ، واعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب ارسلان واصبحت الدولة السلجوقية محط انظار المسلمين[٢١] .

وفي سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م حاول الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع استرداد أرمينية ، وتحرك بقواته الكثيرة العدد والمتعددة الاجناس وصفها ابن الاثير بقوله : « في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي الف من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاؤوا في تجمل كثير وزيّ عظيم ، وقصد بلاد الاسلام . . . »[٢٢] فوصل الى مدينة ملازكرد (منازكرت) في سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . وكان قد استولى عليها في العام الماضي السلطان الب ارسلان ، وعلم السلطان السلجوقي بتحرك الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع بهذه القوات الكثيرة « وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس وجد في السير وقال لهم : انني أقاتل محتسباً صابرا فان سلمت فنعمة من الله تعالى ، وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي ، وساروا »[٢٣] وكان الامبراطور رومانوس الرابع قد استولى على مانزكرد ، فتقدمت بعض القوات الاسلامية السلجوقية وهاجمت جزءا من قوات العدو عند مدينة خلاط ، وانتصر المسلمون وأسروا أحد قادة الاعداء ، وبالرغم من ذلك ، فان السلطان ألب ارسلان أرسل الى الامبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته فكان رد الامبراطور البيزنطي : (لا هدنة الا بالري) بمعنى أنه يرفض المهادنة وينوي احتلال دولة السلاجقة حتى يصل الى قلب الدولة السلجوقية وهي مدينة الري ، فانزعج السلطان الب ارسلان لذلك فقال له امامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : « انك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر

(٢٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٤
(٢١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٣ ـ ٦٤
(٢٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٦٥
(٢٣) ابن الاثير المصدر السابق ج١٠ ص ٦٥

الأديان وارجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة ، بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة »[٢٤] هذا هو واجب الفقهاء وعلماء الاسلام في النصيحة وقول الحق ودورهم في الدعوة للجهاد لا يخشون الا الله .

فلما كانت تلك الساعة (وقت الصلاة) صلى بهم ، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه ، وقال لهم : « من أراد الانصراف فلينصرف ، فما ها هنا سلطان يأمر وينهي ، وألقى القوس والنشاب ، واخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط وقال : ان قتلت فهذا كفني »[٢٥]

وفي ١٩/ ٨/ ١٠٧١ م/ ٤٦٣ هـ زحف السلطان الب ارسلان الى الروم « وزحفوا اليه ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى واكثر الدعاء ، ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون في وسطهم ، وحجز الغبار ، بينهم ، فقتل المسلمون فيهم كيف شاءووا وانزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم ، وقتل منهم مالا يحصى ، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى « واسر ملك الروم »[٢٦] وهرب القادة البيزنطيون والجند تاركين الامبراطور يقع في اسر المسلمين ! وهنا نؤكد على حقيقة هامة هي النصر لا يرتبط بالعدد الكثير او القليل وانما يرتبط بنوع الرجال المجاهدين المخلصين « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » وكان هذا النصر في موقعة مانزكرت اكبر كارثة حلت بالامبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، فقد تبدد جيشها وقوامه مائتي الف مقاتل امام قوة قليلة من المسلمين لم تزد على خمسة عشر الفا من المجاهدين . وبعد هذه المعركة بدأ ضغط المسلمين على أبواب أوربا ، ومن ثم كان لابد للغرب الاوروبي من اتخاذ بعض التدابير لحماية اوروبا من خطر الفتوحات الاسلامية وخصوصا بعد أن وضح لهم ضعف الامبراطورية البيزنطية التي كانت تتصدى للاسلام والمسلمين منذ ظهور

(٢٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٦٥ - ٦٦
(٢٥) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٦٦
(٢٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٦٦

الاسلام . وكان السلطان الب ارسلان قد احضر الامبراطور الاسير رومانوس الرابع ، فلما مثل امامه قال له السلطان الب ارسلان : ألم أرسل اليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ ، وافعل ما تريد ! فقال السلطان ما عزمت أن تفعل بي ان اسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح ـ قال له : فما تظن انني أفعل بك ؟ قال : اما أن تقتلني ، واما أن تشهرني في بلاد الاسلام ، والاخرى بعيدة وهي العفو وقبول الاموال واصطناعي نائبا عنك . قال ما عزمت على غير هذا . فاتفق معه على أن يدفع فدية قدرها « الف الف وخمس مائة الف دينار وأن يرسل اليه عساكر الروم أي وقت طلبها وان يطلق كل أسير في بلاد الروم »[٢٧] واستقر الأمر على ذلك وانزله في خيمة وأرسل له الب ارسلان عشرة الاف دينار يتجهز بها ليعود الى بلاده « وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره الى بلاده وسير معه عسكرا اوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا »[٢٨]

وهنا ننبه الى أن المهادنة الطويلة المدى جازت لأن امبراطور الروم في بلاده اي في دار الكفر وتعهد بعدم الاعتداء بل كان نائبا عن السلطان الب ارسلان في حكم القسطنطينية حسب الاتفاق ولما عاد الامبراطور رومانوس الرابع الى بلاده قتله الامبراطور ميخائيل السابع (٤٦٣ ـ ٤٧١ هـ/ ١٠٧١ ـ ١٠٧٨ م) الذي وثب على عرش الامبراطورية بعد هزيمة رومانوس الرابع وأسره ، اما السلطان الب ارسلان فقد قتل سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م اثناء حروبه في منطقة بلاد ما وراء النهر (جيحون) فخلفه ابنه ملكشاه (٤٦٤ ـ ٥٨٥ هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م) الذي استطاع تثبيت دعائم دولة السلاجقة حتى أصبحت في عهده تمتد من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمره غربا[٢٩] واخذ السلاجقة في عهده في التوسع في آسيا الصغرى . وتمكن السلاجقة في سنة ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م من الدخول في حلف مع نقفور حاكم اقليم عمورية في فريجيا ، وكان نقفور اعلن نفسه امبراطورا باسم نقفور الثالث ، وخلع

---

(٢٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٦٦ ـ ٦٧
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٨٥
(٢٨) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٦٧
(٢٩) ابن الاثير : الكامل في التايخ ج١٠ ص ٧٣ ـ ٧٨
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٨٦

طاعة امبراطور بيزنطة ميخائيل السابع دوقاس واستغل السلاجقة هذا الظرف فاستولوا على كثير من المدن مثل نيقيه ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور . وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة الاتراك نيقيه بوصفهم حماة الامبراطورية التي رأسها الامبراطور نقفور الثالث ، وهذه الحماية للامبراطور نقفور الثالث انما هي من قبيل ايقاع الخلف بين البيزنطيين من ناحية وعدم اتاحة الفرصة لاتحاد البيزنطيين في دولة واحدة يمكنها مواجهة المسلمين ، ومن جهة ثالثة كانت تمهيدا للسيطرة الاسلامية على دولة نقفور الثالث بدليل ان حامية نيقيه السلجوقية في سنة ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م اعلنت العصيان في وجه نقفور الثالث وتعاونوا مع خصمه الثائر نقفور ايضا وعقد اتفاقية مع سليمان بن قتلمش القائد السلجوقي في تلك الجهات ، فتعهد سليمان بن قتلمش ان يساعد الثائر في الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة المسلمين على نصف المدن والاقاليم التي سبق ان ساعدوا نقفور الثالث في الاستيلاء عليها وهذه هي الموالاة للاعداء التي يقرها الشرع الاسلامي لأنها تعود على المسلمين بالقوة وتدخل الرعب والضعف في قلوب الاعداء ، ولهذا باشر السلاجقة نشاطهم الحربي ضد بيزنطة بوصفهم حلفاء نقفور الثائر على نقفور الثالث ، واحتلوا مراكز ومدنا جديدة ، ومع ذلك فقد انتهى هذا الصراع بين الأباطرة البيزنطيين بأن أصبح في عام ٤٧٤ هـ/ ١٠٨١ م الكسيوس كومنين امبراطورا أوحد في القسطنطينية، فمال نقفور الثائر اليه بحكم الدين والجنسية ودخل في طاعته، وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلمش الاعتراف بأي حق للامبراطورية البيزنطية في المدن والاراضي التي احتلوها في اسيا الصغرى، واتخذ سليمان بن قتلمش مدينة نيقية مركزا له ، وأصبحت عاصمة لسلطنة السلاجقة في الأناضول حتى حلت محلها قونيه فيما بعد (٤٧٤ - ٧٠٢ هـ / ١٠٨١ - ١٣٠٢م) واحتل السلاجقة نيقوميديا ولم يستطع الامبراطور الكسيوس كومنين استردادها الا في سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م بعد وفاة سليمان بن قتلمش زعيم السلاجقة في آسيا الصغرى ، ثم احتل السلاجقة مدينة أزمير الواقعة على بحر ايجه ، وقام اميرها التركي المسلم زاخاس بانشاء أسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شاطىء اسيا الصغرى ، بل أكثر من ذلك هدد به القسطنطينية ذاتها ، وكانت الدول السلجوقية هي صاحبة السيادة في آسيا الصغرى من الفرات شرقا حتى بحر مرمره غربا ، وبالرغم من أن أمراء السلاجقة ، كانوا لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن

قتلمش الا أنهم يقفون معه ضد خصوم الاسلام البيزنطيين ، وظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونيه سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م على يد قلج ارسلان الاول ابن سليمان .[٣٠] باستثناء انطاكية والرها التي قامت بهما حاميات بيزنطية وزعماء من الارمن يعترفون بالسيادة البيزنطية في القسطنطينية ، واستمرت انطاكيه على ذلك الحال حتى سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م والرها حتى ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م ، وأخذت المدن الكبرى في اسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للاتراك السلاجقة الذين وجدوا ترحيبا من عبيد الارض الذين أمر سليمان بن قتلمش بتحريرهم من العبودية التي عاشوها مع كبار الملاك البيزنطيين ، ولأن الاسلام جاء من أجل تحرير الانسان من الاضطهاد والعبودية للانسان ، فازداد الحال صعوبة على بيزنطة ، اذ لم تتمكن من استرداد هذه البلاد بسبب قوة جهاد المسلمين السلاجقة وتمسكهم بالدين الاسلامي لدرجة جعلت الغرب الاوروبي المسيحي يفكر جديا فيما يفعلون لدرء هذا الخطر الاسلامي الجديد وكيفية مواجهته والتصدي له ، واما عن موقف السلاجقة في هذه الفترة من بلاد الشام . فقد سار في سنة ٥٤٧ هـ الى الشام الامير السلجوقي تاج الدولة ابو سعيد تتش ابن السلطان العادل ألب ارسلان وشقيق ملكشاه ، والسبب في حضوره أن أخاه ملكشاه (اقطعه الشام وما يفتحه في تلك النواحي)[٣١] فأتى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة وكان معه جمع كثير من التركمان ، فأرسل اليه أقسيس حاكم دمشق يستنجد به ويعرفه أن القوات الفاطمية وصلت من مصر وحاصرت دمشق ، فسار تاج الدولة تتش الى دمشق لمناصرة أقسيس وترك حصار حلب واستولى على دمشق سنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م حيث وجد انصارا للسلاجقة واستولى على جزء كبير من بلاد الشام ، وكان أقسيس قد انتزع الرملة وبيت المقدس وفلسطين باكملها عدا أرسوف من أيدي الفاطميين وذلك حوالي ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م وفشل أقسيس في محاولته غزو مصر سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م وبعد مقتله ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م صار تتش يسيطر على الاقاليم الوسطى من بلاد الشام ، وكان ذلك في الوقت الذي استنجد به أهل حلب سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م

---

(٣٠) Setton : History of crusades, vol, 1, p: 213; Grousset: l'Empire du levant, pp. 170— 173; Cambridge Medieval History, vol, 4, pp. 331 —332

(٣١) النويري : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٣١ (مخطوط) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ١١١

ضد القائد سليمان بن قتلمش الذي اخذ يحاصر مدينة حلب [٣٢] وهكذا اصبحت المعركة المقبلة في شمال بلاد الشام بين سليمان بن قتلمش فاتح بلاد الاناضول وصاحب السيادة عليها من نيقيه الى انطاكيه ، والثاني هو تتش اخو السلطان ملكشاه نفسه ، الا أن سليمان بن قتلمش قتل في المعركة التي دارت بينهما قرب حلب سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م وترتب على مقتله عدم وجود وريث كبير يحكم بعده ، فقد ترك طفلا صغيرا هو قلج ارسلان داود مما جعل الاناضول يبقى في الفترة الواقعة ما بين سنتي ٤٧٩ ـ ٤٨٥ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١٠٩٢ م دون حاكم قوي من السلاجقة فأتاح هذا الوضع الفرصة امام الامراء التركمان للظهور كما ان هذا الوضع الضعيف مكن للقوات الصليبية ان تشق طريقها الى بلاد الشام ، ولم يقدر للسلاجقة ان يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبي ، وبقيت دول السلاجقة مفككة ، دولة سلاجقة فارس ، ودولة سلاجقة الشام ، ودولة سلاجقة الاناضول (سلاجقة الروم) ، ولم يحاول ابناء ملكشاه وتتش ان يتعاونوا مع سلاجقة الروم وهم خلفاء سليمان بن قتلمش ، وكان ذلك من حسن حظ الصليبيين ان واجهوا السلاجقة دولا عديدة لا دولة واحدة مما مكنهم من انزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة[٣٣] .

أما عن تتش شقيق ملكشاه ابن الب ارسلان فانه اصبح سيد الموقف في بلاد الشام بأكملها فتخوف منه ملكشاه نفسه ، فاستغل ملكشاه فرصة اصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم الا للسلطان ملكشاه نفسه فتحرك من عاصمته أصبهان الى حلب عن طريق الموصل ليقوم بتنظيم احوال بلاد الشام ، فلما اقترب من حلب ابتعد تتش عنها ، فدخلها ملكشاه وبدأ تنظيم احوال بلاد الشام ، فمنح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة أقسنقر مؤسس البيت الزنكي سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م « فعمرها واحس السيرة فيها »[٣٤] ثم سار السلطان ملكشاه بعد ذلك الى انطاكيه ، فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش ، ثم سار الى السويدية وهي

(٣٢) النويري : نهاية الارب ج٢٥ وقة ٣٢ (مخطوط) ، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١٠ ص ١١١ ، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص ٩١ ـ ٩٢ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ١٠٩ ـ ١١٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج١ ص ١٥ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ح١ ص ٣٣

(٣٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٩٦ ـ ٩٧

(٣٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ١٤٨ ـ ١٥٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٩٩ ـ ١٠٠

ميناء انطاكيه القريب فصلى على شاطىء البحر، « وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب » وجعل حاكم انطاكية قائدا تركيا اسمه مؤيد الدولة ياغي سيان .

أما مدينة الرها فقد أعطاها ملكشاه لقائد اخر من الاتراك اسمه بوزان[٣٥] وبذلك لم يبق لأخيه تتش سوى دمشق وفلسطين ، كما بقيت القدس بيد الامير أرتق الذي خلفه بعد وفاته سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م ابنه سكمان الاول ، وبهذا تمكن ملكشاه من القضاء على اطماع اخيه تتش وعدم اعطائه فرصة لاقامة دولة موحدة ببلاد الشام ، وحال ذلك دون قيام سلطنة للاتراك في بلاد الشام مما جعل البلاد تعاني من الانقسامات والخلافات ، هذا من ناحية ، ومن جهة أخرى فان ظهور تتش في شمال الشام سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م ادى الى مقتل سليمان بن قتلمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوي يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين الذي بات يهدد العالم الاسلامي ، في وقت اشتد فيه الانقسام والنزاع بين أمراء السلاجقة في آسيا الصغرى والشام.

أما عن موقف السلاجقة من الخلافة الفاطمية في هذه الآونة ، فان تتش شقيق ملكشاه لم يرض بهذا الحال ، فسار الى أخيه سنة ١٠٩١ م في بغداد وطلب من ملكشاه السماح له بالتوسع ببلاد الشام على حساب الدولة الفاطمية فوافقه على ذلك ، كما أمر ملكشاه اقسنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها أن يسيرا معه ويساعداه في الاستيلاء على ممتلكات الخليفة الفاطمي المستنصر الموجودة بساحل بلاد الشام « ويتوجها معه الى مصر ليملكها »[٣٦] وبدأ تتش بمحاصرة حمص فاخذها ثم هاجم عرقه وأفاميه وأخذهما ، وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها[٣٧] وهكذا أصبحت بلاد الشام تعاني من الفوضى والانقسام بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين من ناحية والبيوت العربية التي كونت لنفسها امارات

---

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠١
(٣٦) النويري : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٣٢ (مخطوط) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٠٢ - ٢٠٣
(٣٧) النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٣٢ - ٣٣

مستقلة ببلاد الشام من ناحية اخرى ، وخطورة هذا الحال في أنه جاء في الوقت الذي بدأ فيه الخطر الصليبي يلوح في الشرق الادنى الاسلامي، ويمكن القول ان هذا الضعف والانقسام واللامبالاة بالمصلحة العليا للاسلام والمسلمين ،كان هذا من العوامل الهامة في نجاح الصليبيين بل شجعهم على الحرب الصليبية ذاتها .

تفكك دولة السلاجقة وأثره على العالم الاسلامي :

كان ملكشاه يسعى الى اقامة دولة اسلامية واسعة تشمل كافة الاقاليم الاسلامية على غرار الدولة العباسية ايام ازدهارها وقوتها ، ولذلك عهد ملكشاه بشؤون الحكم في دولته الى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة وهو الوزير الشهير نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحق الطوسي ، وكان لا بد من الاعتماد على عنصر قوي الايمان شديد التمسك بالاسلام لتحقيق هذا الهدف ، ومن ثم اعتمد نظام الملك على الاتراك السنيين الا أن هذا الوضع أثار غضب العنصر الفارسي الشيعي في الدولة وترتب على هذه الكراهية ان قتل نظام الملك عام ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م بيد رجل ديلمي من الباطنية ، فأحدث ذلك فراغا ضخما بل هزة عنيفة في جسم الدولة السلجوقية ، وكان قد شغل منصب الوزارة للسلطان ملكشاه « ثلاثين سنة سوى ما وزر للسلطان الب ارسلان »[٣٨] واكثر الشعراء في رثائه فمن جيد ما قيل فيه قول شبل الدولة مقاتل بن عطيه :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة   يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها   فردها غيرة منه الى الصدف .

« وكان اذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فاذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة ، وكان اذا غفل المؤذن ودخل الوقت يأمره بالاذان ، وهذا غاية حال المنقطعين الى العبادة في حفظ الاوقات ولزوم الصلوات »[٣٩] ولحق المسلمين الهم لوفاته وذلك « لما كان عليه من حسن الطريقة واثار العدل والنّصفة والاحسان الى أهل الدين والفقه والقرآن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة »[٤٠] .

(٣٨) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص ٢٠٤ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٢
(٣٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩
(٤٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١

أما السلطان ملكشاه فقد زوج ابنته للخليفة العباسي المقتدي فانجبت طفلا اسمه جعفر ، ففكر ملكشاه ان يتولى هذا الطفل الخلافة من بعد المقتدي فيستطيع توحيد الدولة الاسلامية ويشمل ذلك العباسيين والسلاجقة ، فجعل ملكشاه من أصبهان مقره الصيفي في حين نقل مقره الشتوي الى بغداد ، ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسي الى التنازل عن الخلافة لابنه جعفر ، ولكن ملكشاه توفي بعد ايام في نوفمبر ١٠٩٢م/ ٤٨٥ هـ بسبب مرض اصابه بعد رحلة صيد (٤١) وكان لوفاته أسوأ الاثر على المسلمين فقد أصاب الدولة السلجوقية التفكك والانحلال في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة الى القوة والتماسك لمواجهة الخطر الصليبي ، وكان السلطان ملكشاه قد ترك ثلاثة من الابناء الاشقاء هم بركياروق ومحمد وسنجر وولدا رابعا من زوجة جديدة اسمه محمود كان في الخامسة من عمره عند وفاة أبيه ، ودب الخلاف بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية وبركياروق اكبر ابناء ملكشاه وكان في الخامسة عشرة من عمره من ناحية أخرى(٤٢) وانتهى هذا الخلاف بينهما بأن احتفظ محمود بأصبهان وفارس على أن تكون بقية الدولة السلجوقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق ، ولكن محمودا وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل خلال سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م وعندئذ اتجه بركياروق « في الحال الى اصبهان فدخلها وملكها »(٤٣) .

ولكن الخطر الذي هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تتش الذي كان يطمع في ان تكون الشام كلها من نصيبه ولم يرض عن التنظيم الذي أجراه أخوه ملكشاه في بلاد الشام سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م ، ذلك التنظيم الذي أعطى حلب للحاجب اقسنقر وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام ، فاغتنم فرصة الفوضى وعدم الاستقرار في الدولة السلجوقية وهاجم هيث فاخذها فبلغه فيها ملكشاه « وعاد الى دمشق يتجهز لطلب السلطنة ، فجمع العساكر واخرج الأموال وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة آقسنقر فصالحه وسار معه لعلمه باختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم وانه لا يطيق دفع تتش « وأرسل الى ياغي سيان صاحب انطاكيه والى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من اولاد

---

(٤١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢١٠ - ٢١١
(٤٢) ابن الاثير: المصدر السابق ج١٠ص ٢١٤ - ٢١٦
(٤٣)ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧

ملكشاه ففعلوا وصاروا معه ، وخطبوا له في بلادهم وقصدوا الرحبه فحصروها وملكوها في المحرم من هذه السنة (٤٨٦ هـ/ فبراير ١٠٩٣ م) وخطب لنفسه بالسلطنة »[٤٤] ثم سار الى نصيبين « ففتحها عنوة وقهرا وقتل من أهلها خلقا كثيرا »[٤٥] ثم عزل ابراهيم بن قريش بن بدران العقيلي أمير الموصل ، واستولى عليها في ربيع الآخر ٤٨٦ هـ/ ابريل ١٠٩٣ م وبذلك انتهت اسرة ابن عقيل في الموصل [٤٦]

كذلك استولى تتش على ميافارقين من حكامها بني مروان والاكراد ثم دخل فارس عن طريق أذربيجان لخلع بركياروق الا ان تتش اضطر للعودة الى بلاد الشام بسرعة وذلك بسبب تخلي آقسنقر امير حلب وبوزان أمير الرها عنه « وصارا مع بركياروق » ولم يبق معه الا أمير انطاكية في حين « انبسطت يد بركياروق واستقامت أحواله » ثم دخل بغداد دخول الظافر في نهاية سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م[٤٧]

وكان أول ما فكر فيه تتش عند عودته الى بلاد الشام الانتقام من آقسنقر امير حلب وبوزان أمير الرها فهاجم حلب سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م فاتحد آقسنقر مع بوزان ضده ، وأرسل اليهما بركياروق نجدة قوية بقيادة الامير كربوقا .[٤٨] ودارت المعركة بين الطرفين قرب مدينة حلب ، فانتصر تتش انتصارا حاسما ، وأسر آقسنقر وقتله ثم تتبع العساكر الذين هربوا من المعركة ودخلوا حلب فاستولى على حلب وأسر كربوقا وبوزان، فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كربوقا أسيرا الى حمص[٤٩] .

وبعد أن أخذ تتش حلب سار بقواته الى الفرات ، فاستولى على حران والرها ثم « سار الى الديار الجزريه فملكها جميعا ثم ملك ديار بكر وخلاط » ثم سار الى فارس لمنازلة بركياروق فخضعت له أذربيجان واحتل همذان والري ودارت المعركة

---

(٤٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(٤٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٢٠
(٤٦) ابن الاثير المصدر السابق ج١٠ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٠٨
(٤٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٠٩ ـ ١١٠
(٤٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٢٥
(٤٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٢٧

بين تتش وبركياروق قرب الري في اوائل ١٠٩٥ م/ ٤٨٩ هـ ، وانتصر بركياروق « فانهزم عكسر تاج الدولة تتش واستبيح ونهب وقتل في ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه في الحرب »[٥٠] واكتفى بركياروق بحكم فارس وبغداد دون أن يحاول ضم بلاد الشام اليه وكان تتش قد ترك ولدين هما فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق . فأخذ الاول ملك حلب واخذ الثاني ملك دمشق . اما في القطاع الشرقي من دولة السلاجقة ، فقد منح بركياروق أخاه سنجر ملك خراسان وما وراء النهر[٥١]

وهكذا لم تأت سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ الا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت الى خمس ممالك متنافسة هي سلطنة فارس (اصبهان) وعلى رأسها السلطان بركياروق وله السيطرة ايضا على بغداد ، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها ابو الحرث سنجر ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش واخيرا سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وهذا يعني انقسام السلاجقة واختلاف كلمتهم وايذانا بانحلال قوة السلاجقة في الوقت الذي بدأت الاستعدادات في الغرب الاوروبي من أجل الحرب الصليبية ضد الاسلام .

الدولة الفاطمية وعوامل ضعفها واثر ذلك على المسلمين :

كان ظهور الدولة الفاطمية في شمال افريقية (تونس) في القرن الثالث الهجري من الأدلة العملية على ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على هذا الاقليم ، ثم زحف الفاطميون على مصر ٣٥٨/ ٩٦٧ م فاخذوها ، فكان ذلك دليلا آخر على ضعف الدولة العباسية وانشغالها عن العالم الاسلامي وخصوصا الجزء الغربي منه ، وهذا الوضع شجع الدولة الفاطمية على الدعاية والترويج للمذهب الشيعي (الاسماعيلي) في بلاد المشرق في وسط اراضي الدولة العباسية ، وبدأ الفاطميون يفكرون في تحطيم الخلافة العباسية وتقويض المذهب السني أو على الأقل اضعاف الخلافة العباسية في النهاية اذا لم يتمكنوا من القضاء عليها ، ولكن حدث

---

(٥٠) النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٣٤ (مخطوط) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١١١

(٥١) ابن الاثير: الكامل ج١٠ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧

ان انقسم انصار هذه الدعوة الشيعية منذ أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ /١٠٣٥ ـ ١٠٩٤م) وادعى بعض الناس ان الخليفة المستنصر أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار بينما ادعى بعض آخر انه أوصى بها لابنه المستعلي ، ومن ثم نشأت بسبب ذلك الموقف فرقتان متعارضتان تناصر احداهما نزارا وتناصر الأخرى المستعلي ، وقد اتخذت الفرقة الاولى من بلاد المشرق الاسلامي مهدا لها بزعامة الحسن بن الصباح ، ولذا سموا بالاسماعيلية الشرقيين ، أما الفرقة التي كانت تؤيد المستعلي فقد بقيت في مصر وسمي اتباعها بالاسماعيلية الغربيين(٥٢)

وبدأ الحسن بن الصباح دعوته الدينية في الشرق منتهزا فرصة ما كانت عليه بلاد المشرق الاسلامي من ضعف واستغل هذا الحال ليقوي جهوده ، وينشر دعوته بين الناس، فكانت النتيجة ان نشأ عامل جديد من عوامل اضعاف المسلمين وزيادة التفكك والانحلال وكانت سياسته (الصباح) تقوم على تقوية مذهبه على حساب الانقسام الديني العنصري الحادث في قلب االدولة العباسية ويتجلى هذا الانقسام الديني في النزاع الذي قام بين السنين والشيعيين نتيجة لما كانت تبعث به الخلافة الفاطمية من دعاة يدعون للمذهب الاسماعيلي في بلاد المشرق ومحاولتهم الدائمة القاء بذور الثورة في اراضي الدولة العباسية .

وهناك عامل آخر أدى الى أضعاف الخلافة العباسية وبالتالي أفسح المجال لظهور طائفة الاسماعيلية وهو النزاع العنصري بين البويهيين ثم السلاجقة وبين الخلافة العباسية ، هذا بالاضافة الى النزاع الذي كان قائما بين أفراد البيت السلجوقي أنفسهم والذي تناولناه بالحديث في هذا الفصل ، هذه العوامل جعلت المجال مناسبا لنجاح الدعوة الاسماعيلية في بلاد المشرق ، فكانت دعوة للانشقاق والضعف ، مما مهد السبيل للاحتلال الصليبي ، بل تعاون هذه الطائفة مع الصليبيين في كثير من الاحيان ، كما ان طائفة الاسماعيلية قامت عبر التاريخ الاسلامي باغتيال معظم القادة الفاتحين والسلاطين المشهورين . ولقد ورث الفاطميون املاك أسلافهم الاخشيديين سواء أكان ذلك في مصر أم في بلاد الشام أم

(٥٢) حول طائفة الاسماعيلية انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج١٣ ص ٢٤٥ ، ابن ميسر : اخبار مصر ج٢ ص ٦٨ ، ابو شامه : الروضتين في اخبار الدولتين ص ٥٢ ، ١٩٨ ، وهذا الاسم نسبه الى اسماعيل بن جعفر الصادق وعرفوا ايضا بالباطنية وبالملاحدة ثم بالحشاشين .

في مكة والمدينة ، ومنذ دخول الفاطميين مصر أصبحوا ينافسون بغداد ، بل يطمعون في السيطرة عليها ، ومثال ذلك محاولة البساسيري الشيعي السيطرة على بغداد والخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله بها ونجح في هذا الى حد ما ، غير أن الضعف الذي أصاب الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م لم يمكن الفاطميين من تحقيق النجاح في خطتهم ضد بغداد(٥٣) .

وسوف نتحدث عن الاحوال الاقتصادية والسياسية في الدولة الفاطمية في هذه الفترة التي سبقت الحروب الصليبية لنتبين حقيقة احوالها وأسباب ضعفها .

أما عن أحوال الدولة الفاطمية في مصر فانه لحق بها الغلاء في عصر المستنصر ، فقد حدث عام ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م أن اشتد الغلاء في مصر وتزايد « حتى انه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد والجوع الذي لم يعهد مثله في الدنيا فانه مات اكثر أهل مصر ، وأكل بعضهم بعضا ، وظهروا على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها وأكلت الدواب بأسرها ، فلم يبق ـ للمستنصر ـ سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة»(٥٤)

واستمر هذا الغلاء في مصر وبيعت البيضة بدينار والاردب من القمح بمائة دينار في البداية ثم عدم وجود القمح أصلا « واحتاج المستنصر في هذا الغلاء حتى انه أرسل فاخذ قناديل الفضة والسور من مشهد ابراهيم الخليل عليه السلام ، وخرجت امرأة من القاهرة في هذا الغلاء ومعها مد جوهر ، فقالت : من يأخذ هذا ويعطيني عوضه دقيقا أو قمحا ؟ فلم يلتفت اليها أحد ، فالقته في الطريق وقالت : هذا ما ينفعني وقت حاجتي فلا حاجة لي به بعد اليوم ، فلم يلتفت اليه أحد وهو مبدد في الطريق »(٥٥) وقيل أن سبب ما جرى في مصر من الغلاء وسوء الأحوال في هذه السنة يرجع الى انخفاض النيل من ناحية ، وظهور الفتنة بين الاتراك والعبيد من ناحية أخرى ، وكانت العناصر التركية من انصار الخليفة في حين كان العبيد من

---

(٥٣) انظر : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١١
(٥٤) ابو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ص ١٥ ـ ١٦
(٥٥) ابو المحاسن المصدر السابق ج٥ ص ١٧ ، ص ٨٣

اتباع والدته وتعينهم « بالأموال والسلاح »[٥٦] حتى وقع القتال بين الطرفين « فكانت هذه الواقعة أول الاختلاف بديار مصر ، فانه قتل من الاتراك والعبيد خلائق كثيرة وفسدت الامور فطمع كل أحد »[٥٧] وكان سبب كثرة السودان (العبيد) ميل ام المستنصر اليهم فانها كانت جارية سوداء لأبي سعد التستري اليهودي ، ولما ولي المستنصر الخلافة مكنت والدته لسيدها أبي سعد اليهودي فجعلته وزيرا لابنها المستنصر في حين اختار المستنصر أبا منصور الفلاحي وزيرا له « فلم يمش له مع أبي سعد حال »[٥٨] فاستمال الاتراك وزاد في واجباتهم حتى قتلوا أبا سعد اليهودي فغضبت لذلك والدة المستنصر وقتلت أبا منصور الفلاحي وشرعت في شراء العبيد السود ، وأخذت تؤيدهم بالمال والسلاح[٥٩] وترتب على ذلك ازدياد الاضطراب في البلاد في وقت زاد فيه انخفاض ماء النيل ، فأعلن أمير مكة انفصاله عن المستنصر وخطب للخليفة العباسي القائم بامر الله ، وكذلك فعل أمير المدينة وبعثا الى السلطان الب ارسلان السلجوقي حاكم بغدادَ بذلك ، فأرسل ألب ارسلان لأبي هاشم حاكم مكة بثلاثين الف دينار ، والى صاحب المدينة بعشرين الف دينار ، وبلغ الخبر بذلك الخليفة الفاطمي المستنصر « فلم يلتفت اليه لشغله ورعيته من عظم الغلاء ، وقد كاد الخراب أن يستولي على سائر الاقليم »[٦٠]

ويرى بعض المؤرخين أن سبب هذه الأزمة الاقتصادية انما يرجع الى الخلاف بين أميرين كبيرين هما ابن حمدان والدكز وسؤ تصرفهما في البلاد والاساءة الى العباد وكان الدكزقد تمكن من قتل ابن حمدان فخشي المستنصر على نفسه منه ، ومن ثم استدعى بدرا الجمالي من الشام ليستعين به على تحسين الاحوال فحضر « فلم يكن الامدة يسيرة قبض بدر الجمالي على الدكز واهانه وعذبه وطالبه بالمال ، فلم يظهر سوى اثني عشر ألف دينار وكان له من الأموال والجواهر شيء كثير الا أنه لم يقر به فقتله بدر الجمالي »[٦١] وأخذ بدر الجمالي في اصلاح أمور الديار المصرية « وعمر

(٥٦) ا النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٨
(٥٧) المصدر السابق ج٥ ص ١٨ - ١٩
(٥٨) المصدر السابق ج٥ ص ١٩
(٥٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٩
(٦٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٩ - ٢٠
(٦١) المصدر السابق ج٥ ص ٢٢ - ٨٣

الريف فرخصت الاسعار ورجعت الى عادتها القديمة . . وصلح الحال لهلاك الاضداد ورفعت الفتن »[٦٢]

ومن نتائج انقسام العالم الاسلامي في هذه الفترة محاولات الخلافة الفاطمية التوسع على حساب الخلافة العباسية ، ومن أمثلة ذلك ما كان سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م عندما خرجت القوات الفاطمية من مصر الى بلاد الشام « فحصروا مدينة صور » وكان قد تغلب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل وامتنع عليهم ثم توفي ووليها اولاده فحاصرهم بها الجيش الفاطمي « فلم يكن لهم من القوة ما يمتنعون بها فسلموها اليهم »[٦٣] ومنها سار الجيش الفاطمي الى مدينة صيدا فاخذوها ثم تقدموا الى عكا « فحصروها وضيقوا على أهلها فافتتحوها وقصدوا مدينة جبيل فملكوها ايضا واصلحوا احوال هذه البلاد وقرروا قواعدها وساروا عنها الى مصر عائدين ، واستعمل امير الجيوش على هذه البلاد الامراء والعمال »[٦٤]

واضح من ذلك أن هدف الفاطميين كان التوسع على حساب المسلمين وبهدف اضعاف الخلافة العباسية السنية، وكان بدر الجمالي أمير الجيوش الفاطمية قد استولى على الشام بأسره سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م ثم ثار عليه أهل دمشق مرة أخرى فهرب منهم سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م ومضى الى مصر وتقدم بها « وصار صاحب الأمر » وكان قوي الشخصية حسن التدبير حتى أصبح كما قال ابن الاثير « وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع اليه »[٦٥] وهذا يدل على رغبة الفاطميين في التوسع على حساب المسلمين السنيين ، ولكن الخليفة المستنصر واجه صعوبات كثيرة وانتشر في ايامه القحط والوباء وكثرت الفتن والاضطرابات « وكانت خلافته ستين سنة واربعة اشهر . . . ولقي المستنصر شدائد واهوالا وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر، وأخرج فيها امواله وذخائره الى أن بقي لا يملك غير سجادته التي يجلس عليها ، وهو مع هذا صابر غير خاشع »[٦٦] ومات الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧

---

(٦٢) النجوم الزاهرة ج٥ ص ٢٢ ـ ٢٣ ، ٧٤
(٦٣) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ١٧٦ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٢٨
(٦٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ١٧٦ ، ٢٢٣ ، ابو المحاسن النجوم ج٥ ص ١٢٨
(٦٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٣٥ ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤١
(٦٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٣٦

هـ/ ١٠٩٤ م وولي الخلافة من بعده المستعلي بالله بن المستنصر بالله ، ولقد بويع بالخلافة بعد موت أبيه في الثامن عشر من ذي الحجة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م « وفي ايامه وهنت دولتهم وانقطعت دعوتهم من اكثر مدن الشام واستولى عليها الأتراك والفرنج »[٦٧]

وقد اضطربت بلاد الشام في عهد المستعلي هذا فمثلا في سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦م أظهر صاحب صور « العصيان على المستعلي صاحب مصر والخروج عن طاعته فسير اليه جيشا فحصروه بها وضيقوا عليه وعلى من معه من جندي وعامي ثم افتتحها عنوة بالسيف وقتل بها خلق كثير ونهب منها المال الجزيل وأخذ الوالي (كتيله) أسيرا بغير امان وحمل الى مصر وقتل بها »[٦٨] ولا شك أن عملية بسط النفوذ الفاطمي الشيعي على بلاد الشام ومحاولات الخلافة العباسية بواسطة السلاجقة الاتراك السنيين استرداد هذه السيطرة أدى هذا الوضع الى تفتت بلاد الشام سياسيا في الوقت الذي بدأ الصليبيون فيه الزحف الى بلاد الشام ، واذا كانت الخلافة العباسية اصبحت لا حول لها ولا قوة ، وكذلك الحال بالنسبة للخلافة الفاطمية في مصر اصبحت تعاني من أسباب الضعف ومن ثم كانت بلاد الشام مقسمة بين أتباع الخلافتين وأنصار المذهبين ، لا شك أن هذا الحال لم يكن كما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من وحدة في المبدأ وقوة في الايمان وجهاد في سبيل الله .

هذا عرض موجز لما كان عليه المسلمون في الشرق الادنى الاسلامي قبيل العدوان الصليبي الذي بدأت جحافله تتجه للشرق في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، فما المقصود بالحروب الصليبية واسبابها واهدافها ؟ هذا موضوع الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٦٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٢ ـ ١٤٥
(٦٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٦٤

الفصل الثالث

الحروب الصليبية

ماهيتها ودوافعها

تسميتها بهذا الاسم ـ الدوافع الدينية ـ دور البابوية في الدعوة للحرب الصليبية ـ السبب الاقتصادي ـ العوامل التجارية وتحليل لهذا الرأي ـ الدوافع السياسية ـ تحليل للاهداف الصليبية ـ نشاط الجماعات الدينية في الحرب الصليبية مثل جماعة فرسان الإسبتارية وجماعة فرسان الداوية ـ الاسباب التي تتصل بالعالم الاسلامي ـ تعليق

الحُروبُ الصَّليبيَّة
مَاهِيَّتها وَدوَافِعهَا

تسميتها بالحروب الصليبية :

لقد اكتسبت الحروب الصليبية هذا الاسم لأنها قامت باسم الدين المسيحي كما ان الجهاز الكنسي المسيحي في الغرب الاوروبي هو الذي دعا الى الحروب الصليبية ، وهو الذي أمدها بتأييده وتشجيعه المادي والمعنوي ، واتخذ الصليبيون من الصليب شعارا لهذه الحروب التي قامت من أجل مناصرة الدين المسيحي كما قال دعاتها وقادتها ومقاتلوها ، وهي حروب قام بها المسيحيون في الغرب ضد المسلمين ، ولقد شغلت الحروب الصليبية قرابة اربعة قرون تبدأ من اواخر القرن الحادي عشر الميلادي الى اواخر القرن الخامس عشر ، امتد فيها الصراع بين الصليبيين والمسلمين ، وجدير بالذكر أن نقول ان الحروب الصليبية فيما بعد هذا التاريخ أخذت لها شكلا اخر وشعارا جديدا سمي بالكشوف الجغرافية ، استهدف في الدرجة الاولى الحاق الاذى بالمسلمين عن طريق تحطيم قوتهم وتدمير اقتصادهم وفرض الحصار الاقتصادي عليهم وتارة أخرى جاءت الحروب الصليبية باسم الاستعمار الحديث واشكاله وصوره المختلفة .

اما عن العوامل والاسباب التي أشار اليها المؤرخون القدامى والمحدثون سواء من الشرق أم الغرب فانها متعددة الاتجاهات والاهداف ، وكانت الأفكار تدور حول ادراك هذا المؤلف لحقيقة الحرب الصليبية أو تأثر هذا التفسير بقوة ايمان هذا الكاتب أو مذهبه الاقتصادي أو فكره المنحل أو افكاره القومية ولهذا ان كافة المؤرخين المحدثين في الغرب وفي الشرق اعطوا تفسيرات لاسباب الحروب الصليبية ركزت في الدرجة الاولى على جعل السبب الديني ثانويا لا أساسا جوهريا وعاملا رئيسا في هذه

الحروب ، ولعل ذلك آت عن رغبة هؤلاء المؤرخين والكتاب في اظهار ان لديهم من الفكر العميق والعلم الوفير لدرجة مكنتهم من استنباط واستنتاج العوامل الحقيقية للحروب الصليبية ، ولكن مما هو جدير بالذكر ان المسلمين في عصر الحروب الصليبية سواء أكان هؤلاء من الحكام أم المحكومين أم قادة ومسؤولين وكتاب ومؤلفين أدركوا ان الهدف في هذه الحروب كان دينيا في الدرجة الأولى ، وما العوامل الأخرى الا روافد استخدمت لتدعيم الأساس الاول والمحرك الرئيسي لهذه الحروب ، وسوف يرى القارىء ان دور الكنيسة والبابويه ورجال المسيحية واجماع أهل الغرب الاوروبي على هذه الحرب ما يؤكد أنها كانت حربا صليبية وان العامل الديني كان الاساس الذي أشعلها ، فقد افتتح بابا روما اربان الثاني في اواخر نوفمبر ١٠٩٥ م/ ٤٨٨ هـ الحروب الصليبية ضد المسلمين ، وأدرك المستمعون لخطابه المشهور ما يعنيه وصاح الجميع صيحتهم المشهورة « هذه هي ارادة الله » وعندها حمل الجميع من فورهم شارة الصليب وتوجهوا في حماس جنوني الى الشرق الاسلامي لتحرير القدس والسيطرة على الشرق والتبشير للمسيحية بين المسلمين .

ومن الدلائل في هذا المجال حركة الاحياء الديني الكبرى التي ظهرت في الغرب في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، وترتب على الاحياء الديني المسيحي في الغرب ان عادت البابوية ال سطوتها القديمة ، وأصبح لها الاشراف المركزي الدقيق على الكنائس الغربية كافة ، كما تم تقوية الجهاز الكنسي وتدعيمه بما يمكنه من السيطرة على شؤون الغرب المسيحي ، وكذلك ربط أطراف الغرب المسيحي بالمركز الرئيسي في روما ، وترتب على ذلك ايضا اثارة الحماسة الدينية بوجه عام في الغرب الاوروبي بهدف ارجاع الكنيسة الى قوتها السياسية والدينية وبالتالي تعميق المفاهيم المسيحية عند معتنقيها بحيث أصبح الدين هو المحرك لتفكير الناس وعواطفهم ، ومن ثم ظهرت شعارات بألا يحارب المسيحي أخاه المسيحي ، وان لا بد من توجيه القتال ضد المسلمين الذين انتشروا في كثير من ارجاء العالم ، وهم ينشرون الاسلام ويحققون الانتصارات الكثيرة ، ولذلك ظهر شعور قوي عند المسيحيين في الغرب الاوروبي في القرن الحادي عشر بضرورة انقاذ الارض المقدسة من أيدي المسلمين ، وكان الحجاج المسيحيون يذهبون الى الاراضي المقدسة في فلسطين في شكل جماعات قليلة العدد حتى جاء القرن الحادي عشر ، ومن نتائج

حركة الاحياء الديني وزيادة الحماس عند الغربيين ان بدأت تخرج قوافل الحجاج المسيحيين في شكل جماعات كبيرة ، ومن أشهر هذه الجماعات تلك التي خرجت من نورمنديا في سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م وعلى رأسها رئيس اساقفة مينز ومعه سبعة الاف حاج وجماعة أخرى خرجت في عام ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م بزعامة روبرت الاول أمير فلاندرز وكان يحمل هؤلاء معهم الاسلحة أي أنهم أصبحوا يشكلون قوافل حربية غايتها اداء الحج والدفاع عن أنفسهم ان اعترضهم أحد بأذى خلال الرحلة الى الاراضي المقدسة في فلسطين . وازدادت هذه الظاهرة خصوصا بعد أن الحق الأتراك السلاجقة الهزيمة الكبرى بالامبراطورية البيزنطية في موقعة مانزكريت سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م ثم استيلاء السلاجقة على بيت المقدس وعلى انطاكية عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م وانزل السلاجقة الرعب في قلوب البيزنطيين حتى اعتقدوا أن سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك السلاجقة المسلمين بات وشيكا ، ومن ثم كان لا بد للقوافل المسيحية التي تنوي الحج الى بيت المقدس ان تحمل السلاح لمواجهة اي احتمال واي تدخل يقوم به السلاجقة السنيون المتعصبون للاسلام[1]

وليس في الاسلام اضطهاد لغير المسلمين وانما فيه دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس صحيحا ان المسلمين اساءوا معاملة الحجاج المسيحيين اثناء زيارتهم لبيت المقدس ، ونؤكد على أن المسيحيين عاشوا في ظل الدولة الاسلامية حياة آمنة طيبه ،لهم حقوقهم الدينية كاملة أفضل من اولئك النصارى الذين عاشوا في ظل الدول المسيحية سواء في الشرق أم الغرب، والمصادر الاسلامية مليئة باهتمام ولاة الأمر المسلمين بأهل الذمة من نصارى ويهود ، بل أن بعض الكتاب الغربيين نقل رسالة لبطرق بيت المقدس يصف فيها المسلمين بأنهم قوم عادلون[2] اما أن ورد في بعض المصادر اشارة الى سوء معاملة بعض النصارى فان ذلك مصدره خروج أهل الذمة على العرف الاسلامي، ومحاولاتهم في كثير من الأحيان الكيد للاسلام والمسلمين والتآمر مع القوى المعادية . وسوف يرى القارىء لهذا الكتاب موقف أهل

(١) انظر : Jogra : Histoire des croisades, pp 3—10

Setton : A History of the crusades ,vol 1, p. 76—78

cambridge Medievd History, vol. 5, p. 269 — 270

(٢) Thompson : Economic and social History, vol. 1 p. 385

الذمة من المسلمين ليتبين اي الجانبين اكثر تسامحا ، ومع ذلك فان الغرب الاوروبي جعل من مثل هذه الحوادث الفردية تعمياً شاملا واساء الى الاسلام بدعايته المغرضة من أن المسلمين يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم بل يقتلونهم ، ونسي الغربيون ما صحب انتشار المسيحية من قتل وتشريد وتعذيب في ظل الاباطرة الرومان ومن جاءوا بعدهم حتى نهاية العصور الوسطى وردحا طويلا من العصر الحديث ، ولكن المقصود من هذه الدعاية اثارة الحماس الديني والكراهية والحقد ضد المسلمين والاساءة الى الاسلام من ناحية ومن جهة أخرى يرجع ذلك الموقف المعادي الى الجهالة التي عاشها أهل الغرب الاوروبي ولم يعرفوا حقيقة الاسلام والتسامح الديني عند المسلمين .

وسوف نسوق الادلة الواقعية في خلال هذا الكتاب حتى يتبين للذين يريدون معرفة الحقيقة في قضية التعصب الديني أهي من قبل المسلمين أم الصليبيين ؟

دور البابوية في الحرب الصليبية

كانت البابوية نتيجة للاحياء الديني في القرن الحادي عشر قد بلغت قدرا عظيما من النفوذ والسلطان في جميع المجالات مما فتح امامها المجال لكي تصبح القوة العالمية التي تحمي المسيحيين وتنشر المسيحية في ربوع الكرة الارضية .

فالبابا هو الزعيم الروحي الاول في المجتمع الغربي ، وكانت البابوية قد تعرضت للضعف والانقسام اثر ظهور مذهب الارثوذكسية المنافس للمذهب الكاثوليكي وأصبحت كنيسة روما زعيمة المذهب الاخير بينما تزعمت القسطنطينية المذهب الاول مما جعل الأباطرة البيزنطيين في حالة عداء شديد مع بابوية روما ، وكانت هزيمة البيزنطيين عام ١٠٧١ م في موقعة مانزكريت امام القوات الاسلامية السلجوقية وتبديد الجيش البيزنطي بين قتيل وجريح وأسير وهارب كل ذلك اثار خوف وفزع الغرب الاوروبي خوفا من توغل المسلمين في قلب اوروبا عن طريق القسطنطينية اذا ما قدر لها السقوط في أيدي المسلمين ، واستغاث البيزنطيون باخوانهم في الدين في الغرب الاوروبي ، وأرسلوا البعوث والسفراء يستنجدونهم ويطلبون من بابا روما العون ضد المسلمين ، فرحبت بابوية روما بهذا النداء لتحقيق اهداف منها توحيد الكنيستين الشرقية والغربية لتحقيق هدف ديني أيضا وهو زيادة

قوة المسيحية للتصدي للعدو المتمثل في المسلمين ، والكثير من المؤرخين يحاول جعل هذه الزعامة الكاثوليكية للمسيحيين غاية لا بديل عنها ولكن الحقيقة أنها كانت وسيلة لتحقيق غاية هامة وهي قتال المسلمين ومحاربة الاسلام ، ويقول الدكتور شلبي « فلا غرو بعد هذا ان نؤكد أن نشاطا دينيا اتضح في تاريخ المسيحية في هذه الاثناء ، كان يرمي الى ايقاظ الشعور الديني بالداخل ، كما كان يرمي الى القضاء على الاسلام الذي مثل خلال فترة طويلة من الزمن اشارة الخطر ضد المسيحية الاوروبية[٣] » وكان من الأهداف المحددة لليقظة الدينية المسيحية في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين « الاستيلاء على الاماكن المقدسة في فلسطين لتتولى الكنيسة والبابوية بروما حماية هذه الاماكن المقدسة وادارتها »[٤]

الدوافع الاقتصادية .

اما عن السبب الاقتصادي الذي ساعد على قيام الحروب الصليبية فان النظام الاقطاعي الذي كان سائدا في أوروبا في هذه الآونة أوجد نوعا سيئا من العلاقات بين امراء الاقطاع أنفسهم اضافة الى سوء علاقاتهم مع عبيد الارض وفلاحيها ، وكانت الحروب لا تنقطع والاستقرار مفقودا والفوضى تغلب على الحياة الاوروبية ، ومن ثم رغب بعض امراء أوروبا في الحصول على ارض جديدة في الشرق اكثر خصوبة واحسن استقرارا ، هذا من ناحية ومن جهة أخرى كانت قوانين الوراثة الاقطاعية قد أوجدت طبقة عظيمة العدد من الشبان الذين لا يملكون شيئا من الاراضي لأن اخوتهم الاكبر سنا هم الذين لهم حق الميراث فقط ، ولهذا رغب الشبان الذين لم يكن لهم نصيب في الميراث ان يذهبوا الى آفاق جديدة يعوضون ما لم يحصلوا عليه في الغرب الاوروبي من الأراضي ، ووجد رقيق الارض في ظل النظام الاقطاعي الاوروبي فرصة في الحروب الصليبية للتحرر من ظلم سادتهم امراء الاقطاع فانضموا للقوات الصليبية بنشاط وحماسة ، أضف الى ذلك أن جماعة كبيرة من الأبطال والشجعان الذين احترفوا الحروب في عصر الاقطاع رغبوا في المشاركة في الحروب الصليبية حتى يظهروا قوتهم ويصبحوا بذلك أبطالا تملأ شهرتهم الآفاق

---

(٣) د . احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ج٥ ص ٤٢٩
(٤) المصدر السابق ص ٤٢٩

اما من ناحية الانتاج الزراعي في اوروبا قبيل الحملة الصليبية الاولى فقد كانت تعاني من مجاعة شاملة واصبح وجود الغلال نادرا وارتفع ثمنها . وكذلك الحال في معظم دول اوروبا في ذلك الوقت ،وعمت الأزمة الاقتصادية حتى أكل الناس بعض الاعشاب والحشائش لعدم وجود الطعام ، هذا بالاضافة الى انتشار الاوبئة والامراض ، كل ذلك ادى الى تدهور التجارة وطرقها وانقطاع الأمن ولذلك وجدت جماعات كثيرة في اوروبا أن الحروب الصليبية فرصة للخروج من تلك البلاد الى عالم جديد في الشرق حيث ينعمون بالأمن والاستقرار والرخاء ، وهذا الرأي الذي يجعل من الأحوال الاقتصادية في اوروبا سببا رئيسا للحرب الصليبية، لا يمكن التسليم بمدى قوته الحقيقية ،اذ تعرضت اوروبا في العصور الوسطى المظلمة الى ازمات اقتصادية وحروب داخلية وعدم استقرار اكثر مما حدث قبيل الحروب الصليبية ومع ذلك فانهم لم يفكروا في خوض حرب ضد المسلمين في ذلك الوقت لأن الكنيسة البابوية لم تبعث فيهم الروح الدينية الا في حركة الاحياء الديني وخصوصا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بعد أن لمسوا ضعف المسلمين .

الدوافع التجارية :

اما عن العوامل التجارية على وجه الخصوص ، فان الجمهوريات الايطالية الواقعة على الساحل الشمالي للبحر المتوسط وخصوصا البندقية وجنوا وبيزا ، كانت هذه الدويلات تسعى بالمال والسلاح للتشجيع على الحروب الصليبية رغبة منها في التضييق على المسلمين وامتلاك بعض المواني على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط لتكون هذه الموانيء على الساحل بمثابة مراكز تجارية هامة تنطلق منها الى داخل البلاد والسيطرة على تجارة الشرق والغرب ، ومن ثم اخذت هذه الدول تعرض مساعدتها على الصليبيين لكي تقوم بنقل القوات الصليبية عن طريق البحر الى الشرق ، أو نقل المواد التموينية والاسلحة والامدادات للقوات الصليبية في الشرق وكذلك الدخول في حرب ضد المسلمين وفرض حصار اقتصادي وعسكري على البلاد الاسلامية في مصر والشام ، واذا كان يبدو ان الايطاليين يميلون الى المصلحة الخاصة والكسب التجاري ، فان هذا كان يتحقق لهم بضرب المسلمين وتقديم المساعدة للصليبيين ، بل المشاركة الفعالة في الدفاع عن الوجود الصليبي في بلاد الشام .[١]

وفي الفصول اللاحقة سوف ترى موقف الدويلات الايطالية في دعم الصليبيين وتقديم العون لهم كما قام اليهود وخصوصا التجار منهم بدور التشجيع على الحروب الصليبية(٥)

وما أن بدأت الحروب الصليبية في عام ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م حتى وجدت المدن التجارية الايطالية بصفة عامة والبندقية على وجه الخصوص ، ان الفرصة مواتية لتدعيم تجارتها في الشرق وتحقيق المزيد من المكاسب والارباح في المجال الاقتصادي والسبب في ذلك أن البندقية كانت في هذه الآونة تمتلك الاساطيل البحرية القوية ، ولها السيادة على الطرق التجارية التي تؤدي الى الشرق والى الشمال ، وكان العامل التجاري هو الدافع للبنادقة في المشاركة في الحروب الصليبية الى جانب القوى الصليبية الاخرى ، ويجب ألا ننسى هنا ان البنادقة ايضا كانت لهم اهدافهم الصليبية ويرغبون في هزيمة المسلمين ، وكانوا دائما ان رجحوا أن النصر الى جانب الصليبيين ، فانهم يسارعون للمشاركة في الحرب معهم ضد المسلمين وان كانوا يرجحون عدم مناسبة الوقت وضعف الصليبيين فانهم لم يكونوا يقبلون المغامرة بعلاقاتهم التجارية مع الشرق(٦)

وقد بذلت البندقية كل ما تستطيع لتدعيم اسطولها البحري ليقوم بمهمة مساعدة الصليبيين ونقلهم الى الشرق الاسلامي ، وحصار السواحل الاسلامية في الشام ومصر والاستفادة منه في النقل التجاري ففي الفترة من سنة ١٠٩٦ م الى سنة ١١٠٥ م (٤٩٠ - ٤٩٩ هـ) وضعت البندقية في البحر المتوسط وبحر الادرياتيك ثلاثمائة سفينة معدة من أجل الحرب والقتال بهدف مساندة القوات الصليبية(٧)

وكان البنادقة يشاركون في القتال مع الصليبيين ليس بتقديم وسائل النقل

---

(٥) د . احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة ج٥ ص ٤٣٠

(٦) Brown, Venetian Republic, pp 48—49;
Gibb, Brown, Islamic society And The West, part I p. 89, Elton : Medieval Monarchy in Action, pp. 38 —39

(٧) د . جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٨٧ - ٨٨ ،
Fisher, The middle East, p. 133; perenne, Histoire Economique, pp. 181 — 185; Cambridge Economic History of Europe , vol 3, p.60 Brown: Venetion Republic, p 49

فحسب ، بل انهم خاضوا مع الصليبيين عمليات عسكرية ضد المسلمين لأن انتصار الحركة الصليبية يعني بقاء المكاسب المادية واستمرارها . ففي عام ١٠٩٧ م/ ٤٩١هـ بادرت البندقية بتقديم المساعدة للصليبيين للاستيلاء على انطاكية كما شاركت في عام ١٠٩٩ م/ ٤٩٣ هـ في عملية الاستيلاء على بيت المقدس . ولم تكن الخطورة تكمن في مساعدة التجار الايطاليين من بنادقة وجنويين وبيازنة للصليبيين في الحرب فقط بل الخطورة في انهم ساهموا مساهمة فعالة في الاحتفاظ بهذه الممالك الصليبية في الشرق الاسلامي أطول مدة ممكنة تمكينا لمصالحهم وحفاظا عليها واستمرارها ، ويتضح ذلك من ثنايا الاتفاقات التي عقدت بين القوى التجارية الايطالية ومملكة بيت المقدس والتي تضمنت الكثير من الامتيازات في جميع المجالات وخاصة في المجال التجاري وتضمنت بنودا عسكرية منها امداد الصليبيين بالرجال والاسلحة[٨] وفي عام ١١٠٠ م/ ٤٩٤ هـ قدم الى يافا على الساحل الفلسطيني اسطول للبنادقة يتكون من مائتي سفينة ، وكان بلدوين ملك مملكة بيت المقدس الصليبي ، قد دعا البنادقة لمساعدته في الاستيلاء على مدن الساحل ، فأرسلت البندقية هذا الاسطول مقابل اعفاء التجار البنادقة من الرسوم والضرائب الجمركية وحصولهم على ثلث كل مدينة يساهمون في الاستيلاء عليها ، وبمساعده البنادقة والقوى البحرية الاخرى تمكن الصليبيون من السيطرة على مدن الساحل في بلاد الشام مثل ارسوف وقيسارية وعكا وبيروت كما كان للاسطول البندقي دور هام في فتح مدينة حيفا ، فقد حصرها الاسطول البندقي ومنع وصول الامدادات للمدينة حتى اضطرت للاستسلام[٩]

---

(٨) د . جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٨٨ ـ ٩٩ ؛

[illegible]ey : venice [illegible] story p 38; Wiet : The Navy of Venice, pp. 73— 75;

Hodgson; The Early History of Venice pp. 237 —238 240 —242

(٩) سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ورقة ١٤٥ ـ ١٤٦

Wiel : Venice, pp 84 — 86;

Wiel :Navy of venice, pp 75— 76, 79— 80;

Okey :venice and its story, pp. 39 — 40;

oliphant : The makers of venice, pp 47— 48;

Atyia : crusade, commerce and culture, p 66;

Bury : Cambridge History, vol, 5, p.304

. وكان للبيازنة والجنوية دور في الاستيلاء على مدينة طرابلس عام ١٠٩٩ م/ ٥٠٣ وعلى مدن ساحلية اخرى في بلاد الشام(١٠) وتتابعت جهود النوى البحرية التجارية في تدعيم الوجود الصليبي في الشرق الاسلامي ، كما قدموا المساعدات العسكرية والامدادات الحربية وكانوا الجسر الذي تنتقل عن طريقه القوات الصليبية من الغرب الى الشرق يدفعها الى ذلك سعيها الى المكاسب التجارية والكسب المادي من ناحية ، وحرصها على خدمة المسيحية ومساندة الصليبيين ضد المسلمين لاحساسها بأنها جزء من العالم المسيحي ، وفي الحرب الصليبية الرابعة ما يشير الى المعاني السابقة ففي سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٢ م تم الاتفاق بين قادة الصليبيين وبين دوق البندقية (حاكمها) بخصوص نقل الصليبيين بالاساطيل البندقية وتقديم العون بالمؤن لهم ، وقد ظهر واضحا في حديث حاكم البندقية للسفراء الصليبيين الذين ابرموا معه الاتفاق اذ خاطبهم قائلا « أيها السادة ، نحن مستعدون لاجابة ما طلبتموه وسنهيء لكم بحرية كبيرة جدا ان قبلتم دفع مائة الف مارك لنا ، على ان يكون مفهوما لديكم انني سوف أمضي معكم بصحبة نصف القادرين على حمل السلاح من أهل البندقية ، وأن يكون من نصيبنا النصف في جميع الغنائم التي تقع في أيدينا هناك ،ونضيف الى هذا الاسطول خمسين غرابا نقوم نحن البنادقة بنفقاتها وسننقلكم في مدى عام من اليوم الذي نحدده الى اي بلد شئتم ، سواء أكان هذا البلد القاهرة أم الاسكندرية »(١١)

هذا قول أحد أعضاء الصليبيين الذين أبرموا الاتفاق مع البندقية ، واضح فيه حرص البندقية على مصالحها الخاصة وكذلك واضح فيه أن البنادقة سوف يقومون بدور حربي من جانبهم خارجا عن الاتفاق كجزء واجب عليهم مع اخوانهم في الدين في حربهم ضد المسلمين . ومع أن ظاهر الاتفاق يدل على أن البنادقة يبحثون عن المال اولا فان هذا له ما يبرره ، فهم قوم يعيشون على البحر والتجارة ولا يملكون المزارع ، وحياتهم ترتبط بالتجارة ، فان انشغلوا في الحرب مع الصليبيين فلا بد من

---

(١٠) د . عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي ص ١٠٠ ـ ١٠١ ،
Brown : venetion Republic, p 49; wiel Navy of venice, pp 82 — 88. Hodgson: Early History of Venice, pp 242 — 243

(١١) روبرت كلاري : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ص ٤٠ ـ ٤١

تعويضهم بما يكفل لهم الحياة الطيبة ، ويتضح ذلك من كلام حاكم البندقية للصليبيين عندما لم يدفعوا المال المتفق عليه ، فقد خاطبهم قائلا « أيها السادة لقد اذيتمونا لأنه ما كاد مبعوثوكم يعقدون معي هذه الاتفاقية حتى أصدرت أمري في كافة نواحي اقليمي بتخلي كل تاجر عن تجارته ! وأن يقوم الجميع باعداد هذه السفن ، ومن ثم فقد ظلوا في الانتظار منذ ذلك الحين ، وكفوا عن القيام بأي عمل يعود عليهم بالكسب مدة عام ونصف عام ، فكانت خسارتهم فادحة ولذلك فانني ورجالي نطالبكم بدفع المال الذي ما زلتم مدينين لنا به ، فان لم تفعلوا ذلك فاعلموا انكم غير مبارحي هذه الجزيرة قبل سداد ما عليكم لنا ، ولن تجدوا احدا ما يأتيكم بالزاد والماء »[١٢] واذا كانت القوى التجارية تسعى الى تحقيق مكاسب شخصية وثراء بسبب مساعدة الصليبيين أو الاشتراك معهم ، فهذا لا يعني انهم فقدوا الوازع الديني والحماس للنصرانية ، بل كانوا يدركون ان في انتصار المسيحية على الاسلام ما يحقق اهدافهم التوسعية والتجارية وسلب المسلمين هذه الثروات بما يؤدي الى فقر وضعف المسلمين من ناحية وزيادة قوة الصليبيين العسكرية والمادية من ناحية أخرى .

واذا كانت النزعة الاستقلالية قد ظهرت في بعض الحالات وبعض الأحيان عند بعض الاشخاص أو القادة أو الحكام أو القوى التجارية فهذه من المسائل الطبيعية ، الا أن الغالبية العظمى من الصليبيين والمظهر العام لهذه الحروب كان دينيا ، ونحب أن نوضح هنا أن تحقيق المنافع للناس من خلال تأدية الواجبات الدينية والمناسك أمر لا غبار عليه ، فالمجاهدون في الاسلام لهم الثواب من الله في الآخرة ولهم في الحياة الدنيا من الغنائم نصيبهم المفروض بنص القرآن الكريم ، الا أن هذا الغنم لم يكن في يوم من الايام من اهداف الجهاد الاسلامي .

والجدير بالذكر أيضا أن المنافسات قامت بين القوى البحرية التجارية وخاصة البندقية وجنوا وبيزا ، وأدت هذه المنافسات في كثير من الاحيان الى حروب بينهم ، وكذلك فشلت صيحات البابوية ورجال الدين المسيحي والامراء في وقف مثل هذه الحروب والمنافسات ، ولكن ينبغي القول هنا أن الحالات التي نجحت فيها السيطرة

---

(١٢) روبرت كلاري : المصدر السابق ص ٤٤

على مثل هذه المنافسات والاختلافات والحروب فانها كانت تتوقف استجابة لنداء البابا أو رجال الدين ايثارا للمصلحة العامة للصليبيين ،

ان بعض الباحثين المحدثين جعل من النشاط التجاري حركة استعمارية وباعتبار ان الحروب الصليبية « أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الاوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق »(١٣) وان سلمنا نحن بهذا الرأي فينبغي أن ننبه بصراحة تامة أن في مقدمة اهداف الحركة الاستعمارية في العصر الحديث محاربة الدين الاسلامي ومحاولة ابعاده عن الحياة العامة ، والفصل بين الدين والدولة في المجتمع الاسلامي والتشكيك في العقيدة وتشجيع الفكر المنحل من مختلف الملل والنحل الاخرى ، ألم تكن بريطانيا وفرنسا واسبانيا والبرتغال وهولندا وروسيا وامريكا تسلك هذا الاسلوب في البلاد التي سيطروا عليها بشكل مباشر أو غير مباشر ، لأن أول المداخل التي تحقق للاستعمار طموحاته واطماعه هي هدم العقيدة الاسلامية حتى يمكن التعامل الاقتصادي مع المسلمين ، واحتكار تجارتهم وافقاربلادهم ، ألم تقم فرنسا في شمال افريقية باعطاء الجنسية الفرنسية لكل مسلم يتنازل عن اسلامه ويتحول الى الفرنسية ؟ ألم تحارب اللغة العربية ، لغة القرآن في بلاد الشام وشمال افريقيا ؟ ألم تعمل بريطانيا على انتزاع القرآن من نفوس الناس وان تثير في نفوس المسلمين الشك وان ما بهم من سوء مرجعه الى الاسلام ، وليس مرجعه الى الاحتلال البريطاني أو الفرنسي أو غيرهما ؟ الم تكن حركات التبشير للمسيحية من أهم أهداف الاستعمار ؟ لقد كان الهدف الاول للاستعمار قديما وحديثا محاربة الاسلام في الدرجة الاولى حتى يتسنى لهم بعد ذلك تحقيق الاطماع الاستعماريةالاخرى ودليل ذلك ان المجاهدين المسلمين هم الذين يثيرون قلق الاستعمار ، وهم الذين حرروا بلادهم من السيطرة الاجنبية ، والمسلمون هم الذين يواجهون المعتدين ويتصدون للقوم الكافرين ،لأن من مبادىء الاسلام عدم التعاون مع الاعداء وخصوصا المعتدين منهم ، وهذا التحريم في المجالات كافة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية . والذي نقرره ان تحقيق الاطماع الصليبية أو الاستعمارية مرهون بصرف المسلمين عن اسلامهم

(١٣) Thompson : Economic and social History, I , p. 397.

الصحيح ، ومن ثم كانت محاربة الاسلام مقدمة يبدأ بها الأعداء تمهيدا لتحقيق الاهداف الصليبية والاستعمارية ، ويمكن القول ايضا ان الاطماع المادية والاقتصادية قد تكون سبيلا لمحاربة المسلمين ، فالمعروف ان النهوض بالاقتصاد والتجارة يوفر المال الذي هو من الاسباب الهامة في كسب الحرب وتحقيق النصر ، أعني أن رغبة الصليبيين في الثراء والتوسع الهدف منها ازدياد قوتهم واستغلال هذا الغنى في محاربة الاسلام والمسلمين .

الدوافع السياسية :

اما عن الدوافع السياسية في الحروب الصليبية ، فقد ذكر المؤرخون المحدثون أن ملوك وامراء الغرب الاوروبي الذين شاركوا في الحروب الصليبية كان يدفعهم حب الظهور وخدمة مصالحهم السياسية ، وان معظم هؤلاء القادة لم يشاركوا في الحروب الصليبية الا تحت تأثير البابوية وضغط من رجال الكنيسة المسيحية وتهديد من لم ينفذ رغبة الكنيسة باصدار قرارات الحرمان التي تقضي بالحرمان من النعيم في الآخرة ونبذ طاعته في الدنيا ومن الامثلة على ذلك ما قيل حول فردريك بربروسا وريتشارد قلب الاسد وفيليب اغسطس وفردريك الثاني من أن هؤلاء كان يدفعهم حب الظهور وكسب النفوذ السياسي والحصول على تأييد البابوية لهم .

تحليل للاهداف الصليبية :

والحقيقة أن هؤلاء الملوك والامراء كانوا يشاركون في الحروب الصليبية بدافع حقيقي وانهم ينصرون المسيحية ويحاربون الاسلام وهذا ما حدث فعلا وتظهره الوقائع الحربية التي شارك فيها هؤلاء الزعماء ، اما التشكيك في نواياهم فلا يوجد ما يبرره او ما يقلل من نزعتهم الصليبية وحماستهم الدينية ، فان كانوا خضعوا لرغبات البابوية ورجال الدين ايمانا منهم بعدم قدرتهم على مخالفة تعاليم الكنيسة المسيحية فهذا دليل على مدى سيطرة الكنيسة على الحياة العامة في الغرب الاوروبي وكذلك الحال بالنسبة للشعب في الغرب الاوروبي ، كان في حماس ديني شديد وتعصب بغيض لدرجة أن الملوك والامراء وعامة الناس كان لا يمكنهم مخالفة تعاليم المسيحية أو معارضة الكنيسة ، في عصور عرفت في التاريخ بعصور الايمان ، فجميع ملوك اوروبا استجابوا للبابوية وشاركوا في الحرب وبذلوا ما يستطيعون حتى ان الامبراطور

الالماني فردريك الثاني الذي أخذ البابوات واحدا بعد آخر يدعونه من أجل القيام بحملة صليبية في الشرق الاسلامي ضد المسلمين فان تردده لم يكن عن سؤ ظن بالمسيحية أو البابوية وانما كان انتظاره لاسباب منها انشغاله في مشاكله الداخلية وصراعه مع البندقية وعدم ثقة الامبراطور في احراز انتصارات على المسلمين في تلك الآونة ، ومع ذلك فانه خرج الى الشرق الاسلامي بقواته لمحاربة المسلمين ولما وصل الى الشام أرسل الى السلطان الكامل محمد الايوبي من أجل التفاوض حول الاراضي المقدسة ، ونتيجة لظروف الملك الكامل محمد وخوفه من اجتماع الصليبيين على محاربته ، فانه آثر الدخول في المهادنة وتم الاتفاق بينهما ٦٢٧ هـ/ ١٢٢٩ م على أن تعود القدس للصليبيين والمهادنة بين الطرفين وترك الحرب لمدة عشر سنوات ، وغالب الظن أن الملك الكامل فعل ذلك تحت ضغط من احساسه بقوة الامبراطور فردريك الثاني وصدق نيته في محاربة المسلمين ، فخاف السلطان الكامل محمد من ضياع البلاد كلها ، فآثر التنازل عن جزء في مقابل الاحتفاظ بالباقي ، أما قول الامبراطور فردريك الثاني في كتابه للسلطان الكامل محمد انه « ما له غرض في القدس ولا غيره . وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج »(١٤) فان هذا لا يعني حقيقة نوايا الامبراطور ، وانما اراد الاحتيال وليس من اليسير على السلطان الكامل التنازل عن بيت المقدس وبعض الاراضي في فلسطين لهذا الامبراطور لمجرد أنه يريد حفظ ناموسه وهيبته أمام الفرنج ، فقد تحمل السلطان الكامل في التاريخ اسوأ النقد حتى اتهم انه قد خرج من دين الاسلام باتفاقه مع فردريك الثاني .

اما عن الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، فقد اشتهر بورعه وتقواه ومناصرته للمسيحية لدرجة اطلق عليه لقب « القديس لويس التقي » ولقد شهد بذلك المؤرخ المرافق له اثناء الحملة الصليبية السابعة ويعتبر جوانفيل اقرب المقربين الى الملك في هذه الحملة وقوله ان الملك لويس التاسع اراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيرا عمليا ومن ثم تزعم الحملة الصليبية السابعة الى مصر كما تزعم الحملة الثامنة الى تونس وسوف ترى تفاصيل هذه الحملات في مواضعها حتى يتبين القارىء مدى تعصب الصليبيين بشكل عام ، القادة العسكريين ورجال الدين وعامة المقاتلين ونضرب

---

(١٤) المقرزي : السلوك ج١ ص ٢٣٠

الآن مثالا على هذا الموقف ، ففي سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م عندما هاجم الصليبيون مدينة بيت المقدس الاسلامية واحتلوها بعد ان انهزم المسلمون أمام الصليبيين « وهرب الناس الى الصخرة والاقصى واجتمعوا بها فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء . . . »[١٥] الم يكن هذا الفعل القبيح من الدلائل والبراهين الدالة على التعصب الديني الاوروبي ، الذي لم يكن يعنيه في هذا العمل الحصول على الفوائد المادية بقدر ما كان يعنيه قتل المسلمين وابادتهم ومحاربة الاسلام .

وفي سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٦٢ م رغب الصليبيون في احتلال الحجاز واهانة الاسلام في مركزه ومنشأ دعوته والقضاء على المسلمين في وقت كانت فيه بلاد الحجاز لا تملك مالا ولا ماء وليست مصدرا اقتصاديا ولا موضعا تخرج منه الجيوش الاسلامية ، وليس لها من خطورة على الوجود الصليبي في بلاد الشام وانما كان الهدف من هذه المحاولة الصليبية محاربة الاسلام والكيد للمسلمين ويقول المؤرخ المسلم المقريزي : « وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز وانشأ البرنس أرناط صاحب الكرك سفنا وحملها على البر الى بحر القلزم (السويس) واركب فيها الرجال واوقف منها مركبين على حرزة قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء الماء ، وسارت البقية نحو عيذاب فقتلوا واسروا واحرقوا في بحر القلزم نحو ست عشرة مركبا ، واخذوا بعيذاب مركبا يأتي بالحجاج من جدة واخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، واخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن واخذوا اطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين واحدثوا حوادث لم يسمع في الاسلام بمثلها ، ولا وصل قبلهم رومي الى ذلك الموضع ، فانه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد ، ومضوا الى الحجاز يريدون المدينة النبوية فجهز الملك العادل وهو يخلف السلطان بالقاهرة الحاجب حسام الدين لؤلؤ الى القلزم ، فعمر مراكب بمصر والاسكندرية ، وسار الى أيلة وظفر بمراكب للفرنج فحرقها وأسر من فيها . وسار الى عيذاب وتبع مراكب الفرنج فوقع بها بعد ايام ، واستولى عليها وأطلق من فيها من التجار المأسورين ، ورد عليهم ما أخذ منهم وصعد

---

(١٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٨ - ١٤٩

البر فركب خيل العرب حتى أدرك من فر من الفرنج وأخذهم فساق منهم اثنين الى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن »[١٦] وكان هذا العمل من الجانب الصليبي دليلا على محاربة الاسلام والا فماذا يريدون من مكة والمدينة وبلاد الحجاز في ذلك الحين ؟ !
وحدث في سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م عندما استرد الصليبيون مدينة عكا من المسلمين للمرة الثانية أن قتلوا المسلمين بها . يقول المقريزي : « فلما كان في سابع عشري رجب برز الفرنج بخيامهم واحضروا أسارى المسلمين ، وحملوا عليهم حملة واحدة ، قتلوا فيها باجمعهم في سبيل الله صبرا »[١٧]

نشاط الجماعات الدينية في الحرب الصليبية :

اما عن نشاط الجماعات الصليبية التي ترغب في محاربة الاسلام على سبيل المثال جماعة الفرسان الاسبتارية وجماعة الداوية ، الذين تجردوا من كل الامور الدنيوية ، وكرسوا جهودهم لخدمة الحركة الصليبية ، وكان في عهد بلدوين الثاني ان بدأ ظهور اهمية هذه الجماعات واشتد نشاطها في الحرب الصليبية .

بدأت الاسبتارية عام ١٠٧٠ م/ ٤٦٣ هـ من جماعة تقوم بالاشراف على المرضى الصليبيين وعلاجهم ثم تحولت الى منظمة عسكرية ، واتخذت تلك الهيئة طابعا عسكريا حربيا ، وصار عليها التزام بالدفاع عن ممتلكات الصليبيين في الشرق الاسلامي وحماية الاماكن المقدسة ومحاربة المسلمين ، كما قامت بنشاط عظيم في الدعوات المتتالية من أجل الحرب ضد المسلمين لدرجة أن أصبح الفرسان يمثلون القوة العسكرية الرئيسة التي تحافظ على الوجود الصليبي في بلاد الشرق الاسلامي[١٨] وتطورت هذه الطائفة من الفرسان حتى أصبح لها المدن والحصون والمعاقل التي اتخذوها مراكز وقواعد لتدريباتهم العسكرية واستعداداتهم الحربية ، وكان هؤلاء يتبعون البابا مباشرة قبل قيام الحرب الصليبية ثم أصبح لهم كيانهم المستقل ، وكان لهم دور فعال في الحرب الصليبية وقدموا مساعدات ذات أثر عظيم للصليبيين[١٩]

---

(١٦) المقريزي : السلوك ح١ ص ٧٨ ـ ٧٩
(١٧) المقريزي : المصدر السابق ح١ ص ١٠٥
(١٨) Guillaume de Tyr, I, pp. 534 —535; King : The knights Hospitallers in the Holy land, p. I
(١٩) Guillaume de Tyr, pp. 822—823.

وساعد الفرسان الاسبتارية على ذلك حصولهم على كثير من الاموال والمعونات والاراضي ، هذا بالاضافة الى أن كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الفرسان الاسبتارية من أجل النهوض برسالتهم الدينية والحربية ولم يأت عام ١١٣٧ م/ ٥٣٢ هـ حتى أصبح للفرسان الاسبتارية دور فعال في محاربة المسلمين(٢٠)

أما عن هيئة الفرسان الداوية ، فقد نشأت في أول الامر على أساس حربي ، فقد تأسست عام ١١١٨ م/ ٥١٢ هـ عندما وضع أساسها فارس فرنسي اسمه هيودي باينز ، واتخذ لها مقرا في جزء من هيكل سليمان في المسجد الاقصى ببيت المقدس ، ولهذا اكتسبت هذه الجماعة اسم فرسان المعبد التي حرفت فيما بعد الى اسم الداوية(٢١) ولقد ازداد نشاط هذه الطائفة في الاراضي المقدسة وفي اوروبا، فقد سافر رئيسها هيو الى فرنسا وانجلترا وأخذ يحث الفرسان والنبلاء والأمراء والشجعان من اجل الخروج للحرب الصليبية ، وتعهدت فرقة الداوية بحماية الطريق ما بين بيت المقدس وشاطىء البحر المتوسط ، ثم تطور نشاطهم حتى أصبح لهم دور في كل عمل حربي يقوم به الصليبيون في بلاد المشرق الاسلامي ضد المسلمين(٢٢) . وكان لهذه الطوائف الدينية الاثر الكبير في خدمة الحركة الصليبية ومساندتها وخصوصا انها تدين بالولاء والتبعية للكنيسة(٢٣) .

الاسباب التي تتصل بالعالم الاسلامي :

اما عن الاسباب التي تتصل بأحوال المسلمين ، فانها اكثر أهمية في الحروب الصليبية ، اذ لو فرضنا عدم وجود الانقسام والضعف وفتور الحماس الديني عند قادة المسلمين لما فكر الصليبيون في الغزو الصليبي ومحاربة المسلمين ، فقد شجعت احوال الجبهة الاسلامية العدو الصليبي على مهاجمة العالم الاسلامي وذلك للاسباب الآتية :

---

(٢٠) Runciman : History of crusudes, vol 2 p 157;
King : Theknights Hospitœllers in the holy land pp. 19—23

(٢١) Grousset: Histoire des croisades, I p 542

(٢٢) Guillaume de Tyr. pp. 520—522.

١ ـ كان العالم الاسلامي قبيل الحروب الصليبية يعاني من أسباب الضعف والانحلال ، فدولة الاتراك السلاجقة القوية قد ذهبت قوتها وانقسمت الى عدة دول بعد وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م ، واقتسم ابناؤه الأربعة كما أوضحنا في الفصل الثاني مملكته الواسعة ، وأصبحت اربع ممالك بدلا من واحدة ، فظهرت سلطنات فارس وكرمان والعراق والشام مستقلا بعضها عن بعض ، كما خرج عن التبعية السلجوقية حكام المدن والولايات المعروفون بالاتابكية ، ونبذوا سيادة حفدة ملكشاه[٢٤] وكان سلاجقة الشام اكثر تنازعا واختلافا فيما بينهم ، فقد استولى عليها تتش بن ألب ارسلان ، ولكن ابنيه رضوان ودقاقا تنازعا السلطنة بعد مقتل أبيهما ، واتخذ رضوان مدينة حلب عاصمة له في الفترة ٤٨٨ ـ ٥٠٧ هـ كما اتخذ أخوه دقاق (٤٨٨ ـ ٤٩٨ هـ) دمشق عاصمة له ، واشتعلت نار الحرب بينهما منذ ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م[٢٥]

٢ ـ اما عن الخلافة الفاطمية ، فقد أصابها الضعف والانهيار ومنيت بازمات اقتصادية ومجاعات جعلتها غير قادرة على التماسك أمام أطماع الوزراء ، وظهر هذا الضعف في عهد الخليفة المستنصر بالله ، وكان عهده مليئا بالكوارث التي نشأت عن المجاعات والاوبئة حتى أكل الناس الجيف ، ودامت خلافة المستنصر ٥٨ سنة (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م) فلما مات كانت مصر ظاهرة الضعف .

٣ ـ كانت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م ، وتمكن السلاجقة من انتزاع فلسطين ودمشق من أيدي الفاطميين ، كما بسطوا سيطرتهم على حلب والرها والموصل ، الا أن الفاطميين كانوا يمتلكون اسطولا بحريا قويا تمكنوا به من الاستيلاء على جميع مدن الساحل الشامي ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل شمالا في عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩ م كما استولوا على القدس للمرة الثانية سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م وظلوا فيها الى أن سقطت في أيدي الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م[٢٦]

---

(٢٤) د . احمد شلبي : التاريخ الاسلامي ج٥ ص ٤٣٢
(٢٥) د . شلبي : المرجع السابق ج٥ ص ٤٣٢
(٢٦) د . شلبي : المرجع السابق ج٥ ص ٤٣٣

والى جانب السلاجقة الذي يسيطرون على الشمال والفاطميين الذين يسيطرون على الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام ، كانت بلاد الشام الداخلية « مجزأة الى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال محلي » هذا بالاضافة الى المذاهب الدينية المتعددة « فهناك الدروز في جنوب لبنان والنصيريه في جبالهم الشمالية وجيرانهم الاسماعيلية » وتختلف هذه المذاهب جميعها عن مذهب أهل السنة ، وهم في نفس الوقت يقفون موقفا مضادا من أهل السنة وبالتالي من الاسلام والمسلمين ويشهد بذلك تعاونهم مع اعداء الاسلام عبر الاحداث التاريخية[٢٧]

٤ ـ اما عن أحوال المسلمين بالاندلس ، فقبيل بدء الحروب الصليبية كان عهد ملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٨٤ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٩١ م) سائدا بالاندلس ، وتميز هذا العهد بالانحلال وكثرة الهزائم ولم تستطع جهود دول المرابطين والموحدين في المغرب اصلاح الاحوال في الاندلس ، « وقد شجع هذا الوضع فرسان اوروبا على الزحف على العالم الاسلامي اذ زال خطر المسلمين» عن اوروبا وادركوا عن قرب ضعف المسلمين وانقسامهم ، وزالت رهبة الاعداء من المسلمين ، فاتجهت كل القوى المسيحية للعدوان عليهم في بلادهم ، لأن المسيحيين شعروا بتوقف حركة الجهاد الاسلامي واهملوا الاعداد العسكري وانشغلوا بالمصالح الخاصة ، فكان ذلك مشجعا للصليبيين على الغزو والانتقام من المسلمين ومحاولة القضاء على الاسلام ، وكان انتقام المسيحيين من المسلمين في الاندلس رهيبا فقد قتلوا المسلمين وخيروا الناس بين المسيحية أو الموت . اما عن ضعف الامبراطورية البيزنطية فهو السبب الذي أظهر خطورة الموقف بين المسلمين والمسيحيين ، ففي سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م حدثت موقعة ملازكرد وهلك فيها جيش الامبراطورية البيزنطية بين قتيل وجريح وأسير ، كما وقع في أسر المسلمين الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ، وغلبت الفئة القليلة المؤمنة المكونة من خمسة عشر الفا ، الفئة الكافرة المكونة من مائتي الف مقاتل من جيش بيزنطة ، وباتت القسطنطينية تتوقع الهجوم الاسلامي بين وقت واخر ، ومن ثم أرسل اباطرة القسطنطينية الى البابا الكاثوليكي في روما ، يطلبون منه العون ضد المسلمين ، وتناسى أباطرة القسطنطينية ما بينهم وبين الغرب الاوروبي

(٢٧) د . شلبي : التاريخ الاسلامي ج٥ ص ٤٣٤ و Hitti : History of the Arabs p. 748.

والبابوية في روما من اختلافات مذهبية ومشكلات سياسية واجتمعوا على كلمة واحدة من أجل محاربة الاسلام ومناصرة المسيحية ، وكان الرد الاوروبي على استغاثة بيزنطة ان لبوا النداء من أجل انقاذ المسيحيين والاراضي المقدسة وحرب المسلمين ومن ثم كان الجهاد الكنسي في الغرب هو الذي دعا الى هذه الحركة الصليبية ، وهو الذي أمدها بتأييده وتشجيعه المادي والمعنوي ، عندما افتتح بابا روما اربان الثاني في ٢٦ / ١١/ ١٠٩٥ م / ٤٨٨ هـ عصر التوسع الصليبي ضد المسلمين ، وألقى خطابه المشهور الذي أعلن فيه بدء الحرب الصليبية ، وعندما انتهى البابا من القاء خطابه في مدينة كليرمونت بفرنسا صاح الجميع صيحتهم المشهورة « هذه هي ارادة الله » وجاء في خطاب البابا قوله « بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين في اوروبا، ويتجه هؤلاء بأسلحتهم الى هزيمة الكفرة (المسلمين) »[٢٨] وصاح البابا يخاطب جماهير الناس الذين احتشدوا لسماع خطابه « لقد كنتم تحاولون من غير جدوى اثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فالآن اذهبوا وازعجوا البرابرة وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار وامتلكوها لانفسكم فإنها كما تقول الثوراة تفيض لبنا وعسلا »[٢٩] واعلن البابا في نفس الخطاب ان كل من يشترك في هذه الحروب تغفر له ذنوبه ، ويدخل في حماية الكنيسة المسيحية وتقدم الالوف من المسيحيين الذين استمعوا للخطاب البابوي ، وحملوا الصلبان رمزا للاستجابة لحامل الصليب الاكبر وهو البابا وبهذا عرفت هذه الحروب باسم الحروب الصليبية لاتخاذها الصليب رمزا ودليلا . ولم يقف البابا اربان الثاني عند هذا الحد ، بل اخذ ينتقل بين المدن والبلدان داعيا للحروب الصليبية ، كما أرسل الرسل والمبعوثين الى مختلف الاقاليم والبلاد المسيحية للمشاركة في الحرب الصليبية كما أرسل الى القوى البحرية يدعوها للمساهمة في الحرب ضد المسلمين فاستجابت جنوه الايطالية على الفور ، وقدمت اثنتي عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة الصليبية الاولى فضلا عن ناقلة كبيرة ، كما أقبل الامراء وكثير من الناس في معظم البلدان الاوروبية مثل فرنسا وايطاليا واسبانيا للمشاركة في الحرب الصليبية ، بل شارك فيها ايضا من البلدان البعيدة مثل اسكتلندا والدانمرك

---

(٢٨) د . شلبي : التاريخ الاسلامي ج٥ ص ٤٣٨

(٢٩) د . شلبي : المرجع السابق ج٥ ص ٤٣٨

وغيرهما[٣٠] وقد أناب الباب اربان الثاني عنه في قيادة المتطوعين للحرب الصليبية أحد الاساقفة واسمه ادهمار Adhamer ليكون للكنيسة السيطرة على الحركة الصليبية وتوجيهها وفق ارادتها . وحدد البابا يوم ١٥/ ٨/ ١٠٩٦ م/ ٤٩٩ هـ تاريخا لبدء تحرك الجيوش الصليبية الى الشرق ، كما حدد القسطنطينية مكانا تجتمع فيه الجيوش الاوروبية المتجهة الى الشرق الاسلامي ، وجدير بنا أن نذكر ان استعمال تعبير « الحروب الصليبية » يكون عندما يشن المسيحيون حربا على المسلمين ، أما الحروب المضادة التي يشنها المسلمون ضد المسيحيين وغيرهم فيطلق عليها التعبير الاسلامي « الجهاد » والحملات الصليبية التي تعرض لها الشرق الاسلامي كانت كثيرة ، الا أن منها الحملات السبعة التي سنذكرها في مواضعها من هذا الكتاب ، وترجع اهميتها وتمييزها عن غيرها لما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حققته من نجاح في الاراضي المقدسة كالحملة الاولى أو لخروجها تحت زعامة ملوك الغرب كالحرب الصليبية الثانية والثالثة والسادسة والسابعة أو لاتجاهها اتجاها غير مألوف كالحرب الصليبية الرابعة التي انحرفت عن طريقها الى مدينة القسطنطينية ، أو الحملة الخامسة التي اتجهت الى مصر . أما الجهاد فأنه لم ينقطع تقريبا واستمر ضد الصليبيين ، وربما فتر الجهاد ردحا من الزمن ، ولكنه سرعان ما كان يهب من جديد ولم يهتم المسلمون باخضاع الجهاد الى عدد أيا كان الملك أو السلطان الذي قاد المعارك ، اذ اعتبر المفكرون المسلمون جميع الملوك والمجاهدين وحدة متماسكة « وتناسوا اشخاص هؤلاء ولم يذكروهم الا في سياق التاريخ دون أن يجعلوا كلا منهم وحدة قائمة بذاتها كما فعل المؤرخون الغربيون » وكان هذا الاتجاه الاسلامي هو اتجاه السلاطين والملوك أنفسهم ، وكذلك الحال بالنسبة للشعب المسلم « اذ اعتبروا الجهاد الاسلامي سلسلة متصلة الحلقات يحمل كل من المسلمين عبأه فيها » استجابة لنداء وفريضة الجهاد في الاسلام[٣١]

تعليق :

وبعد ان شرحنا في ايجاز اهم الدوافع في الحروب الصليبية ، فانه يمكن القول

---

(٣٠) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ص ١٣٥ Cambridge Medieval History , vol 5 , p 263

(٣١) د . شلبي : التاريخ الاسلامي ج٥ ص ٤٤١

أن رجال الدين المسيحي لم يستطيعوا نسيان الخسارة التي لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لانتشار الاسلام في بقاع واسعة من الاراضي التي كانت المسيحية تتزعم الاديان فيها ، وهذا جعل رجال الكنيسة يشعرون دائما بالرغبة في الانتقام من الاسلام والمسلمين ، والذي يريد المزيد من هذا الفيض فعليه بمصادر التاريخ الاوروبية قبل العربية حتى يقف على طبيعة العصور الوسطى ورجال الكنيسة وموقف المسيحيين من الاسلام ، ويمكنه بعد ذلك التأكد من جملة حقائق في مقدمتها ان الدين من العوامل الاساسية والرئيسة في الحروب الصليبية ، بل أن اوروبا سخرت كافة الدوافع الاخرى وكل القدرات والامكانات لخدمة الهدف الاول وهو تحطيم الاسلام والمسلمين ونشر المسيحية في ارجاء العالم ، لأن في نشر المسيحية في ربوع الارض معنى السيادة والسيطرة للعالم المسيحي على غيرهم من الامم . وكان هذا المبدأ الاوروبي هدفا على مر العصور ، فعندما قام الغرب الاوروبي في القرن الخامس عشر الميلادي بحركة الكشوف الجغرافية ، كان في مقدمة اهدافهم البحث عن طريق تجاري يصل بين الشرق والغرب لا يمر ببلاد الاسلام من ناحية ، ونشر المسيحية في العالم من ناحية ثانية ، وهدفهم من هذا اضعاف موارد الدولة الاسلامية المملوكية التي كانت تسيطر على طريق التجارة ما بين الشرق والغرب وتجني الارباح الطائلة ومن ثم كان من اهداف الكشوف الجغرافية حرمان المسلمين من الارباح التجارية ودور الوساطة في نقل التجارة بين الشرق والغرب بما يحقق هدفا صليبيا أصيلا وهو اضعاف دولة الجهاد الاسلامي المملوكية ، والتي كان لها فضل القضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام وبعض جزر البحر المتوسط ، بل لم تمكن الصليبيين من تحقيق اهدافهم في غزو السواحل الاسلامية ، ولهذا كان الحقد الصليبي في اوروبا واضحا في الكشوف الجغرافية التي جعلت من تحطيم القوة العسكرية الاسلامية ومحاربة المسلمين الهدف الاول لها ، ومصداق هذا القول ما حدث فعلا عندما تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتحولت التجارة بين الشرق والغرب الى هذا الطريق ، وبدأت موارد المال في الدولة المملوكية تنضب ، فلحق بالمسلمين في مصر والشام الضعف والانهيار . فجاء دم اسلامي جديد تولى الجهاد ضد اعداء الاسلام وواجه العثمانيون المحاولات الاستعمارية وجاهدوا ضد الصليبيين وان لم يتخذ المسيحيون الصليب شعارا لهم وانما اتخذوا شعارات ومسميات اخرى .

ومن ناحية اخرى كانت البرتغال واسبانيا في مقدمة الدول الاوروبية التي ترغب في نشر الكاثوليكية في البلاد الشرقية ، ومن ثم كانت في طليعة الدول التي شاركت في حركة الكشوف الجغرافية ، الم تكن حركة الاستعمار الاوروبي الحديث في مقدمة اهدافها التبشير للمسيحية وابعاد المسلمين عن دينهم والتشكيك في الفكر الاسلامي ، ومحاولة اثبات أن لا سياسة في الدين الاسلامي ولا دين في السياسة بهدف عزل الاسلام عن الحياة العامة للمسلمين ، وجعله دين مساجد وزوايا فقط ، وانظر ايضا اذا شئت الى الاستعمار الاوروبي الذي كان قاصرا على العالم الاسلامي وبلاد الاقوام الاخرين من غير المسيحيين ، لِمَ لم يكن الاستعمار يدخل بعض الدول المسيحية اذا كانت الدوافع اقتصادية او سياسية او اجتماعية او انسانية على حد زعمهم ؟ والحقيقة ان هدفهم نشر المسيحية وضرب الاسلام اضافة الى نهب الخيرات بهدف اضعاف قدرات الناس غير المسيحيين بمعنى أن اوروبا المسيحية قد سخرت كافة الدوافع الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية لخدمة الاهداف الدينية لا سيما أن المدارس والبعثات التبشيرية تملأ الأفاق تبشر بالمسيحية وتدعو لها وتحارب ما سواها . وثمة موضوع خطير في هذا البحث هو ان معظم المؤرخين المحدثين في الشرق او الغرب ، مسلمين أو مسيحيين حاولوا تجريد الحياة العامة للمسلمين عن عقيدتهم ،وفصل الدين عن الحياة العامة ، كما فعل الغربيون في ثورتهم ضد الكنيسة في عصر النهضة الاوروبية ، وذلك بهدف التقليل من دور الاسلام في حياة المسلمين وحضارتهم وجهادهم ، وسواء أكان ذلك من المؤرخين جهلا أم قصدا فانهم جميعا نهجوا هذا المنهج المجرد عن جادة الصواب وتأثروا فيما قالوا اما بسبب الجهالة ونقص في الاطلاع أو سؤ نية أو انحراف تفكيرهم وزيف عقيدتهم ، أو ميولهم القومية أو أنهم من أهل الفكر المادي أو انهم لا يملكون الجرأة والشجاعة في قول الحق والحقيقة ، أو رغبة منهم في اظهار نوع من الآراء وافتعال القدرة على الاستنباط والتحليل . فكان من ثمار هذا التضليل ان اصبحت الامة الاسلامية أمما ضعيفة تحتاج الى دفع شديد لتعود الى مكانتها التي ارتضاها الله لها .

الفصل الرابع

الحملة الصليبية الاولى وتأسيس الإمارات الصليبية

تحرك الصليبيين نحو الشرق - انتصار الصليبيين في ضورليوم وقونيه ومواصلة تقدمهم - زحف الصليبيين نحو أنطاكية وسقوطها - سقوط مدينة المعرة - زحف الصليبيين نحو بيت المقدس وموقف المسلمين في الشام - موقف الدولة الفاطمية من الصليبيين - سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين - جرائم الصليبيين في القدس - المحاولات الصليبية للسيطرة على الممتلكات الفاطمية في فلسطين - استمرار التوسع الصليبي في ارض الاسلام.

الحملة الصليبية الاولى
وتأسيس الإمارات الصليبية

تحرك الصليبيين نحو الشرق :

بعد ان تحركت جموع الصليبيين من بلادهم . والتقوا جميعا في مدينة القسطنطينية ، طلب منهم امبراطور القسطنطينية ان يقسموا له يمين الولاء والتبعية فاقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الاولى باستثناء بعض قادة الصليبيين مثل ريموند وتنكريد ـ وتعهد الصليبيون للامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بأنهم سوف يردون للدولة البيزنطية كل الاراضي البيزنطية التي يستطيعون استردادها من المسلمين ، وتعهد الامبراطور البيزنطي للصليبيين في المقابل أن يقوم بتقديم المساعدات الوفيرة لهم من أجل تحقيق اهدافهم ، وأن يشارك هو بدوره في الحرب الصليبية ضد المسلمين ، فهم العدو المشترك للصليبيين جميعا . كما تعهد الامبراطور البيزنطي بتزويدهم بفرق من جيشه البيزنطي في حالة تعذر مسير الامبراطور نفسه معهم[1] وبعد أن قضى الصليبيون مدة أسبوعين في القسطنطينية ، سارت قواتهم لتعبر الى آسيا بعد أن اجتمعت معهم قوات حملة العامة التي قادها بطرس الناسك والتي بلغ عدد رجالها حوالي مليون شخص[2] واتفق الجميع على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية التي تعتبر من المراكز الرئيسة للمسلمين السلاجقة ، ومن ثم تحركت القوات الصليبية في ابريل ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ باتجاه مدينة نيقية للاستيلاء عليها في وقت كان قلج ارسلان الامير السلجوقي غائبا عن مدينته ومشغولا في نزاع

---

(١) Grousset: Histoire des croisades, I, p. 27

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣١٩

داخلي مع بعض الامـراء المسلمـين من بنـي دانشمنـد حول مدينـة ملـطية ، هذا بالاضافة الى ثقته بنفسه من أن الصليبيين لن يصلوا الى بلاده بحجة ان خلافاتهم مع الامبراطور البيزنطي سوف تعرقل مسيرهم اليه ، ولكن اتفاق الامبراطور الكسيوس كومنين مع امراء وقادة الصليبيين غير الموقف ، ووصلت القوات الصليبية بالفعل الى مدينة نيقية وحاصروها في السادس من مايو ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ ، واخذوا يهاجمونها بعد اسبوع من وصولهم ، فاضطر الامير قلج ارسلان الى العودة الى نيقية لأن بها زوجته واولاده وامواله وتعتبر مركز حكمه ، وبدأ يهاجم الصليبيين فور وصوله ، ولكنه فقد الثقة في التغلب عليهم ، وادرك ان قواتهم كثـيرة ولا طاقـة له بهـم ، فانسحب بقواته ، وكان ذلك هزيمة معنوية الحقت الضرر بالجيش السلجوقـي في حين كانت القوات الصليبية قد ارتفعت معنوياتها ، لا سيما انهم باحتلال مدينة نيقية يكونون قد حققوا الانتصار الاول على المسلمين فزادهم ذلك حماسـا لمواصلـة الحرب ضد المسلمين[٣] وتسلم البيزنطيون مدينة نيقية في ٢٦/ ٦/ ١٠٩٧م/ ٤٩٠ هـ « وهو أول بلد فتحوه واخذوه من المسلمين[٤] » بعد أن دامت تحت حكم السلاجقة عشر سنوات في حين أن أنباء سقوط المدينة في أيدي الصليبيين وصلت الى الغرب الاوروبي فعـم الفـرح بلادهـم وتشجـع من كان متـرددا في المشـاركة في الحـرب الصليبية ، وأرسلت الامدادات بمختلف انواعهـا الى القـوات الصـليبية وهـم في طريقهم الى بلاد الشام .

انتصار الصليبيين في ضورليوم وقونيه :

كان لانتصار الصليبيين في نيقية عظيم الاثـر في حماس الصليبيين وسـاروا في مجموعتين وذلك لتسهيل وصول الامدادات اثناء تقدمهم من ناحية ولارباك القوات الاسلامية السلجوقية من ناحية ثانية وللاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الارض من ناحية ثالثة ، كما اتفق على أن تلتقي القوات الصليبية جميعها في ضورليوم ، وكان المسلمون في آسيا الصغرى بعد هزيمة نيقية قد جمعوا قواتهم بعد أن وقعت الهدنة بين

---

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٦

Grousset: Histoire des croisades, I. p.29.

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٦

الحملة الصليبية الاولى (في آسيا الصغرى)

البيت السلجوقي وبنو دانشمند وذلك بهدف مواجهة العدو المشترك الجديد ، فاتحد السلطان قلج ارسلان السلجوقي مع الامير غازي بن دانشمند ومن ثم أصبحت لهم قوة فعالة يمكنها الوقوف في وجه الزحف الصليبي ، الا أن الصليبيين جاءهم المزيد من الامدادات العسكرية ودارت معركة بين المسلمين والصليبيين في أول يوليه ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ انتصر فيها الصليبيون على الاتراك السلاجقة بعد ان استشهد من السلاجقة الكثيرون ، وكان لهذه الهزيمة اسوأ الأثر على نفوس المسلمين في حين أن انتصار القوات الصليبية في ضورليوم أكد من جديد تفوق القوة الصليبية الغربية وشجعها على أن تواصل السير في طريق بلاد الشام لتحقيق اهدافها الصليبية ، وتقدموا بعد احتلال ضورليوم الى مدينة قونيه ، وصادفوا خلال طريقهم مصاعب جمة ومع ذلك وصلوا اليها في حوالي منتصف اغسطس سنة ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ ، فدخلوها بدون قتال لأن السلطان قلج ارسلان بعد هزيمته في نيقية وضورليوم قام باخلاء المدن امام الصليبيين وجردها من كافة ما يمكن أن يستفيد منه العدو ، وكان بالمدينة جماعة من الارمن الذين قدموا خدماتهم للصليبيين ، ثم تحرك الصليبيون من قونيه الى هرقلة فاخذوها ولم يستطع قلج ارسلان انقاذها ، وبعد أن مكث الصليبيون في هرقلة بضعة ايام انقسموا الى فرقتين ، فقد سار تنكريد ومعه بلدوين في حوالي منتصف شهر سبتمبر ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ في ناحية قيليقيه الواقعة في الركن الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى بينما سارت باقي القوات الصليبية برياسة ادهيمار المندوب البابوي وجودفري وبوهيموندد وريموندفي تجاه مدينة قيصرية فاخذوها في ٢٧/ ٩/ ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ ، وتابع الصليبيون زحفهم وهم يأخذون المدينة بعد الأخرى ، ومن الاسباب التي ساعدت الصليبيين في احتلال الكثير من القرى والقلاع وجود بعض العناصر الارمنية المسيحية التي اخذت ترحب بالقوات الصليبية وتتعاطف معها ، بل تقدم لها المعونات والامدادات ، وتقوم بارشادهم الى الطرق واظهروا للصليبيين الود والصداقة ، فعندما دخل الصليبيون مدينة مرعش في ١٣/ ١٠/ ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ كان معظم سكانها من الارمن المسيحيين فرحبوا بهم « واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية في تلك الجهات »[٥]

---

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٦ ، . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ١٦١ - ١٦٣

زحف الصليبيين نحو انطاكية وسقوطها :

وبعد ذلك تقدم الصليبيون في اتجاه بلاد الشام فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصي شرقي أنطاكية في ٢٠/ ١٠/ ١٠٩٧ م/ ٤٩٠ هـ وبذلك بدأ الغزو الصليبي لبلاد الشام بعد أن خضعت بلاد آسيا الصغرى للاحتلال الصليبي . وما أن ترامت انباء الغزو الصليبي لبلاد الشام حتى اضطربت البلاد ، لان كثرة اعداد الصليبيين وطبيعة زحفهم وتعصبهم الزائد ، كل ذلك جعل الاهالي يشعرون انهم امام خطر رهيب حتى قال ابن القلانسي المؤرخ المسلم : ان الصليبيين وصلوا « في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الانباء بذلك ، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها[٦] » وكان هذا الرعب من أسباب انتصار الصليبيين لدرجة أن القوات الصليبية ما أن وصلت الى مشارف مدينة أنطاكية حتى دب الفزع في أهلها وقيل أن رجلا في انطاكية نافق الصليبيين وفتح لهم في الليل شباكا في السور فدخلوا منه ووضعوا السيف في أهلها في حين هزب حاكمها ياغي سيان وترك بها أهله وأولاده وأمواله « فلما بعد عن البلد ندم على ذلك فنزل عن فرسه فحثى التراب على رأسه وبكى ولطم على تفريطه في حق مدينته وتفرق عنه اصحابه ، وبقي وحده فمر به رجل أرمني حطاب فعرفه فقتله وحمل رأسه الى الصليبيين[٧]

وذكر ابو صاحب النجوم الزاهرة رواية اخرى عن سقوط انطاكية فقال انه « في جمادي الاولى ورد الخبر بأن قوما من أهل انطاكية عملوا عليها وواطأوا الفرنج على تسليمها اليهم لاساءة تقدمت من حاكم البلد في حقهم ومصادرته لهم ، ووجدوا الفرصة في برج من الابراج التي للبلد مما يلي الجبل فباعوهم اياه واصعدوا منه في السحر وصاحوا فانهزم ياغي سيان . وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص ، فسقط الامير عن فرسه عند معرة مصرين فحمله بعض اصحابه واركبه فلم يثبت على ظهر الفرس وسقط ثانيا فمات »[٨]

---

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ ثم انظر غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٣
(٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٦
(٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٧

« واما انطاكية فقتل منها وسبى من الرجال والنساء والاطفال مالا يدركه حصر »[٩]

سقوط مدينة المعرة :

واما عن سقوط مدينة المعرة في أيدي الصليبيين ، فكان بعد سقوط مدينة أنطاكية ، وارتكب الصليبيون ابشع الجرائم في المعرة ، وبلغ عدد من قتل في المعرة «مائة ألف انسان»[١٠] ولما شاع ذلك الخبر بين امراء الاسلام كان لا بد من اتخاذ موقف لمواجهة هذا الخطر ، فيقول ابو المحاسن : « ولما وقع ذلك اجتمع ملوك الاسلام بالشام وهم رضوان صاحب حلب واخوه دقاق وطفتكين وكربوغا صاحب الموصل وسكمان بن أرتق صاحب ماردين وارسلان شاه صاحب سنجار ، ولم ينهض الافضل (الوزير الفاطمي) باخراج عساكر مصر ، وما ادري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال - فاجتمع الجميع ونازلوا انطاكية وضيقوا على الفرنج حتى أكلوا ورق الشجر ، وكان صنجيل مقدم الفرنج عنده دهاء ومكر فرتب مع راهب حيلة وقال : اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول : في المكان الفلاني حربة مدفونة فاطلبوها فان وجدتموها فالظفر لكم ، وهي حربتي ، فصوموا ثلاثة ايام وصلوا وتصدقوا ، ثم قام وهم معه الى المكان ففتشوه ، فظهرت الحربة فصاحوا وصاموا وتصدقوا وخرجوا الى المسلمين وقاتلوهم حتى دفعوهم عن البلد ، فثبت جماعة من المسلمين فقتلوا عن آخرهم رحمهم الله تعالى ، والعجب ان الفرنج لما خرجوا الى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت حتى انهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الاسلام في غاية القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم ، وانكسر اصحاب الجرد السوابق ووقع السيف في المجاهدين والمطوعين »[١١]

---

(٩) ابو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ص ١٤٧

(١٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٤١ - ١٤٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٦

(١١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٦ - ٢٧٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٧ - ١٤٨

فكتب دقاق ورضوان والامراء الى الخليفة العباسي المستظهر بالله يستنصرونه لاعتقادهم أنه من المفروض على الخليفة العباسي بصفته زعيم المسلمين أن ينهض للجهاد « فاخرج الخليفة أبا نصر ابن الموصلايا الى السلطان بركياروق ابن السلطان ملكشاه السلجوقي يستنجده ، كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج »[١٢] وقد تعجب المؤرخ المسلم أبو المحاسن واستنكر عدم تحرك قوات مصر الفاطمية في ذلك الوقت وعده موقفا غريبا ، فالمسلمون اينما كانوا يقع عليهم واجب دفع العدو عن الاسلام وارضه .

وكان من أثر هزيمة المسلمين أمام القوات الصليبية وسقوط مدينة أنطاكية ان اضطربت البلدان الاسلامية القريبة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الارمن »[١٣] وازدادت قوة الصليبيين وارتفعت معنوياتهم بعد أن ثبت لهم ضعف المسلمين .

زحف الصليبيين نحو بيت المقدس وموقف المسلمين في الشام :

بعد ان تمكن أحد قادة الحملة الصليبية الاولى وهو بوهيموند من جعل انطاكية مملكة له ، تحركت باقي جموع الصليبيين نحو بيت المقدس بعد ان مكثوا حوالي خمسة عشر شهرا في شمال بلاد الشام استولوا خلالها على المدن والقرى الاسلامية[١٤] وساروا « في ألف ألف ، منهم خمسمائة الف مقاتل فارس ، والباقون رجالة وفعلة وارباب الات من مجانيق وغيرها وجعلوا طريقهم على الساحل[١٥] » وبوصول الصليبيين الى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العربية الصغيرة الموجودة في بلاد الشام ، والتي رأت في زوال قوة السلاجقة فرصتها في الاستقلال ببعض المدن مثل حمص وطرابلس وشيزر تاركة المصلحة العامة للاسلام والمسلمين ، ولم تحاول هذه القوى بذل جهدها من أجل توحيد الجهود للوقوف في وجه الزحف الصليبي ، بل ان موقف امراء هذه المدن ، كان مسلكهم تجاه

---

(١٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٨ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٧٩
(١٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٥
(١٤) انظر : Setton: History of the crusades, vol, I, p. 327.
(١٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٨

الصليبيين مختلفا تماما عن مسلك الاتراك الذين لم يعرفوا سوى الجهاد ، فقاتلوا الصليبيين بكل الوسائل لاعتقادهم ان الجهاد فرض على المسلم تسقطدونه الاعذار كافة ، في حين قبل امراء المدن المذكورة الدخول في طاعة الصليبيين والنزول على شروطهم بل تقديم المعونة والادلاء للصليبيين[١٦] ومن بين هؤلاء الامراء الامير عز الدين ابو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر (١٠٩٨ ـ ١١٤٥ م/ ٤٩٣ ـ ٥٤٠ هـ) فقد اتفق مع ريموند الصليبي اثناء وجوده في كفر طاب بعدم التعرض للصليبيين عند مرورهم باقليم شيزر ، وتعهد ان يقدم لهم ما يحتاجون اليه من الطعام والميرة فضلا عن أنه أرسل اليهم في ١٧/ ١/ ١٠٩٩ م دليلين ليرشدا القوات الصليبية في عبورهم اقليم العاصي ، وكان ذلك الدور من المهادنة ومسالمة الصليبيين من العوامل التي ساعدت على تقدم الصليبيين نحو داخل بلاد الشام بالرغم من المساوىء التي ارتكبها الصليبيون ضد المسلمين[١٧] وآثر الصليبيون اتخاذ أقصر الطرق الداخلية المؤدية الى بيت المقدس مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطىء البحر اذا احتاجوا الى التموين والامدادات ، ومن ثم ساروا فمروا بمصياف في ٢٢/ ١/ ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ فخرج اليهم اميرها العربي وعقد معهم اتفاقية سلام ، ثم تقدموا نحو بعرين ومنها الى سهل البقاع وهاجموا حصن الاكراد الواقع في وسط سهل البقاع ، واحكموا عليه الحصار حتى سقط الحصن في أيديهم في ٢٩/ ١/ ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ « وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنجه حتى لا يتعرضوا لبلدهم بسوء »[١٨] وسار الصليبيون بعد احتلال حصن الاكراد الى ناحية طرابلس ، وكانت امارة طرابلس عندئذ خاضعة لبني عمار ، فأسرع صاحبها أبو علي فخر الملك بارسال الرسل الى ريموند لعقد اتفاقية تعهد فيها الامير العربي بدفع الاموال للصليبيين ورفع اعلامهم على سور طرابلس وغيرها من المواضع التابعة له اشارة الى ولائه للصليبيين[١٩] وبعد الانتهاء من طرابلس بالاتفاقية المذكورة هاجموا مدينة عرقه

---

(١٦) اساق بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ ، ٨١

Setton: History of the crusades, vol, I pp. 164 — 165

(١٧) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١

(١٨) د . سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٢٢٢

(١٩) Raymond d'Agiles, p. 275

وحاصروها اربعة أشهر وثقبوا سورها عدة ثقوب فلم يقدروا عليها واضطروا الى رفع الحصار عنها في ١٣/ ٥/ ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ . وكانت فرقة اخرى من القوات الصليبية قد سارت نحو انطرطوس واستولوا عليها في حوالي ١٧/ ٢/ ١٠٩٩ م / ٤٩٢ هـ وكانت انطرطوس عبارة عن ميناء صغير على شاطىء البحر المتوسط تابع لبني عمار ، وأدى استيلاء الصليبيين على هذا الميناء الى سهولة تموينهم بواسطة الاساطيل الايطالية والبيزنطية المتحالفة مع الصليبيين[٢٠]

وهاجمت القوات الصليبية بلدة جبلة في الفترة من الثاني الى الحادي عشر من شهر مارس ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ فاضطر ابو محمود قاضي جبلة ان يتفق مع الصليبيين ، وتعهد لهم بدفع جزية من المال والخيل ، فانظر كيف يكون الاستسلام بدون قتال ، وكيف يكون الجبن عندما يخشى الناس الجهاد ، في حين ان بلدة عرقه سابقة الذكر لم تستسلم للصليبيين على الرغم من الحصار الشديد وجاهدوا في سبيل الله ، وبالرغم من كثرة قوات الصليبيين ووصول الامدادات المستمرة لهم عن طريق البحر المتوسط ، فانهم امام صبر المؤمنين والمجاهدين في عرقه اضطروا الى رفع الحصار عنها في ٥١٣/ ١٠٩٩م/ ٤٩٢ هـ ، فتشجع امير طرابلس على نبذ الطاعة ، وسحب عروضه السابقة وذلك قبل أن يرفع الصليبيون حصارهم عن عرقه ، ا لا أن الصليبيين بعد رفع الحصار عن عرقه هاجموا طرابلس وهزموا المسلمين فخضع ابن عمار من جديد لمطالب الصليبيين وتعهد بالاستمرار في دفع اتاوة مالية اضافة الى غرامة حربية باهظة ، واكتفى الصليبيون بذلك وتحركوا من اقليم طرابلس في ١٦/ ٥/ ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ ومعهم بعض الأدلاء العرب ليرشدوهم الى الطريق ، فوصلوا مساء ١٩/ ٥/ ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ امام بيروت وبذلك أصبحوا على مقربة من القدس[٢١] .

موقف الدولة الفاطمية :

اما عن موقف الدولة الفاطمية في مصر حتى الآن ، فقد اشار اليه المؤرخ ابو

---

(٢٠) Reymond d'Agiles, p. 276;
Grosset: Histoire de croisades, I. pp. 132 — 133

(٢١) Raymond d'Agiles, p. 285;
Guillaume de Tyr pp. 308 — 310

المحاسن عندما قال « ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر وما ادري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال[٢٢] » ثم بين كيف ان المسلمين في العراق والشام حاولوا صدهم وقتالهم « كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج »[٢٣] ويمكن تعليل هذا الموقف السلبي من جانب الفاطميين بأنهم لم يكونوا قد ادركوا حقيقة الحرب الصليبية واهدافها ، بل انهم رأوا في هزيمة السلاجقة المسلمين بواسطة الصليبيين فرصة مواتية لكي تسترد الدولة الفاطمية فلسطين وبيت المقدس التي كانت لا تزال في حكم السلاجقة ، ومن ثم فان السلطات الفاطمية رحبت بتقدم القوات الصليبية في اراضي الدولة السلجوقية ، ووجدوا في ذلك فرصة طيبة لتأديب السلاجقة ، بل ان المؤرخ الكبير ابن الأثير اتهم الفاطميين في انهم شجعوا الصليبيين على غزو بلاد الشام ليساعدوا الفاطميين ضد الأتراك السلاجقة وذكر ايضا : « ان اصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية اخرى تمنعهم ، ودخول أقسيس الى مصر وحصرها خافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين[٢٤] » وهذا يفسر بوضوح الموقف السلبي للفاطميين من زحف الصليبيين نحو الشام ، بل احسوا بالسعادة عندما زال نفوذ الاتراك السلاجقة من بلاد الشام ، ودليل ذلك ان الوزير الافضل شاهنشاه الفاطمي عندما وصل الصليبيون الى أنطاكية اسرع الى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين وهم الاتراك السلاجقة ، ولهذا الغرض وصل رسل الوزير الأفضل الى الصليبيين أمام أنطاكية اثناء حصارهم لها في اوائل سنة ١٠٩٨ م/ ٤٩٢ هـ وعرض الرسل الفاطميين على الصليبيين فكرة التعاون والتحالف بين الجانبين ضد السلاجقة المسلمين على أن تقسم الغنيمة بعد ذلك بين طرفي التحالف بحيث يكون القسم الشمالي من بلاد الشام (سوريا) للصليبيين والقسم الجنوبي (فلسطين) للفاطميين ، فأرسل الصليبيون سفارة الى القاهرة ردا على سفارة الوزير الافضل تؤكد التعاون بين

---

(٢٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٧
(٢٣) ابو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٨
(٢٤) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٢٧٣

الطرفين للقضاء على العدو المشترك ، ولقد جانب الفاطميين الصواب في هذا الموقف ولم يفهموا حقيقة الاهداف الصليبية التي ترى أن المسلمين على اختلاف مذاهبهم هدف واحد ينبغي تحطيمه[٢٥] ومن دلائل هذا التعاون بين الفاطميين والصليبيين ان القوات الفاطمية زحفت على مدينة صور في ربيع ١٠٩٧ م/ ٤٩١ هـ كما انتزعوا مدينة بيت المقدس من أيدي سكمان (سقمان) الارتقي واخيه ايلغازي في ٢٦/٨/١٠٩٨ م/ ٤٩٢ هـ . وغدت فلسطين جزءا من الدولة الفاطمية .[٢٦]

سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين

لم يلبث الفاطميون أن أدركوا اهداف الصليبيين العدوانية بعد زوال النفوذ السلجوقي ، وادرك الأفضل الوزير الفاطمي ان بيت المقدس من الاهداف الرئيسة للحرب الصليبية ، فأرسل رسله الى الصليبيين وهم على مقربة من مدينة طرابلس ، وحمل الرسل بالهدايا النفيسة والاموال الكثيرة لكل قائد من قادة الصليبيين ، كما نقل الرسل الى الصليبيين عرض الخليفة الفاطمي عليهم قبوله تسهيل مهمة الحج للمسيحيين على شكل مجموعات من مائتي حاج أو ثلثمائة بشرط ألا يكونوا مسلحين ، ولكن قادة الصليبيين فهموا من هذا العرض ضعف الدولة الفاطمية فردوا على الخليفة انهم سيتمكنون من الحج فعلا ولكن بمعونة الله ، وهذا يعني أنهم يعلنون الحرب على الفاطميين ، وانهم سوف ينتزعون بيت المقدس من أيدي الفاطميين لا سيما أن الاحتكاك بين الطرفين أصبح مباشرا بعد زوال النفوذ السلجوقي من بلاد الشام[٢٧] .

وباشر الصليبيون التقدم من طرابلس فمروا بالموانىء الساحلية التي سارعت بتقديم طاعتها للصليبيين ، من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب وصول القوات الصليبية منهم عرضوا عليهم امدادهم بالمواد التموينية بالاضافة الى تقديم مبلغ كبير من المال في مقابل أن يكف الصليبيون عن الاعتداء على البساتين ومزارع

---

(٢٥) Grousset: Histoire de croisades, I. pp. 144— 146, Setton: History of the crusade, vol I, p. 316 ; Michaud: I, p. 362

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨٢ ـ ١٨٣

(٢٧) Guillaume de Tyr, I. pp. 305 — 306; Michaud: vol, I p. 362— 364

الكروم والغلال المملوكة للعرب في تلك الجهات ، كما اشترط اهل بيروت على أنفسهم انهم سوف يدخلون في طاعة الصليبيين اذا ما نجح الصليبيون في احتلال بيت المقدس[٢٨] اما في صيدا فان حاميتها هاجمت الصليبيين مما جعلهم يخربون المزارع المجاورة للمدينة ويعتدون على الضياع القريبة وذلك يدل على أن الحرب الصليبية كانت تهدف الى تدمير كل شيء للمسلمين وتحطيم مصادر قوتهم الاقتصادية[٢٩] ثم مر الصليبيون بصرفند وصور وعكا وقيساريه وأرسوف ثم اختاروا السير الى بيت المقدس مباشرة بعد أن احتلوا الرملة واللد ، وكان الصليبيون قد اتفقوا اما أن يهاجموا مدينة بيت المقدس مباشرة او انهم يهاجمون مصر ويستولون عليها حتى ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس ، ولكن امام الصعوبات الكثيرة التي واجهت الصليبيين في سبيل تحقيق الفكرة الثانية فانهم آثروا الزحف على بيت المقدس مباشرة ، فتركوا الرملة في ٦/ ٦/ ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ وفي الطريق التقوا مع بعض المسيحيين الوافدين من بيت لحم وهؤلاء من العرب وقد حثوا الصليبيين على الاسراع الى بيت المقدس لأن الفاطميين بدأوا في تقوية دفاعات بيت القدس ، لذلك أرسل جودفري احد قادة الصليبيين فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد الى بيت لحم حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا وصاحوا مهللين بأن « ساعة الخلاص من المسلمين قد حانت ، وانهم جميعا اتباع المسيح ورعاياه لا فرق بين كاثوليك وارثوذكس وسريان »[٣٠] وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن الرابطة الدينية هي التي تجمع بين صفوف الصليبيين لقتال المسلمين ، فقد وقف المسيحي العربي الى جانب المسيحي الاوربي ضد المسلمين.

وصل الصليبيون بعد ذلك الى اسوار بيت المقدس في ٧/ ٦/ ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ وكان افتخار الدولة حاكم بيت المقدس من قبل الدولة الفاطمية قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم آبار المياه وقطع موارد المياه ، وأخفى المواشي وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين لشعوره بخطورة وجودهم اثناء هذا

---

(٢٨) Setton : History of the crusades, vol, I p 341

(٢٩) Guillaume de Tyr. p. 311

(٣٠) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤

الهجوم وتعاطفهم مع الصليبيين المهاجمين للمدينة وقرر القتال ورفض الاستسلام .[31] وشدد الصليبيون الحصار على بيت المقدس وخصوصا بعد أن وصلت لهم الامدادات عن طريق البحر ، فان اسطولا جنوياً وصل الى ميناء يافا واستولى على المدينة ، واردف القوات الصليبية بالمساعدات فشددوا الحصار على القدس« فاقاموا يقاتلون اربعين يوما ، وعملوا برجين مطلين على السور احدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود ، وباب الاسباط وهو برج الزاوية . . فاحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه ، وأما الآخر فزحفوا به حتى الصقوة بالسور وحكموا به على البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد فانهزم المسلمون ، فنزلوا فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مائة الف وسبوا مثلهم وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء . . . »[32]

جرائم الصليبيين في القدس

وقال ابن الاثير « وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج في البلدة اسبوعا يقتلون فيه المسلمين ، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة ايام ، فبذل لهم الفرنج الامان ، فسلموه اليهم ووفى لهم الفرنج وخرجوا ليلا الى عسقلان فاقاموا بها ، وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفا ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف . . »[33] وقد افتخر بعض الصليبيين بما ارتكبوا في المسجد الاقصى من قتل المسلمين في مذبحة وحشيه رهيبة « حتى ان جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين»[34]

بل إن وليم الصوري قال « ان بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة

---

(٣١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٨٣ ، د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٣٤

(٣٢) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٨٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٨ ـ ١٤٩

(٣٣) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤

(٣٤) Gesta Francorum, pp. 203 — 205

واشمئزازهم »[٣٥] كذلك ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الاحداث وشاهدها فقال انه عندما زار الحرم الشريف اثناء المذبحة الرهيبة التي ارتكبها الصليبيون فلم يستطع أن يشق طريقه وسط اشلاء المسلمين الا في صعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه[٣٦] ويدل سلوك القوات الصليبية في جميع المعارك التي خاضتها ضد الاسلام على انهم من أشد الوحوش حماقة ، فقد كانوا لا يفرقون بين المقاتلين والعزل من النساء والشيوخ والاطفال ، فقد خرجوا عن طورهم الآدمي « وكان من أحب ضروب اللهو اليهم قتل من يلاقون من الاطفال وتقطيعهم اربا اربا وشيهم كما روت آن كومنين بنت قيصر الروم[٣٧] » ولهذا قام المجاهدون من الاتراك السلاجقة بالتصدي للصليبيين وقاتلوهم كما يقول غوستاف لوبون « ولذا صار الترك يتصيدونهم كما يتصيدون الحيوانات المفترسة[٣٨] » ونذكر هنا شهادة المؤرخ الراهب التقى روبرت الذي كان من الصليبيين الذين دخلوا بيت المقدس فيقول « كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الاولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم اربا ارباوكانوا لا يستبقون انسانا وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ، فيا للعجب ويا للغرابة ان تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم، وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية، فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالانهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث، فيا لتلك الشعوب العمي المعدة للقتل! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية دينا ، ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتيانهم وكهولهم الى انطاكية لكي يباعوا فيها»[٣٩] ويقول الشاعر الفارسي المسلم سعدي وهو يصف الصليبيين بعد زمن: «لا يستحق اولئك أن يسموا بشرا»[٤٠] وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك

---

(٣٥) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ — Doc, Arm , I p. 45 ،

(٣٦) Raymond d'Agiles, p. 300

(٣٧) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٤

(٣٨) غوستاف لوبون : المرجع السابق ص ٣٢٤

(٣٩) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٥

(٤٠) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٦

الخليفة عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون ، ألا يكفي هذا الموقف لاثبات التعصب الاعمى والحقد الشديد عند الصليبيين، ألم يكف ذلك دليلا وبرهانا على أن الحرب الصليبية كانت تنبع من حقد ديني وصليبي للانتقام من المسلمين كافة في كل مكان؟

قال كاهن مدينة لوبوي ريموند داجيل : « حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم وبقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون الى القذف بأنفسهم من أعلى الاسوار ، وحرق بعضهم في النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى اكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمر المرء الا على جثث قتلاهم ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا . . »[41]

ثم ذكر الكاهن ريموند داجيل خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر ، فعرض الوصف الآتي : « لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان ، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك ، وكانت الأيدي والاذرع المبتورة تسبح كأنها تريد ان تتصل بجثث غريبة عنها، فاذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها ، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك الا بمشقة »[42] حدث ذلك لاسباب عديدة منها تقصير المسلمين في فريضة الجهاد ، وعندما آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، وظهرت فيهم الأثرة واختفى الايثار، غلبت الانانية على المصلحة العامة للاسلام والمسلمين . وأما عن الخلافة الفاطمية ، فقد وصلتها الأخبار بوصول الصليبيين الى بيت المقدس ، ولم تفعل شيئا « غير أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب أمر مصر لما بلغه أن الفرنج ضايقوا بيت القدس خرج في عشرين الفا من عساكر مصر وجد في السير ، فوصل الى المقدس يوم ثاني فتحه ولم يعلم بذلك»[43]

---

(٤١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٦
(٤٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٦ - ٣٢٧
(٤٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٤٩ - ١٥٠

المحاولات الصليبية للسيطرة على الممتلكات الفاطمية في فلسطين :

اجتمع زعماء الحملة الصليبية الاولى في القدس لتنظيم فتوحاتهم واتفقوا في ٢٢/ ٧/ ١٠٩٩م / ٤٩٢ هـ على أن يكون جودفري دي بوايون حاكما لمدينة القدس[٤٤] وتم اختيار ارنولف مالكورن بطرقا على بيت المقدس[٤٥]

وبعد أن أتم الصليبيون تنظيم فتوحاتهم في القدس شرعوا في وضع خطة لفتح باقي مدن فلسطين ، ونتيجة لما ارتكب الصليبيون من قتل وحرق للمسلمين كافة في القدس ، فقد عم الرعب في نفوس اهالي المدن والقرى المجاورة مما سهل على الصليبيين مهمة الاستيلاء عليها بدون مقاومة ، فنجد مدينة نابلس ترسل وفدا الى الصليبيين يدعوهم لتسلم المدينة ، وفعلا تسلم تنكرد نابلس في غير صعوبة في اواخر يوليو ١٠٩٩م/٤٩٢هـ(٤٦)ثم وصلت الاخبار للصليبيين بأن حملة فاطمية قدمت من مصر الى ارض فلسطين ، لذلك أسرع تنكرد ومعه فرسانه الى قيسارية ، ومنها ساروا نحو الجنوب على امتداد الشاطىء الفلسطيني حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية ، وتمكن الصليبيون من العثور على بعض الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة قد جاءوا للتعرف على أخبار الصليبيين ، فقبض الصليبيون عليهم ، واعترفوا بان جيشا فاطميا كبيرا بقيادة الوزير الأفضل في طريقه الى عسقلان لا سترداد بيت المقدس . ومن ثم أرسل تنكرد رسالة الى جودفري في القدس يطلب حضوره بقواته لمواجهة الجيش الفاطمي الاسلامي الذي قدم من أجل استرداد بيت المقدس ، ولكن الوزير الأفضل ما أن وصل الى عسقلان حتى أرسل «رسولا الى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه»[٤٧] وبقي في عسقلان مدة طويلة وهو ينتظر الاسطول في البحر والعرب»[٤٨] وكان لهذا الانتظار أسوأ الأثر على المسلمين ، فقد شعر الصليبيون

---

(٤٤) Iorga : Histoire des croisades, p 67

(٤٥) Richard : Le Royaume Latin: p 93

(٤٦) Gesta Francorum p 209;
Guibert Nogent p 304 — 305

(٤٧) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٣ ؛ ابن القلانسي ؛ ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ ،
Gesta Francorum p 209

(٤٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٢٠ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٥٠

بضعف المسلمين فتشجعوا، واجتمعت قواتهم وبادروا المسلمين بالهجوم، ودارت المعركة حول عسقلان في شهر اغسطس ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ ، وحلت الهزيمة بالفاطميين «وانهزم الأفضل، فدخل عسقلان ، ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز، وكان هناك كثيرا، فاحرق الفرنج بعض الشجر، حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه ، وعاد الأفضل في خواصه الى مصر ، ونازل الفرنج عسقلان وضايقوها، فبذل لهم أهلها قطيعة اثنى عشر الف دينار وقيل عشرون ألف دينار ثم عادوا الى القدس»(٤٩) ووصف المؤرخ أبو المحاسن ما جرى على المسلمين في هذه الوقعة بقوله «ولعبت سيوف الفرنج في العسكر والرجال والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عن عشرة آلاف نفس، ومضى الأفضل وقرر الفرنج على أهل البلد عشرين ألف دينار تحمل اليهم، وشرعوا في جبايتها من أهل البلد فاختلف المقدمون فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئا، ثم قال: وحكي انه قتل من أهل عسقلان من شهودها وتجارها واحداثها سوى اجنادها ألفان وسبعمائة نفس»(٥٠) وكان من نتائج هذه الهزيمة الفاطمية أن تجرأ الصليبيون على مهاجمة باقي مدن فلسطين الواحدة بعد الاخرى دون أن تستطيع الدولة الفاطمية ان تفعل شيئا، وانعدم الرجا في أحد لانقاذ الموقف، وانطلقت القوات الصليبية تأخذ ما تريد من البلاد، ومن حولها دول الاسلام لا تفعل شيئا، فأخذ الصليبيون اقليم الجليل ثم هاجموا في ديسمبر ١٠٩٩م/ ٤٩٣ هـ مدينة ارسوف ولكن أهلها دافعوا عنها ولم تستطع القوات الصليبية أخذها. أما جودفري ملك بيت المقدس ، فقد اكتفى بأن ترك في الرملة بضعة مئات من قواته الصليبية لتهديد مدينة أرسوف بين حين وآخر، وشن غارات عدوانية على ضواحيها، وفرض الحصار على مداخلها، وتمكنت هذه القوة الصليبية في شهر فبراير ١١٠٠م/ ٤٩٣هـ من أن تظفر ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمي في مزارعهم القريبة من بلدتهم، فقبض الصليبيون عليهم وانتقموا من هؤلاء المسلمين انتقاما وحشيا «بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم»(٥١) كانت مدينة ارسوف تابعة للدولة الفاطمية، فغضب أهلها لما حل بهم، وارسلوا

---

(٤٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٦ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٥٠

(٥٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٥٠

(٥١) Grousset : Histoire des croisades, I p. 182

سفارة عاجلة الى الوزير الأفضل لطلب المعونة لأن ذلك من واجبات الدولة الفاطمية، فان قصرت في هذا الواجب فليس لها عليهم حكم ، فأرسل الافضل لهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندي، فقويت الروح المعنوية عند اهل أرسوف بوصول تلك القوة عن طريق البحر وشرعوا في القيام بهجوم مضاد ضد الصليبيين، ولكنهم وقعوا في كمين نصبه الصليبيون لهم وذلك في شهر مارس ١١٠٠م/ ٤٩٣هـ ولذلك ضعفت ثقة أهل أرسوف بالدولة الفاطمية، وأدركوا انها عاجزة عن الوفاء بواجبها في الدفاع عنهم ، ورأوا ضرورة الدخول في تبعية الصليبيين حتى يتمكنوا من فلاحة مزارعهم القريبة وذهبت سفارة من أهل أرسوف الى جودفري بوايون ملك بيت المقدس في اواخر شهر مارس ١١٠٠/ ٤٩٣هـ وحملوا اليه مفاتيح أبواب المدينة وقلاعها ، وعرضوا عليه الدخول في تبعيته ودفع جزية مالية رمزا لهذه التبعية[٥٢] أما عن مدينة يافا فان الصليبيين ، عملوا على تحصينها منذ مطلع عام ١١٠٠م/ ٤٩٣هـ وساعدهم على تدعيم تحصينها وتقويتها الاسطول البيزي، وأصبحت يافا تسيطر على شاطىء فلسطين بأكمله، كما فاقت قوتها ميناءي عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية، بل ان يافا اصبحت تهدد الممتلكات الفاطمية خصوصا بعد أن أصبحت مركزا لنشاط تجاري وحربي كبير، بعد أن صارت الميناء الرئيسي لدولة بيت المقدس الصليبية بحيث أصبحت الميناء الذي تقصده السفن التجارية من مختلف انحاء العالم المسيحي وبخاصة من جنوا والبندقية وبيزا وذلك لاحضار ونقل أفواج من الحجاج المسيحيين من ناحية وامداد مملكة بيت المقدس الصليبية بما احتاجت اليه من امدادات عسكرية من ناحية اخرى[٥٣].

ولم يقف التوسع الصليبي عند هذا الحد ، فكلما اطمأن الصليبيون الى ضعف الجبهة الاسلامية شرعوا في الزحف والاستيلاء على مزيد من الاراضي والبلدان الإسلامية، فقد شن الصليبيون من يافا غارات كثيرة على الممتلكات الفاطمية حتى دب اليأس في نفوس أهل المدن الاسلامية في فلسطين بعد أن تأكدوا من ضعف الدولة الفاطمية وعجزها عن حمايتهم ، فلم تمض فترة طويلة على

---

(٥٢) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٢٥ ؛

Albert d'Aix pp. 512 — 515.

(٥٣) Heyd: Histoire des commerce, I, p. 135 — 136; Grousset: Histoire des croisades, I p. 183

صمودهم أمام الغارات الصليبية حتى اعلن حكام عسقلان وقيساريه وعكا تبعيتهم لدولة الصليبيين ، بل دفعوا جزية مشتركة شهرية قدرها خمسة آلاف دينار رمزا لتلك التبعية ، كما تعهد اهالي هذه المدن بتقديم عدد كبير من المواشي والغلال والزيوت والمنتجات الزراعية للصليبيين في مقابل ان يكف الصليبيون عن غاراتهم عليهم وأن يوقفوا أعمال السيف فيهم(٥٤)

وسارع كثير من شيوخ العرب وامرائهم وزعمائهم في الجهات الداخلية الى عقد مثل تلك الاتفاقيات الودية مع الصليبيين لحماية أنفسهم من ناحية وليضمنوا سلامة قوافلهم التجارية من ناحية أخرى . كما تضمنت تلك الاتفاقات امورا تجارية نصت على التبادل التجاري مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، مما أعطى هذه الدولة الصليبية قسطا وافرا من الاستقرار الاقتصادي والثبات السياسي والعسكري في حين فرض على المسلمين الذين خضعوا بموجب الاتفاقات سابقة الذكر عدم السماح لهم بالتعامل التجاري عن طريق البحر ، وحرموا عليهم التعامل التجاري مع بقية العالم الاسلامي ، وساندت الجمهوريات الايطالية صاحبة التفوق البحري في البحر المتوسط عندئذ هذه الخطة الاقتصادية الصليبية بحيث ، قامت الجمهوريات البحرية بدور الوسيط التجاري في الموانىء الصليبية ، ومن ثم حرمت موانىء فلسطين الاسلامية من الحصول على امدادات المؤن وغيرها من موانىء دمياط والاسكندرية مما ادى الى اضعافها ، ثم سقوطها في نهاية الامر دون عناء في أيدي الصليبيين ، وكان الحصار الاقتصادي للشواطىء الفلسطينية شديدا ومحكما لدرجة أن الصليبيين جعلوا في البحر سفنا لمراقبة وحراسة الشاطىء،وأخذت تتصيد كافة المراكب الاسلامية الوافدة من الاسكندرية ودمياط وتونس لتصادرها وتقتل بحارتها ، لأن الحرب الاقتصادية جزء هام في الحرب العسكرية ، وأتبع الصليبيون هذا الأسلوب في الهجوم على منطقة طبريه اي منطقة السواد الواقعة شرقي طبريه ، وكانت تابعة لدقاق ملك دمشق ، فلما هاجموها لمدة اسبوع أنزلوا بها كثيرا من الأضرار في الأرواح والأموال واضطر امير المنطقة أن يطلب النجدة من سيده ملك دمشق فأمده بخمسمائة فارس قاموا بهجوم على جيش الصليبيين وتمكنوا من اطلاق

---

(٥٤) Alber dAix, p. 515.

سراح أسرى المسلمين ، ولكن هؤلاء الفرسان الذين قدموا من دمشق لم يواصلوا الهجوم ، بل توقفوا واكتفوا بهذه الغارة السريعة وانسحبوا عائدين الى دمشق مما مكن القائد الصليبي تنكرد من اجتياح اقليم السواد وتخريبه ، بل تقدم حتى اقترب من دمشق نفسها[٥٥] بل أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان الى دمشق تحمل انذارا الى دقاق يطلبون منه أن يعتنق المسيحية أو أن يترك دمشق فورا ، فغضب دقاق لهذا الانذار وهدد الرسل بالقتل ما لم يعتنقوا الاسلام ، فقبل أحدهم بينما رفض الآخرون فقتلهم ، وعندما علم جودفري وتنكرد بذلك خرجا على رأس جميع قواتهما وهاجما الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق ، واستمرت هذه الغارة قرابة اسبوعين ، ولم يستطع دقاق رد العدوان ، فأدرك أمير السواد عجز سيده دقاق عن حمايته ومن ثم اعترف بالتبعية لتنكرد الصليبي ووافق على دفع جزية له حتى يتجنب غارات الصليبيين على بلاده[٥٦] ويجب أن نشير هنا الى جملة من الحقائق وهي أن الغرب الاوربي كله قد شارك في الحروب الصليبية سواء كان ذلك على مستوى الافراد أم الجماعات والاغنياء والفقراء ، رجال الدين وسادة الاقطاع وارباب الدول ومن مختلف اصحاب الصنائع ، وحقيقة ثانية ان النصارى في الشرق الاسلامي وقفوا في معظم الاحيان الى جانب الصليبيين ، وحقيقة اخرى هي أن الجمهوريات التجارية الايطالية كان لها الدور الكبير في تدعيم الوجود الصليبي في منطقة الشرق الادنى الاسلامي ، ونذكر على سبيل المثال دور البيازنة في الحرب الصليبية الاولى ، فقد شاركوا باسطول مكون من مائة وعشرين سفينة ، وكانوا قبل ذلك قد شاركوا مشاركة فعالة في حرب المسلمين في اسبانيا طوال القرن الحادي عشر الميلادي[٥٧]

ولما أعلن البابا أوربان الثاني مشروعه الصليبي الكبير ، كان دايمبرت رئيس اساقفة بيزا في مقدمة المؤيدين لهذا المشروع وتمكن دايمبرت من اظهار مهارته من قبل عندما قام بدور المندوب البابوي في الحرب الصليبية التي شنها الفونس السادس ملك قشتالة على المسلمين في اسبانيا (الاندلس) ومن ثم فان البابا أوربان الثاني عينه

---

(٥٥) Runciman : History of the crusades, I pp. 310 — 312

(٥٦) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٥٨ ،

Albert d'Aix, pp. 518 — 520

(٥٧) Heyed : Histoire des commerce, vol. I, pp. 121 — 122

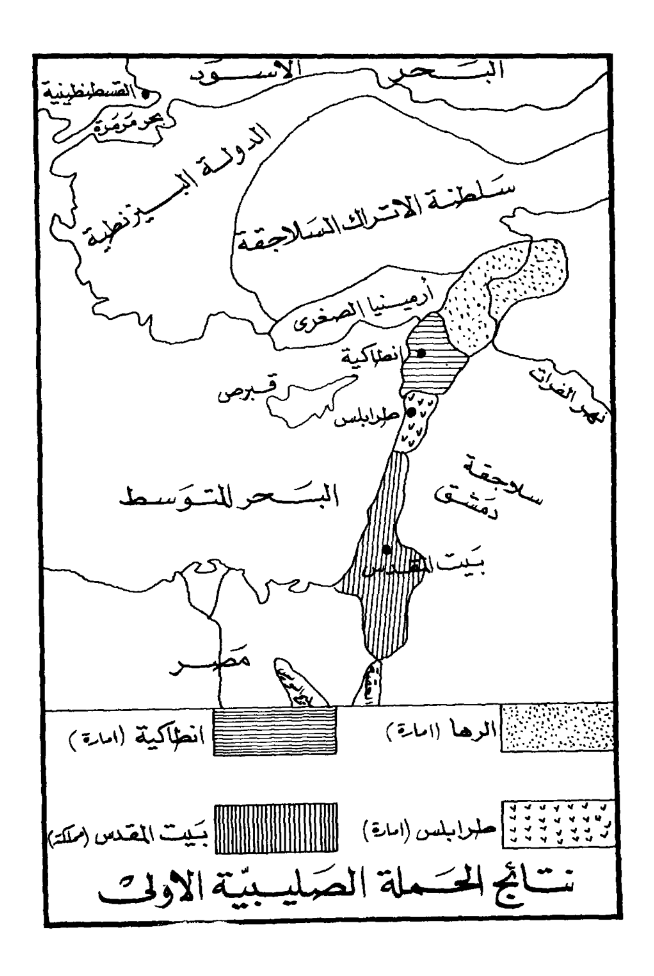
مندوبا بابويا في الاراضي المقدسة بدلا من ادهمار الذي توفي في انطاكيه ، ولهذا خرج دايمبرت على رأس الاسطول البيزي المذكور المكون من مائة وعشرين سفينة في صيف ١٠٩٩ م/ ٤٩٢ هـ متجها نحو بلاد الشام ، وهدفه فتح القدس اولا قبل ان يصلها الصليبيون لتكون له وللبيازنة شرف السبق في تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولكي يحقق للبيازنة الامتيازات دون غيرهم في الاراضي المقدسة ، ولكن الاسطول البيزي وصل الى بلاد الشام متأخرا ، وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس في ١٥/ ٧/ ١٠٩٩م/ ٤٩٢ هـ فتقوى الصليبيون بهذا الاسطول وأصبح دايمبرت بطرقا لبيت المقدس الذي عمل منذ وصوله الى الشام على توحيد جهود الصليبيين والدولة البيزنطية للوقوف في وجه المسلمين وقتالهم والسيطرة على البحر المتوسطوالربط بين الوجود الصليبي بالشام والغرب اللاتيني عن طريق البحر المتوسط[٥٨]

استمرار التوسع الصليبي :

استمرت الجبهة الصليبية في زيادة قوتها وتوسعها في حين لم تفعل القوى الاسلامية شيئا جادا لمواجهة العدوان الصليبي سوى ما قام به المسلمون في المدن الساحلية ، فقد قاموا في خلال السنة ١١٠٠ م/ ٤٩٣ هـ بعدة غارات من أرسوف وعسقلان على مواقع الصليبيين ، بل هاجموا حامية الصليبيين في الرمله واضطرت هذه الحامية الى طلب النجدة من جودفري حاكم بيت المقدس ، فأسرع جودفري بمساعدة البيازنة الى تحصين مدينة يافا في اوائل عام ١١٠٠م/ ٤٩٣ هـ بل كان لوصول اسطول بيزا وتوحيد جهود الصليبيين في انطاكيه والقدس كبير الاثر في دفع امراء ارسوف وعسقلان وقيساريه وعكا الى التقدم الى الصليبيين كما ذكرنا بطلب الصلح مقابل اموال يدفعونها للصليبيين لحقن دمائهم .

ولم يلبث الموقف أن ازداد صعوبة على المسلمين بعد أن وصل الى مدينة يافا في شهر يونيه ١١٠٠ م/ ٤٩٣ هـ اسطول بندقي مكون من مائتي سفينة بهدف المشاركة في الحرب الصليبية ، وتحقيق المكاسب للبندقية كما فعل اهل بيزا من قبل . وقد

(٥٨) Richard Le Royaume Latin de Jerusalem, pp. 92 — 93; Michaud: II p.9; Runciman: I, p. 299-303; Albert d'Aix, pp. 500-501; setton : History of the crusades, vol I , p 377; Grousset: Histoire de·· cr··sades, vol, I p. 193; Fulcher of Chartres, pp 322-332.


البحر الاسود
القسطنطينية
بحر مرمرة
الدولة البيزنطية
سلطنة الاتراك السلاجقة
أرمينيا الصغرى
انطاكية
قبرص
طرابلس
نهر الفرات
سلاجقة دمشق
البحر المتوسط
بيت المقدس
مصر
الرها (امارة)
انطاكية (امارة)
طرابلس (امارة)
بيت المقدس (مملكة)
نتائج الحملة الصليبية الاولى

عرض البنادقة خدماتهم على الصليبيين للمساهمة في حرب المسلمين بشرط أن يكون لهم الثلث في كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها ليتخذوا من هذا الثلث حيا خاصا بهم يباشرون فيه نشاطهم التجاري ، فاذا نجحوا في الاستيلاء على طرابلس كانت المدينة باكملها مستعمرة لهم مع تعهدهم في مقابل ذلك بدفع ضريبة سنوية رمزا للتبعية لدولة بيت المقدس الصليبية ، وفي مقابل هذه الشروط وضع البنادقة أنفسهم وأسطولهم تحت تصرف الصليبيين حتى ١٥/٨/ ١١٠٠م/ ٤٩٣ هـ . فاستغل الصليبيون هذا الاسطول في حصار مدينة عكا من ناحية البحر كما قام دايمبرت بطرق بيت المقدس البيزي وتنكرد بالمساهمة في حصار عكا من ناحية البر ، وبينما الحصار يضايق مدينة عكا وصلت الاخبار للصليبيين بنبأ وفاة جودفري في ١٨/٧/ ١١٠٠م/ ٤٩٣ هـ وعندئذ اقترح دايمبرت وتنكرد على البنادقة ترك حصار عكا وتوجيه الجهود الصليبية لاحتلال مدينة حيفا لأنها أقرب الى بيت المقدس ، واكثر نفعا للصليبيين وكانت حيفا حينئذ تابعة للدولة الفاطمية ، وفعلا سقطت حيفا في أيدي القوات الصليبية في شسهر اغسطس ١١٠٠م/ ٤٩٣ هـ وأصبحت من الموانىء الصليبية الهامة على الشاطىء الفلسطيني(٥٩)

ولم يكتف بلدوين الاول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية الجديد بهذا ، بل وضع خطة استهدفت ضم جميع شراطىء فلسطين المواجهة لمملكة الصليبيين لتحقيق أهداف عسكرية واقتصادية ودينية مما يوفر لمملكته كثيرا من عوامل القوة ، فقد كان يهدف الى تأمين طريق الحجاج المسيحيين من ناحية وتنشيط التجارة مع بلاد الغرب، من ناحية اخرى ، وتسهيل مهمة وصول الامدادات العسكرية من الغرب الاوربي ، ولتحقيق هذا الهدف استعان باسطول جنوي وصل الى حيفا عند منتصف شهر مارس ١١٠١م/ ٤٩٤هـ ومن حيفا تحرك هذا الاسطول الى يافا في منتصف شهر ابريل ١١٠١م/ ٤٩٤ هـ واتفق بلدوين الاول مع الجنوية على أن يقدم الجنويون معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم فضلا عن شارع من شوارع السوق في كل مدينة يستولون عليها ليكون ذلك مركزا يباشرون منه اعمالهم التجارية في المدن الصليبية(٦٠) وبعد هذا الاتفاق قرر الصليبيون الهجوم على

(٥٩) Setton : History of the crusades, vol I p. 380; Grousset: Histoire des croisades, vol, I p. 290

(٦٠) Guillaume de Tyr , p. 419; Runciman; II p. 7

أرسوف ، ذلك الميناء الذي ظل تابعا للدولة الفاطمية حتى هذا الوقت ولم يستطع الصليبيون أخذه من قبل لافتقارهم الى الاسطول البحري الذي يساندهم في الاستيلاء عليه ، وامام الهجوم البري والبحري استسلمت مدينة ارسوف هذه المرة في اواخر ٤٩٤ هـ/ ابريل ١١٠١م[٦١] وشجع هذا النصر بلدوين الاول على مهاجمة قيسارية مستغلا وجود الاسطول الجنوي ، ولعلمه بأن الدولة الفاطمية لم تعترض سبيله ، فحاصرت القوات الصليبية قيساريه برا وبحرا ولم تستطع المقاومة طويلا ، فاستولى عليها الصليبيون عنوة في ١٧/ ٥/ ١١٠١م/ ٤٩٤ هـ وقتل الصليبيون من المسلمين في قيساريه معظم سكان المدينة ، وعندما احتمى بعض الاهالي بجامع قيساريه لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء والاطفال حتى تحول الجامع الى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين ، ولم يكن هذا بالتصرف الغريب عل الصليبيين ، فهذا هو أسلوبهم في المعارك كافة التي خاضوها ضد المسلمين[٦٢]

---

(٦١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩

(٦٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٦٧ ،

Foucher de chartres pp . 389- 390; Albert d'Aix , pp 453- 454.

الفصل الخامس

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ما بين الحملة الصليبية الأولى والثانية

الحملة الفاطمية الاولى ـ الحملة الفاطمية الثانية ١١٠٢م/ ٤٩٥ هـ موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥م/ ٤٩٩ هـ بين الفاطميين والصليبيين. استيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا ـ الاطماع الصليبية في عسقلان وصور ـ استيلاء الصليبيين على انطرطوس وطرابلس ـ سقوط صور في يد الصليبيين ١١٢٤م

الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين
ما بين الحملة الصليبية الأولى والثانية

كان لسقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين في ١٥/ ٧/ ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ اسوأ الأثر على نفوس المؤمنين وانزعج المسلمون في كل مكان لهذا الحادث الاليم ، وهاج العالم الاسلامي نتيجة هذه الكارثة ، ولكن كان لا بد من وجود الأمل ، فقد بدأ التفكير في اسباب ضعف المسلمين وضرورة الأخذ بأيديهم الى الوحدة واعداد القوة ومواجهة العدو ، وكان من الضروري أن يبدأ التقارب أولا بين الخلافتين الفاطمية والعباسية وكان يقع عليهما مسؤولية تناسي عوامل الانقسام الذي كان يفت في عضدهما « واغض سلطان القاهرة عن منافسته لخليفة بغداد فتبادلا السفراء للبحث في عمل ما يجب لتلافي تلك المصيبة »[1] يدفعهم الى هذا التقارب المصلحة العامة للاسلام والمسلمين ومراعاة لشعور عامة المسلمين الذين غضبوا لما حل بالاسلام وأهله ، يقول ابو المحاسن : « ولما تمت هذه الحادثة خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي ، فوصلوا بغداد وحضروا في الديوان ، وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضي في الديوان واورد كلاما أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من يمضي الى العسكر السلطاني ويعرفهم بهذه المصيبة ، فوقع التقاعد لأمر يريده الله »[2] فقال القاضي الهروي هذه الابيات يصف حال المسلمين وما حل بهم :

مَزَجْنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عُرضةٌ للمراجم
وكيف تنام العين ملءَ جفونها ... على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يُضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي او بطون القشاعم .

(١) غوستاف لوبون ؛ حضارة العرب ص ٣٢٧
(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٥٠ ،

وكاد لهنَّ المستجن بطيبة - ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
ارى أمتي لا يشرعون الى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم

ومنها ايضا :

وليتهم اذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
اذ زهدوا في الاجر اذ حمى الوغى فهلا أتوه رغبة في الغنائم

وقال آخر:

أحل الكفر بالاسلام ضيماً يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح وسيف قاطع ودمٌ صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً ومسلمة لها حَرَمٌ سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نُصب الصليب
دمُ الخنزير فيه لهم خَلُوقٌ وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل لطفّل في عوارضه المشيب
أتسبي المسلمات بكل ثغر وعيش المسلمين اذاً يطيب
اما لله والاسلام حق يُدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا اجيبوا الله ويحكم أجيبوا

وقال الشعراء والأدباء المسلمون في هذا المعنى عدة مرات تعبيرا عن الكارثة وخلاصة القول « ان القاضي ورفقته عادوا من بغداد الى الشام بغير نجده ، ولا قوة الا بالله »[٣] اما الدولة الفاطمية فقد شعرت بالحرج أمام المسلمين من ناحية كما خاف الفاطميون على أنفسهم واعتقدوا أن الصليبيين ربما يهاجمون مصر أيضا وفي نفس الوقت كان الرأي العام الاسلامي يطالب حكام المسلمين بالقيام بعمل شيء ضد المعتدين لعلمهم بأن الاسلام ملزم المسلمين بالجهاد وخصوصا أولي الامر الذين بيدهم مسؤولية الحكم والرياسة ، وكان على عامة المسلمين حث هؤلاء من أجل الجهاد ، لأن قعود حكام المسلمين عن الجهاد فيه ضرر على الاسلام والمسلمين ، كما ان طاعة صاحب السلطة مرهونة بقيامه بواجبه الشرعي نحو المسلمين ، وفي مقدمة هذه الواجبات الجهاد ودفع العدو والرسول صلى الله عليه وسلم يقول « أس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة وذروته الجهاد في سبيل الله » فان رفض ولي أمر المسلمين

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ح٥ ص ١٥١ - ١٥٢

الخروج للجهاد اهمالا وتكاسلا لا ضعفا ولا قلة فان ذلك يوجب سحب الثقة منه واستبداله بمن يقوم بهذا الواجب .

وان دعا الحاكم أو السلطان المسلمين الى الجهاد وأبوا الخروج معه وعارضوه فان ذلك يلحق بهم إثما دينيا كبيرا ، كما يلحق بهم البلاء باشكاله المختلفة من الخوف والرعب والجوع والفقر ، لأنهم لم ينفروا في سبل الله ، فيحق عليهم العذاب ثم يستوجب هذا الموقف السلبي من المسلمين أن ينفذ فيهم الله سبحانه وتعالى عقوباته باستبدالهم بأمة أخرى تكون عقابا لهم على ما فرطوا في حق الله والجهاد . ولكن ينبغي الاشارة هنا ان عامة المسلمين باستمرار كانوا يلبون نداء الجهاد ، بل يبحثون عن الجهاد في سبيل الله ويسعون إليه سعيا .

الحملة الفاطمية الاولى :

وإزاء هذا التفكير المشروع ، اضطر الفاطميون الى ضرورة التحرك العسكري لمواجهة الخطر الصليبي والتصدي له ، ولهذا الغرض شكل الأفضل الوزير الفاطمي حملة كبيرة هدفها مهاجمة الصليبيين في فلسطين وجعل على رأسها المملوك سعد الدولة القواسي الذي كان حاكم بيروت من قبل ، وأخذت قوات الفاطميين تتجمع في ربيع ١١٠١م/ ٤٩٥ هـ . في مدينة عسقلان بفلسطين والتي أصبحت القاعدة الفاطمية الهامة التي تنطلق منها القوات الفاطمية لمحاربة الصليبيين في فلسطين ، الا أن القيادة الفاطمية لم تباشر بالقتال فورا مع العدو بل بقيت في عسقلان وقتا طويلا دون أن تفعل شيئا ، ربما كان ذلك بسبب انتظار وصول امدادات جديدة او بهدف استطلاع اخبار العدو واختيار الوقت المناسب لمباغتته أو أنهم كانوا يخشون الدخول في معركة ضد الصليبيين ، في حين ذاك استغل الصليبيون هذا الموقف وتمكن بلدوين الاول ملك بيت المقدس من اتخاذ كافة الاستعدادات ، وجمع قواته ، ووضع خطته لمواجهة الفاطميين خصوصا أنه علم أن هدف الفاطميين القدس ذاتها[٤] .

وقرر الصليبيون مهاجمة المسلمين في حين كانت القوات الفاطمية قد اتجهت الى منطقة الرملة بعد أن وصلتها الامدادات العسكرية وبعد أن شجع بلدوين الاول قواته وحرضهم على قتال المسلمين وذكرهم بأنهم اذا ماتوا فانما يلحقون بالشهداء والقديسين ، واذا انتصروا فانهم بذلك يؤدون للمسيحية خدمة ليس لها مثيل ولا

(٤) انظر : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ص ٣٦٤ ، stevenson, pp 44-45.

يعادلها عمل آخر(٥) فزحف الصليبيون وهم يحملون صليب الصلبوت بقيادة بلدوين الاول ورجال الـدين المسيحي ، والتقى الجمعـان في صباح يوم ٧/ ٩/ ١١٠١م/ ٤٩٤ هـ في السهل الواقع الى الجنوب الغربي من مدينة الرملة « فحملت الفرنج حملة صادقة ، فانهزم المسلمون »(٦) وقتل منهم عدد كبير في حين هرب الباقون تجاه مدينة عسقلان بعد أن قتل قائد الحملة الفاطمية في المعركة « وملك الفرنج خيمه وجميع ما للمسلمين »(٧)

الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ م/ ٤٩٥ هـ .

لم يرض الأفضل الوزير الفاطمي بالهزيمة التي لحقت بجيشه في الرملة على أيدي الصليبيين ، كما ان ثقة المسلمين في مصر بدولته أوشكت ان تنهار ، هذا بالاضافة الى ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين ولهذا قرر الافضل ارسال حملة ثانية ، واجتمعت هذه الحملة التي بلغت عشرين الف رجل في عسقلان وذلك في منتصف شهر مايو ١١٠٢ م/ ٤٩٥ هـ ويقود هده الحملة شرف المعالي ابن الوزير الافضل ، فتقدم من عسقلان الى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد مدينة يافا وبيت المقدس مما جعل الصليبيين يحشدون في يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ثم خرج بلـدوين الاول من بيـت المقدس في ١٧/ ٥/ ١١٠٢ م/ ٤٩٥هـ . متوجها الى الرملة ، فالتقى الجمعان بقرب الرملة « فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد من سلم منهم مغلولين ، فلما رأى شدة الأمر ، وخاف القتل والأسر ألقى نفسه في الحشيش واختفى فيه ، فلما أبعـد المسلمون خرج من الرملة ، وسار شرف المعالي بن الافضل من المعركة ، ونزل على قصر بالرملة ، وبه سبعمائة من اعيان الفرنج ، وفيهم بلدوين ، فخرج متخفيا الى يافا ، وقاتل ابن الافضل من بقي خمسة عشر يوما ، ثم أخذهم فقتل منهم اربعمائة صبراً، وأسر ثلاثمائة الى مصر »(٨) وهكذا سقطت الرملة في يد المسلمين في ١٩/ ٥/ ١١٠٢م/

(٥) Foucher de chartres. p. 392; Albert d'Aix, p. 549; Runciman. II p. 7

(٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٦٤

(٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٦٤ ؛
Albert d'Aix, p. 553; Guillaume de Tyr p 26

(٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٦٤

٤٩٥ هـ وقتل معظم من فيها من فرسان الصليبيين ، وتابعت القوات الفاطمية زحفها بعد الرملة الى يافا وحاصرتها في حين وصل بلدوين الاول الى أرسوف فتقوى به الصليبيون ، وبدأ في تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، وتمكن بلدوين من دخول مدينة يافا عن طريق البحر ووصلته امدادات كثيرة من الصليبيين كما شاءت الصدف أن تصل الى ميناء يافا في أواخر شهر مايو ١١٠٢ م/ ٤٩٥ هـ مائتا سفينة من الغرب تحمل الحجاج الانجليز والجند وتمكنت هذه السفن من دخول ميناء يافا فاشتد بها الصليبيون وارتفعت معنوياتهم وقرروا الانتقام من المسلمين والحاق الهزيمة بهم انتقاما لهزيمتهم في الرملة ، وكان المسلمون بعد انتصارهم في الرملة قد اختلفوا « فقال قوم : نقصد البيت المقدس ونتملكه ، وقال قوم : نقصد يافا ونملكها فبينما هم في هذا الاختلاف ، اذ وصل الى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة البيت المقدس »[٩] فخرج بلدوين الاول بهؤلاء والصليبيين وهاجموا القوات الفاطمية المحاصرة لمدينة يافا ، ونجح الصليبيون في فك الحصار وانزال الهزيمة بالمسلمين الذين اضطروا الى التراجع نحو عسقلان[١٠]

ولما علم الوزير الافضل بما لحق بابنه شرف المعالي أرسل حملتين احداهما برية تحت قيادة المملوك تاج العجم وتألفت من اربعة الاف فارس[١١] وحملة أخرى بحرية بقيادة رجل يقال له القاضي ابن قادوس ، ولكن عدم التعاون بين قائد الحملة البرية وقائد الحملة البحرية جعل الموقف حرجا ، اذ رفض تاج العجم معونة ابن قادوس وقال له « ما يمكنني أن أنزل إليك الا بأمر الافضل ولم يحضر عنده ولا أعانه فأرسل القادوس إلى قاضي عسقلان وشهودها واعيانها ، وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً ، واستدعى تاج العجم ، فلم يأته ولا أرسل رجلاً »[١٢]

وقع هذا الاختلاف في صفوف الجيش الفاطمي في حين طلب بلدوين الاول

---

(٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ؛
Albert d'Aix, p. 595; Michaud: II p. 30 , Runciman : vol, II pp. 79- 80

(١٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٦٥ ؛
Guillaume de Tyr, p 435; Foucher de chantres, p 454 - 405

(١١) ابن الاثيرالكامل ج١٠ ص ٣٦٥

(١٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٣٦٥

النجدة من تنكرد الوصي على انطاكية وكذلك من أمير الرها ، فارسلوا له الامدادات والفرسان والرجال فوصلوا الى يافا في سبتمبر ١١٠٢ م/ ٤٩٥ هـ وعلى رأس هذه النجدة اميرا انطاكية والرها وقويت بهم الروح المعنوية الصليبية بينما طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر » ولهذا الموقف الضعيف من جانب القوى الاسلامية ، كان لا بد للقوى الصليبية من التوسع على حساب الضعفاء ، وكانت الخطوة التالية محاولة بلدوين الاول ملك بيت المقدس تأمين اتصال مملكته بالشاطىء تأمينا ثابتا ، لأن البحر يربطها بالعالم الغربي وتتزود عن طريقه بما تحتاج اليه من امدادات عسكرية وبشرية ، ومن ثم رغب الصليبيون في الاستيلاء على بقية مدن الساحل مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت، وكل هذه الموانىء كانت تابعة للدولة الفاطمية ، وكان من الممكن للفاطميين اذا ارادوا الجهاد الحقيقي ان يكون لهذه الموانىء اثرها البالغ في الحاق الضرر بالوجود الصليبي في المنطقة ولكنهم لم يستغلوا هذه الوسائل واهملوها.[١٣] وتنفيذاً لخطة الصليبيين في التوسع والاستيلاء على موانىء الشاطىء الفلسطيني شرع بلدوين الاول في ربيع ١١٠٣م/ ٤٩٦ هـ في حصار عكا لأول مرة « وضيق عليها وكاد يأخذها ونصب عليها المنجنيقات والأبراج، وكان له في البحر ست عشرة قطعة، فاجتمع المسلمون من سائر السواحل، وأتوا إلى منجنيقاتهم وابراجهم فأحرقوها واحرقوا سفنهم ايضا وكان ذلك نصراً عجيباً أذل الله به الكفار»[١٤] وساعد على تحقيق هذا النصر وجود الاسطول الفاطمي في صور وصيدا، وعندئذ ادرك بلدوين الاول ان الاستيلاء على عكا ليس امرا سهلا وآثر الانسحاب وترك الحصار[١٥] وفي سنة ١١٠٤ م/ ٤٩٨هـ وصل الى اللاذقية اسطول جنوى فقوى عزم الصليبيين على فرض سيادتهم على شواطىء الشام وخصوصا ان هذا الاسطول كان يحمل كثيرا «من التجار والاجناد والحجاج وغير

---

(١٣) Grousset: Histoire des croisades, I p 239

(١٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٤٥

(١٥) Foucher de Chartres p. 406

ذلك» فاستعان ريموند الصنجيلي بهذا الاسطول وهاجم مدينة طرابلس، فلم يروا فيه مطمعا» وتحول الصليبيون الى جبيل وحاصروها وقاتلوها فاضطر أهلها الى طلب الامان فوافقهم الصليبيون على ذلك، ولم يف الصليبيون بتعهداتهم فاعتدوا على أهل جبيل «واخذوا اموالهم واستنقذوها بالعقوبات وانواع العذاب»[١٦] وبعد ان أحرز الصليبيون نجاحا في أخذ جبيل تحركوا بالاسطول الجنوي وهاجموا عكا من جديد في اواخر شهر مايو ١١٠٤م/ ٤٩٧ هـ ، ولكن حاكم عكا زهر الدولة الجيوشي من قبل الدولة الفاطمية قاوم الصليبيين وقاتلهم حتى عجز بسبب شدة الحصار من ناحية البحر والبر ولعلمهم بأن الدولة الفاطمية لم ترسل له نجدة ، فاضطر الى التسليم، ويقول ابو المحاسن : «وفيها نزل بغدوين (بلدوين) صاحب القدس الفرنجي على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركبا فحصروها من جميع الجهات ، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي فقاتل حتى عجز، فطلب الامان له وللمسلمين فلم يعطوه لما علموا (الفرنج) من أهل مصر أنهم لم ينجدوه، ثم أخذوها بالسيف في شهر رمضان»[١٧] وترتب على سقوط عكا أن أصبحت السيادة للصليبيين على شواطىء فلسطين وحرم الاسطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام وسبب ذلك اهمال الخليفة الفاطمي ودولته بحيث تمكن الصليبيون من أخذ موانىء الشام الواحد بعد الآخر والخليفة الآمر الفاطمي «يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد. . وكان فيه تهاون في امر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه . . . ولم ينهض لقتال الفرنج البتة وان كان أرسل مع الاسطول عسكرا فهو كلا شيء. . »[١٨]

موقعة الرملة الثالثة ١١٠٥م/ ٤٩٩هـ . بين الفاطميين والصليبيين :

لم يقتنع الفاطميون بضعفهم أمام الصليبيين ، وحاول الوزير الافضل الانتقام من الصليبيين رغم انتصار قواته في الحملة الثانية ، ولهذا فانه في صيف ١١٠٥م/ ٤٩٩ هـ جمع جيشا كبيرا بلغ خمسة الاف جندي من المصريين والسودان

(١٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ ؛
Heyed : Histoire des commerce I p. 139; Runciman : II p. 60

(١٧) ابن لاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٨٨ ثم انظر
Albert d'Aix : pp. 606 - 607

(١٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٧٨

والعرب واقامهم في عسقلان تحت قيادة ابنه سناء الملك حسين ، كما رأى الوزير الافضل ضرورة اجتماع المسلمين على قتال الصليبيين ، فأرسل « الى طغتكين أتابك بدمشق يطلبون منه عسكـرا فأرسل اليهـم أصبهبذ صباوه ومعـه ألف وثلاثمائة فارس[١٩] » ولما علم بلدوين الاول ملك بيت المقدس بخطة المسلمين واصرارهـم على قتاله خرج من يافا وسار بقواته الى ناحية الرمله حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من جهة وبيت المقدس من جهة أخرى ، وأصبح لديه عدد كبير من القوات كما انضم اليه أرتاش (بكتاش) ابن تاج الدولة تتش الكبير المطالب بملك دمشق ورافق هذا الأمير بلدوين الأول ومعه مائة من رجاله وساعده ضد المسلمين من أجل حصوله على مساندة الصليبيين للوصول الى السلاجقة في دمشق ، وجرى القتال بين المسلمين والصليبيين في شهر اغسطس ١١٠٥ م/ ٤٩٩ هـ في مكـان بين عسقلان ويافا « فلم تظهر احدى الطائفتين على الأخرى ،فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم ، وقتل جمال الملك أمير عسقلان »[٢٠] ومن سوء حظ المسلمين في هذه الموقعة أن الاسطول الفاطمي لم يكن له دور في هذه المعركة ، بل تعرض اثناء عودته إلى مصر لعاصفة شديدة قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه الى الموانىء الصليبية ، فأخذوها غنيمة بدون قتال »[٢١]

وكان من نتائج هذه الهزيمة أن يئس الفاطميون من حرب الصليبيين ، واقتصر نشاطهم الحربي ضد الصليبيين على التهديـد والغـارات البسيـطة التي تنطلـق من عسقلان ، ومن هذه الغارات هجوم القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ م/ ٥٠٠ هـ على قافلة حجاج صليبية بين يافا وارسوف كما هاجموا سنة ١١٠٧م/ ٥٠١ هـ الخليل ، وفي سنة ١١١٠ م/ ٥٠٤ هـ تقدم الفاطميون في هجماتهم السريعة حتى وصلوا الى أسوار مدينة بيت المقدس[٢٢]

استيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا :

وما لـم يجد العدو الصليبي من يردعه ويجاهـد ضده فإنه يستمر في مطامعـه

(١٩) ابن الاثير : الكامل ح١٠ ص ٣٩٤

(٢٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ؛ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ ـ ١٤٩

(٢١) Foucher de chartres p. 414

(٢٢) Runciman : History of the crusades, vol II pp 90— 91

وعدوانه ولهذا بدأ بلدوين الأول ملك بيت المقدس في سنة ١١٠٦ م/ ٥٠٠ هـ في مهاجمة صيدا ، ولكن حاكمها أسرع بارسال مبلغ كبير من المال الى بلدوين الاول من أجل مسالمته ، وقبل بلدوين الاول ذلك العرض وأجل احتلال صيدا مدة عامين آخرين ، فما أن جاءت سنة ١١٠٨ م/ ٥٠٢ هـ حتى جدد بلدوين عزمه على أخذ صيدا وشجعه على ذلك وصول اساطيل من الغرب ، فقد وصلت سفن من بيزا وجنوا والبندقية وأمالفي فأراد بلدوين أن يستغل تلك القوة في الاستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلا في حصارها براً وبحراً ولكن الاسطول الفاطمي وصل فجأة الى صيدا ، فتغير الموقف ، وأنزل هزيمة بالاساطيل الايطالية والصليبية ، وكان ذلك في الوقت الذي بدأ فيه حاكم صيدا يطلب النجدة من طغتكين صاحب دمشق ، فلبى طغتكين النداء وأرسل نجدة كبيرة ، ولهذا أدرك بلدوين الأول صعوبة الموقف فآثر الانسحاب[٢٣] وتحول الصليبيون من صيدا الى طرابلس في عام ١١٠٩ / ٥٠٣ هـ وتمكنوا من أخذها في ١٢/ ٧/ ١١٠٩م/ ٥٠٣ هـ وساعدهم في ذلك اساطيل بيزا وجنوا والبندقية[٢٤]

أما استيلاء الصليبيين على بيروت، فقد اجتمعت عليها الاساطيل الصليبية من جهة البحر في حين حاصرتها القوات برا ، وقد استمر الحصار عدة أشهر من فبراير حتى مايو ١١١٠م/ ٥٠٣ هـ ، ولم يستطع الاسطول الفاطمي خلال تلك المدة ارسال امداداته الى بيروت عن طريق البحر ، فاضطر حاكمها الى الهرب في سفينته ليلا الى قبرص ، فلم يجد أهل بيروت بدا من التسليم لبلدوين الاول بعد أن أعطاهم الأمان[٢٥] وعلى الرغم من هذا الامان ، فان فرسان الجنويه والبيازنه اخذوا في قتل المسلمين وأحدثوا مذبحة رهيبة في أهل بيروت حتى صعب على بلدوين الاول ضبط الأمن فيها الا بصعوبة بالغة[٢٦] ولم يلبث أن وصل من الغرب الاوربي اسطول صليبي الى عكا فاستغله بلدوين في مهاجمة صيدا من جديد ،

---

(٢٣) Albert d'Aix. pp. 632—634; Grousset : Histoires des croisades, I p. 253

(٢٤) سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج٢ صدقة ١٤٦ (مخطوط)
Michaud: I p. 40-44; Hodgson; Early History of Venice, p. 242

(٢٥) Foucher de Chartres p. 561; Albert d'Aix p. 671.

(٢٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ - ١٦٨

وبينما الاسطول الصليبي يحاصرها من ناحية البحر وبلدوين من ناحية البر في شهر اكتوبر ١١١٠م/ ربيع الآخر ٥٠٤ هـ وصل الى صيدا اسطول كبير من البندقية تحت قيادة دوق البندقية (حاكمها) فاشترك هذا الاسطول مع الصليبيين في حصار مدينة صيدا « وكان الاسطول المصري مقيما على صور ، فلم يقدر على انجاد صيدا ، فعمل الفرنج برجا من الخشب ، وأحكموه ، وجعلوا عليه ما يمنع النار عنه والحجاره وزحفوا به ، فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم واشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت ، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها الى الفرنج ، وطلبوا من ملكهم الأمان فامنهم على أنفسهم ، وأموالهم والعسكر الذي عندهم ، ومن أراد المقام بها عندهم أمنّوه ، ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه ، وحلف لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعة كثيرة من أعيان أهل البلد ، في العشرين من جمادى الاولى الى دمشق ، وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما »[٢٧] ولكن بلدوين الاول قرر « على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار ، فأفقرهم واستغرق أموالهم »[٢٨]

الاطماع الصليبية في عسقلان وصور :

كانت عسقلان من أهم القواعد الفاطمية في فلسطين ، وكان الخليفة الأمر بأحكام الله استعمل عليها انسانا يعرف بشمس الخلافة ، أرسل الى بلدوين الاول ملك الصليبيين « بالشام وهادنه وأهدى اليه مالا وعروضا »[٢٩] وطلب منه عقد معاهدة دفاعية بين الطرفين مع استعداده لدفع جزية مالية للصليبيين وعارضه المسلمون في عسقلان في هذا الموقف ، فعرف شمس الخلافة ان موقفه أصبح حرجا ، فاخرج العسكر المصري « وجاهر بالعصيان ، وأخرج من كان عنده من عسكر مصر خوفا منهم »[٣٠] ولكن الوزير الافضل الفاطمي لم يرغب في اظهار غضبه على شمس الخلافة لأنه « خاف أن يسلم عسقلان الى الفرنج ، فأرسل اليه

---

(٢٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠
Guillaume de Tyr p. 478; Heyed, Histoire des commerce, vol I p. 142

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٠
Heyed: Histoire des commerce, vol I p. 142

(٢٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٠
(٣٠) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٨٠ ـ ٤٨١

وطيب قلبه وسكنه وأقره على عمله وأعاد اليه اقطاعه بمصر »[٣١] ولكن شمس الخلافة خاف على نفسه من أهل عسقلان الذين اتهموه بالخيانة « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جندا »[٣٢] فانكر أهل عسقلان عليه هذا الفعل ، فثاروا عليه وقتلوه ونهبوا داره كما قتلوا عددا كبيرا ممن بالمدينة من الفرنج وذلك في شهر يوليه ١١١١م/ ٥٠٥ هـ . وفي الحال أرسلوا الى مصر بحقيقة ما جرى ، فأرسل الافضل حامية قوية أعادت الأمور الى نصابها وزال ما كانوا يخافونه[٣٣] فلما علم بلدوين الاول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بما جرى على حليفه شمس الخلافة ، أسرع الى عسقلان ولكنه وصل متأخرا بعد أن استتب الحال بها للفاطميين ، فرجع من حيث أتى « وبذلك قدر لعسقلان ان تظل اربعين سنة أخرى شوكة في حلق الصليبيين »[٣٤]

أما مدينة صور ، فقد كانت ذات موقع هام ، واهتم بها الفاطميون وزودوها بالامدادات التي مكنتها من التصدي للصليبيين فترة من الزمن ولكن كثرة المحاولات الصليبية لاحتلال صور جعل أهل المدينة يشعرون بالحرج أمام كثرة الغارات الصليبية وتباطؤ الدولة الفاطمية عن نجدتهم في كثير من الحالات ، ولذلك طلبوا من طغتكين صاحب دمشق حمايتهم ، وفعلا أرسل أهل صور الى طغتكين رسولا يطلب منه أن يرسل اليهم أميرا من عنده يتولاهم ويحميهم وهم يعلنون بذلك تبعيتهم له ومن جملة ما قالوا لطغتكين « والا سلمنا البلد الى الفرنج » ولكن طغتكين أدرك حقيقة الموقف وشعر بواجبه نحو المسلمين ،فأجابهم وعين عليهم واليا اسمه مسعود وفرق عليهم المؤن والاموال « فطابت نفوس أهل البلد »[٣٥]

وتم الاتفاق ايضا بين طغتكين صاحب دمشق وبين أهل صور على أن يقوم الطرف الأخير بارسال ما لديهم من ثروات واموال يخشون عليها الى دمشق حيث تحفظ امانة لاصحابها ، وذلك خشية أن يحتل الصليبيون المدينة فيأخذوا ما بها من ثروات واموال قد يتقوى بها العدو على قتال المسلمين في حين يضعف المسلمون

---

(٣١) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٨١

(٣٢) ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٤٨١

(٣٣) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٨١

(٣٤) Runciman : vol, II p. 95.

(٣٥) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٦٢٠

نتيجة لما قد يضيع منهم ، ولما علم بلدوين الاول ملك القدس الصليبي بهذه الاتفاقية غضب وراقب حركة القافلة التي تحمل ثروة أهل صور الى دمشق وهاجمتها القوات الصليبية ، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة(٣٦) ثم هاجموا مدينة صور في ٢٥/ ٥/ ٥٠٥ هـ/ ١١١١م وأنشأ الصليبيون ثلاثة أبراج من الخشب بالقرب من صور لمهاجمة المدينة منها « علو البرج سبعون ذراعا ، في كل برج الف رجل ونصبوا عليها المجانيق والصقوا أحدها الى سور البلد وأخلوه من الرجال »(٣٧) وكان نائب الخليفة الفاطمي في صور عز الملك الأعز لما شعر بحرج الموقف انزعج « فأحضر أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الابراج عنهم ، فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه احراقها وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام ، ومع كل رجل منهم حزمة حطب ، فقاتلوا الفرنج الى أن وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة ، فألقى الحطب من جهاته وألقى فيه النار ، ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذي في البرج باطفاء النار ويتخلصوا ، فرماهم بجرب كان قد أعدها مملوءه من العذرة ، فلما سقطت عليهم اشتغلوا بهاوبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث ، فتمكنت النار منه ، فهلك كل من به الا القليل ، وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب ، ثم أخذ سلال العنب الكبار وترك فيها الحطب الذي قد سقاه بالنفطوالزفت والكتان والكبريت ورماهم بسبعين سلة . واحرق البرجين الآخرين(٣٨) وقد استخدم المسلمون في صور في جهادهم ضد العدو كل ما يمكن الاستفادة منه وكان أهل صور قد « حفروا سراديب تحت الارض ليسقطفيها الفرنج اذا زحفوا اليها ،وليخسف برج أن عملوه ، وسيروه اليهم ، فاستأمن نفر من المسلمين الى الفرنج وأعلموهم بما عملوه ، فحذروا منها »(٣٩)

وطلب أهل صور من طغتكين صاحب دمشق المعونة والنجدة وطلبوه ليسلموا اليه صور « فسار في عساكره الى نواحي بانياس وسير اليهم نجدة مائتي فارس ، فدخلوا البلد ، فامتنع من فيه بهم واشتد قتال الفرنج خوفا من اتصال النجدات ،

---

(٣٦) Albert d'Aix ,p 690

(٣٧) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٨٨

(٣٨) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩

(٣٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٩

فغني نشاب الاتراك (الـذين أرسلهـم طغتكين) فقاتلـوا بالخشب ، وفنى النفط فظفروا بسرب تحت الارض فيه نفطلا يعلم من خزنه »[٤٠] وأرسل عز الملك الاعز ثانيا الى طغتكين يطلب حضوره وارسال النجدات لانقاذ صور من خطر الصليبيين وأن يتسلم مفاتيح المدينة ، ولم يهمل طغتكين هذا الواجب « فكان طغتكين يغير على اعمال الفرنج من جميع جهاتهـا ، وقصد حصن الحبيش في السواد من اعمال دمشق ، وهو للفرنج فحصره وملكه بالسيف ، وقتل كل من فيه »[٤١] ثم سار الى صور حيث تسلم البلد وقال لأهلها « أنا ما فعلت الا لله تعالى لا رغبة في حصن ومال ، ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي »[٤٢] ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه الى صور بينما أخذ طغتكين يواصل هجماته على الصليبيين « فسار الى صيدا وأغار على ظاهرها ، فقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركبا على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر والفرنج يلازمون قتالهم ،وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة »[٤٣] وأمام شجاعة المجاهـدين في صور ، أدرك بلدوين الاول الصليبي عدم جدوى القتال فانصرف عنها واخذ يهاجم ممتلكات اتابك دمشق طغتكين ليرغمه على ترك مساعدة أهل صور ، ثم أخذ يهدد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة .

استيلاء الصليبيين على انطرطوس وطرابلس :

كانت انطرطوس تابعة لبني عمار امراء طرابلس حتى استولى عليها الصليبيون بقيادة ريموند ما بين سنتي ١٠٩٩ - ١١٠٠م/ ٤٩٣ - ٤٩٤ هـ ، ولـكن بني عمار استردوها من الصليبيين مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليهـا من جديـد ، فحاصرها وساعده في ذلك اسطول بحري جنوي ، فسقطت المدينة في يد ريموند في فبراير ١١٠٢م/ ٤٩٥ هـ واتخذها قاعدة لاعماله الحربية من أجل التوسع في ساحل الشام وخصوصا في احتلال طرابلس[٤٤] ولذلك اضطر فخر الملك صاحب طرابلس

(٤٠) ابن الاثير المصدر السابق ج١٠ ص ٤٨٩

(٤١) ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٤٩٠

(٤٢) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٣٠٤

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٩٠

(٤٤) Albert d'Aix : p 583; Heyd: Histoire de commerce , part. I p. 139; Archer p 156

الى طلب معونة المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي فاستنجد بملك دمشق دقاق من ناحية وبأمير حمص جناح الدولة من ناحية أخرى ، واستجاب ملك دمشق فارسل الى طرابلس الفي فارس في حين أرسل صاحب حمص قوة أخرى ، واجتمعت هذه القوات مع جيش ابن عمار عند اسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد الصليبيين ، وتفوق الصليبيون على المسلمين ، وقتل من المسلمين عدد كبير في حين ارتد الباقون داخل اسوار طرابلس فتشجع ريموند الذي قدم لمساعدة الصليبيين ، وبالرغم من ذلك كان يخشى من قوة طرابلس وحصانتها فقبل ما عرضه عليه صاحب طرابلس من جزية مالية وبعض الخيول وانسحب الى انطرطوس وذلك في شهر ابريل ١١٠٢ م/ ٤٩٥هـ .(٤٥)

تفرغ ريموند لمهاجمة امارة حمص ، فخرج في ربيع ١١٠٢ م/ ٤٩٥ هـ لغزو سهل البقاع ، وهاجم حصن الاكراد الذي يشرف بموقعه على كل الاقليم بين انطرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى ، وكان ريموند قد استولى على هذا الحصن سنة ١٠٩٩ م/ ٤٩٣ هـ ولكن أمير حمص عاد فاسترده ، فلما سمع جناح الدولة صاحب حمص بأن ريموند عاد يهدد حصن الاكراد سنة ١١٠٢ م/ ٤٩٥ هـ اخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عن الحصن ، ولكن من حسن حظ ريموند ان جناح الدولة صاحب حمص قتل على أيدى ثلاثة من الباطنية في جامع حمص الكبير اثناء تأديته الصلاة ١١٠٢/ ٤٩٥ هـ(٤٦) ولما سمع ريموند بمقتل صاحب حمص ، اسرع الى حمص ذاتها يريد الاستيلاء عليها للاستفادة من حالة الاضطراب فيها ، فوصلها في اليوم الثاني لمقتل صاحب حمص « ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها »(٤٧) فاضطر أهل حمص الى طلب المساعدة من دقاق ملك دمشق ، فآثر ريموند الانسحاب وقبول الجزية المالية وانصرف في حين وضع دقاق ملك دمشق يده على حمص وأناب عنه في حكمها اتابكة طغتكين ، وهاجم ريموند جبيل سنة ١١٠٤م/ ٤٩٨ هـ وأخذها بمعاونة الجنوية الذين استخدموا أبشع الأساليب في اهانة المسلمين وقتلهم وأخذ أموالهم(٤٨)

---

(٤٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٤٤
(٤٦) ابن الاثير ج١٠ ص ٣٤٥
(٤٧) ابن الاثير : المصدر السابق ص ٣٤٥
(٤٨) ابن الاثير المصدر السابق ج ١٠ ص ٣٧٢ - ٣٧٣

مات ريموند الصنجيلي قبل أن يحقق هدفه في الاستيلاء على طرابلس في فبراير ١١٠٥ م/ ٤٩٨ هـ في حين حل محله في حكم املاكه في الشرق ابن خالته وليم جوردان الذي أخذ يتابع سياسة ريموند التي تهدف الى الاستيلاء على طرابلس ، واستمر في أحكام الحصار البري حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل من جهة أخرى ، فوجد ابن عمار صاحب طرابلس نفسه في حاجة الى معونة عاجلة من المسلمين لمقاومة هذا الحصار ، بعد أن ساءت احوال طرابلس وارتفعت بها الأسعار ، وافتقر الأغنياء ، ولهذا طلب المعونة من سكمان بن أرتق التركماني صاحب حصن كيفا في ديار بكر ، وتحرك سكمان بقواته نحو طرابلس « ولكن لسوء حظ المسلمين أنه مات في الطريق ، وفقد صاحب طرابلس الامل في وصول اية معونة من الخارج[٤٩] « وكانت طرابلس من أعظم بلاد الاسلام وأكثرها تجملا وثروة ، فباع أهلها من الحلي والأواني الغربية مالا حد عليه حتى بيع كل مائة درهم نقره بدينار »[٥٠] وذلك لشراء ما يلزمهم من طعام « وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفاء ، فلما قلت الاموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد ، ومع ذلك فقد استمرت طرابلس تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة وصبر ابن عمار وشدة عزمة وشجاعة أهل طرابلس واصرارهم على الجهاد ضد عدوهم ورفض الاستسلام ، وازاء اصرار الصليبيين على حصار طرابلس سار القاضي فخر الملك ابو علي بن عمار صاحب طرابلس الى بغداد« قاصدا باب السلطان محمد ، مستنفراً على الفرنج ، طالبا تسيير العساكر لازاحتهم »[٥١] وترك فخر الملك في طرابلس ابن عمه ذا المناقب بن عمار ودفع مرتبات الجند ستة أشهر مقبلة ، وكان زعيما العالم الاسلامي في المشرق في ذلك الوقت خليفة بغداد المستظهر العباسي (٤٨٧ - ٤٩٤ هـ/ ١٠٩٤م - ١١١٠م) والسلطان محمد السلجوقي (٤٩٨ - ٥١١هـ/ ١١٠٤ - ١١١٧م) وعلى الرغم من استقبالهما لابن عمار والترحيب به فانهما لم يفعلا شيئا جديا من أجل مجاهدة الصليبيين ، وعاد ابن عمار دون أن « يظفر منهما بشيء من المعونة المنشودة »ووصل في طريقه الى دمشق في منتصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ

---

(٤٩) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٣٩٠ ، ٤١٢

(٥٠) ابن الاثير المصدر السابق ص ٤١٣

(٥١) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٥٢

هـ فأقام بها اياما وتوجه منها مع عسكر من دمشق الى جبله ، فدخلها واطاعه أهلها في حين أن أهل طرابلس أرسلوا الى الوزير الأفضل الجمالي الفاطمي « يلتمسون منه واليا يكون عندهم ومعه الميرة في البحر ، فسير اليهم شرف الدولة بن أبي الطيب واليا ، ومعه الغلة وغيرها مما تحتاج اليه البلاد في الحصار ، فلما صار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واصحابه ، وأخذ ما وجده من ذخائره وآلاته وغير ذلك ، وحمل الجميع الى مصر في البحر »[٥٢] وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بن عمار وآلت الى الفاطميين وبقي ابن عمار في جبلة ، تلك القلعة الصغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب . ولكن الدولة الفاطمية لم تكن جادة في أمر الجهاد ضد الصليبيين حتى الآن ويقول ابو المحاسن عن عدم اكتراث الفاطميين بالفرنج من كل وجه : « الاول ، من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة والثاني لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر : ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال . والثالث : لم لا خرج (كذا !!) الوزير الافضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية ، كما كان فعل والده بدر الجمالي في اوائل الأمر ، هذا مع قوتهم من العساكر والاموال والاسلحة »[٥٣] جرى هذا في حين التقى زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق في قلعة صنجيل امام طرابلس ، واستطاع بلدوين الاول تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، ووجه الصليبيون جهودهم مجتمعة ضد طرابلس التي ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة ، وأمام التعاون الصليبي ووصول الاسطول الجنوي الذي أحكم حصارها من ناحية البحر ، ساءت احوال أهل طرابلس « وسقط في أيديهم وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفا تأخر الاسطول المصري عليهم بالميرة والنجدة »[٥٤] ووصل الاسطول الفاطمي الى مياه طرابلس نفسها بعد أن فات الاوان فقد أخذها الصليبيون في « يوم الاثنين حادي عشر ذي الحجة » ٥٠٣ هـ الموافق ١٢/ ٧/ ١١٠٩م[٥٥] وأما الفاطميون « فعادوا كما هم الى مصر »[٥٦]

---

(٥٢) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ ، ابن الاقلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥

(٥٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ح٥ ص ١٧٩ ـ ١٨٠

(٥٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٧٥

(٥٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٧٦ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٨٠

(٥٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ١٨٠

وأساء الصليبيون الى أهل طرابلس « وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات وأخذت دفائنهم وذخائرهم في مكامنهم »[٥٧] وتكونت من طرابلس والمناطق التابعة لها امارة طرابلس الصليبية التي لا تقل عن امارات الرها وانطاكية في اهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيلي مؤسس الامارة ، والذي ارتبط بعلاقات وثيقة بملك بيت المقدس مما زاد في قوة الجانب الصليبي[٥٨] وتابع العدو الصليبي الهجوم على ما تبقى من المعاقل الاسلامية على الساحل الشامي فاحتل تنكرد مدينة بانياس بعد مقاومة ضعيفة وهاجم مدينة جبيل « وفيها فخر الملك ابن عمار ، الذي كان صاحب طرابلس ، وكان القوت فيها قليلا ، فقاتلها الى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة بالأمان وخرج فخر الملك بن عمار سالما »[٥٩] ووصل الى شيزر ثم سار الى دمشق حيث اكرمه طغتكين « واقطعه الزبداني واعماله »[٦٠] وانضمت جبيل وبانياس الى امارة انطاكية الصليبية ،ووحد الصليبيون جهودهم في الامارات الصليبية الاربعة (الرها - انطاكية - القدس - طرابلس) ضد المسلمين ولتأمين بقاء الوجود الصليبي في بلاد الشام في حين بقي الفاطميون في موقف الضعف والاهمال لامر الجهاد .

سقوط صور في يد الصليبيين ١١٢٤ م :

بعد أن وقع الملك بلدوين الثاني في أسر المسلمين في سبتمبر ١١٢٣م/ ٥١٧هـ تشجع الفاطميون على مهاجمة الامارات الصليبية ، ففي شهر مايو ١١٢٣ م حشد الفاطميون لهذا الغرض حملة كبيرة في عسقلان اتجهت لحصار مدينة يافا في حين قام الاسطول الفاطمي بحصارها من ناحية البحر وكادت تسقط مدينة يافا في يد الفاطميين لولا وصول نجدة صليبية ، أتت لانقاذها ، واضطر الاسطول الفاطمي الى الانسحاب ناحية يبنا في الجنوب على الطريق بين يافا وعسقلان[٦١] ونشبت معركة بين الفاطميين والصليبيين في سنة ٥١٧ هـ/ الموافق ٢٩/ ٥/ ١١٢٣ م عند يبنا ، هزم

---

(٥٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٧٦

(٥٨) انظر : Runciman: vol, I p. 69; Albert d'Aix, p. 669; Foucher de chartres, p470.

(٥٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٧٦

(٦٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥

(٦١) Setton : History of the crusades vol I p. 421; Foucher de chartres pp 450- 451.

فيها الفاطميون وولوا الادبار فلاحقهم الصليبيـو ن يقتلـون ويأسرون وينهبون ما تصل اليه أيديهم ، وشجع هذا الموقف الصليبيين ، على مهـاجمة مدينة صور التي تعرضت في كثير من الاحيان لهجمات الصليبيين مما اضطر أهلها الى طلـب معـونة أتابك دمشق طغتـكين وذلك في سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م ، فأرسل اليهم احد رجاله واسمه مسعود ، وبقيت صور بالرغم من هذا الوضع تابعة للخلافة الفاطمية اذ ظل الدعاء للخليفة الفاطمي في المساجد كما استمرت النقود تضرب باسمه الا أن أهل صور شكوا الى الخليفة الفاطمي من سوء سيرة مسعود «وما يعتمده مع الرعية من الاضرار لهم والمخالفة للعادة » ولذلك أرسل الخليفة الفاطمي اسطولا الى صور سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢م بهدف عزل الحاكم مسعود « فقبض عليـه واحضره الى القاهـرة حيث أكرم وأنزل في دار واطلع له ما يحتاج اليه » ويقول ابن الأثير « ولما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوى طمعهم فيها ، وحدثوا نفوسهم بملكها ، وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها فسمع الوالي بها للمصريين الخبر ، فعلم أنه لا قوة له ، ولا طاقة على دفع الفرنج عنها ، لقلة من بها من الجند والميرة ، فأرسل الى الآمر بذلك فرأى ان يرد ولاية صور الى طغتكين صاحب دمشق ، فأرسل اليه بذلك ، فملك صور ورتب بها من الجند وغيرهـم ما ظن فيـه كفايـة »[٦٣] وكـان الصليبيون قد طلبوا في سنة ١١١٩م/ ٥١٣ هـ المعونة والنجدة من دولة البندقية ضد المسلمين ، وكان البابا في روما قد أيد طلب بلدوين الثاني ملك بيت المقدس لهذه المعونة ، وحث البندقية على المساهمة في مساعدة الصليبيين مما جعلها تقوم باعداد اسطول كبير مكون من ثلثمائة سفينة حربية تحمل خمسة عشر الف جندي ، ولكن هذه الحملة لم تتحرك الى الشرق الا بعد ثلاث سنوات من اعدادها ، وكان ذلك في صيف ١١٢٢ م/ ٥١٦ هـ ، وسبب ذلك التأخير ان البندقية اضطرت الى توجيه الاسطول ضد الدولة البيزنطية مما أعاقها عن الوصول الى الشرق في حين وقع الملك بلـدوين الثاني الصليبي في أسر المسلمين سنة ١١٢٣م/ ٥١٧ هـ ، فأرسل الصليبيون من جديد الى البندقية يخبرونها بالكارثة التي حلت بهم ويرجون سرعة ارسال المعونة للصليبيين في الشرق ، وعندئذ رفـع البنادقة حصارهـم عن جزيـرة

(٦٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١
(٦٣) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٢١

كورفو البيزنطية سنة ١١٢٣ م/ ٥١٧ هـ وتحركوا نحو ساحل الشام حيث وصلوا الى عكا . وكان أول ما فعلوه هو ارسال جزء من اسطولهم الى عسقلان في الجنوب استطاع تدمير الاسطول الفاطمي حتى انتشر دم القتلى على مساحات واسعة من ميدان المعركة في مياه البحر ، وتابع الاسطول البندقي تقدمه نحو الجنوب حتى وصل الى شاطىء العريش في مايو ١١٢٣م/ ربيع اول ٥١٧ هـ ، كما تمكنوا في طريق عودتهم الى عكا من أسر اسطول تجاري اسلامي مكون من عشر سفن محملة بالبضائع(٦٤)

وبعد ان نجح البنادقة في الحاق الهزيمة بالاسطول الفاطمي في البحر المتوسط وتأكدوا من ضعف الدولة الفاطمية ، تعهدوا بمساعدة الفرنج في فتح باقي مدن الساحل ، ووقع الخلاف بين الصليبيين (اللاتين) حول خطة الهجوم ، هل تكون نقطة البداية مدينة عسقلان الواقعة في الجنوب أو تكون البداية مدينة صور الواقعة في الشمال ؟ وهما من البلاد التي تتبع الدولة الفاطمية ، غير أن البنادقة أيدوا الرأي القائل بالهجوم اولا على صور ، وذلك لأن ميناء صور هو الأفضل على امتداد الساحل ويفوق في مركزه التجاري ميناء عسقلان بماله من مجرى مائي مفتوح تجتازه السفن الى الشاطىء ، كما انه الميناء الذي ترد اليه خيرات بلاد دمشق ، وابرم البنادقة اتفاقا مع الصليبيين قبل الهجوم على صور استغرقت المفاوضات بين الجانبين لعقد هذا الاتفاق طوال فصل الخريف وفي اوائل ١١٢٤م/ محرم ٥١٨هـ ثم توقيع المعاهدة في عكا بين ممثلين عن جمهورية البندقية من جهة وبين ممثلين عن المملكة الصليبية من جهة أخرى ، وبعد أن تم هذا الاتفاق تحركت القوات الصليبية من ناحية البر في حين سار الاسطول البندقي من ناحية البحر ، وحاصروا مدينة صور أشد حصار وأهلها يلازمون القتال « فقلت الأقوات وسئم من بها القتال ، وضعفت نفوسهم ، وسار طغتكين الى بانياس ليقرب منهم ويذب عن البلد ، ولعل الفرنج اذا رأوا قربه منهم رحلوا ، فلم يتحركوا ، ولزموا الحصار ، فأرسل طغتكين الى مصر يستنجدهم فلم ينجدوه ، وتمادت الايام ، وأشرف أهلها على الهلاك ، فراسل حينئذ طغتكين

---

(٦٤) د . فايد عاشور : العلاقة بين البندقية والشرق الادنى الاسلامي في العصر الايوبي ص ٧٤

Okey : Venice and its story: p42Hodgson: The Early History of venice pp 252 — 254;

Daru: Histoire de venise, vol I pp. 72- 74;

Bury : The Cambridge Medieval History p411.

صاحب دمشق (الصليبيين) وقرر الأمر على ان يسلم المدينة اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج منها بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم وغيرها ، فاستقرت القاعدة على ذلك وفتحت أبواب المدينة وملكه (البلد ويقصد صور) الفرنج وفارقه أهله وتفقروا في البلاد وحملوا ما اطاقوا ، وتركوا ما عجزوا عنه ، ولم يعرض الفرنج لأحد منهم ، ولم يبق الا الضعيف عجز عن الحركة وملك الفرنج البلد في الثالث والعشرين من جمادى الاول من السنة ، وكان فتحه وهنا عظيما على المسلمين ، فإنه من أحصن البلاد وأمنعها ، فالله يعيده الى الاسلام ويقر أعين المسلمين بفتحه»(٦٥) .

وادى وقوع صور في أيدي الصليبيين الى تدعيم مركزهم لانها من أحسن البلاد وأمنعها ، وزادت قوة الصليبيين في حين ضعف الجانب الاسلامي بفقده لهذا البلد الحصين وجعله الصليبيون قاعدة بحرية قوية ، واهتموا بتحصينها واعدوها « مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم »(٦٦)

أما الخلافة الفاطمية فقد ضعفت بعد ذلك وخصوصا عقب مقتل الوزير الافضل سنة ٥١٤ هـ/ ١١٢١م ولم تظهر فيها شخصية قوية يمكنها القيام بالجهاد ضد الصليبيين أو ضبط سياسة الدولة في الداخل وتدبير امورها ، ولهذا ضمن الصليبيون في الشام الجبهة الغربية وعدم خطورتها عليهم بالاضافة الى ضعف الجبهة الشرقية بسبب ضعف الخلافة العباسية والسلاجقة ، كل ذلك دعم الاحتلال الصليبي وزاد في قوة المعتدين .

---

(٦٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ، ج٥ ص ١٨٢ - ١٨٣ ، ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٦٢١ - ٦٢٢ ، ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر حوادث سنة ٥١٨ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ثم انظر :

Wiel: Navy of venise, pp. 79- 92

Brown: Venetian Republic pp. 50- 51

Hodgson: The Early History of venice pp. 254- 259;

Oliphant: The Makers of venice, pp. 48— 51

Growford: Cleanings from venetian History vol, I pp. 104— 105; Heyed: Histoire du commerce vol, I, pp. 143- 144; 148- 151.

(٦٦) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧٧ (طبعة بيروت)

الفصل السادس

الأتراكُ السَّلاجِقَة وَالجهَادضدّالصَّليبيّين

استيلاء الصليبيين على الباره ومعرة النعمان ـ ثورة الرأي العام الاسلامي من أجل الجهاد ـ هجوم الاتراك السلاجقة سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣م على الصليبيين ـ حملة السلاجقة سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ضد الصليبيين ـ محاولات التحالف بين دمشق والقاهرة ـ موقعة البلاط سنة ١١١٩م / ٥١٣ هـ ـ تطور العلاقة بين الاتراك السلاجقة والصليبيين.

الأتراك السلاجقة والجهاد ضد الصليبيين

كان جهاد السلاجقة ضد الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى من الاسباب الهامة التي دفعت بالامبراطورية البيزنطية الى طلب المعونة من الغرب الاوربي رغم اختلاف مذهب الكنيستين الشرقية والغربية وتباين وجهات نظر رجال الدين المسيحيين في الشرق عنها في الغرب ، وكان أن استجابت البابوية في روما للاستغاثة البيزنطية ضد المسلمين . وبدأ الاعداد للحملة الصليبية الاولى منذ ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م بعد مؤتمر كليرمونت ، وتحركت جموع الصليبيين نحو الشرق يريدون قتال المسلمين واحتلال الاراضي المقدسة والكيد للاسلام والمسلمين والانتقام منهم ، فلما وصلوا الى القسطنطينية رأى الامبراطور البيزنطي ضرورة الاسراع في توجيه هذه القوات ضد المسلمين السلاجقة في آسيا الصغرى فأجابوه الى ذلك « وعبروا الخليج عند القسطنطينية سنة تسعين واربعمائة ووصلوا الى بلاد قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش ، وهي قونيه وغيرها ، فلما وصلوا اليها لقيهم قلج ارسلان في جموعه ومنعهم ، فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين واربعمائة واجتازوا في بلاده الى بلاد ابن الارمني فسلكوها وخرجوا الى انطاكية فحصروها »[1]

وتصدى الاتراك السلاجقة منذ البداية للصليبيين وقاتلوهم بشجاعة المؤمنين وصبر المجاهدين « وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم ، لا نطلب سواها ، مكرا منهم وخديعة ، حتى لا يساعدوا صاحب انطاكية »[2]

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤

(٢) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٥

وبعد سقوط انطاكية في ايدي الصليبيين وذلك في جمادى الاولى سنة ٤٩١ هـ/ ابريل ١٠٩٨ م . ولما سمع المسلمون في بلاد الشام بسقوط انطاكية جمع كربوقا اتابك الموصل العساكر « وسار الى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب ، فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الامراء ممن ليس مثلهم »(٣)

التقى المسلمون والصليبيون في معركة انتهت بهزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين « وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة ، فقتل الفرنج منهم ألوفا ، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والاموال والأثاث والدواب والأسلحة ، فصلحت حالهم وعادت اليهم قوتهم »(٤)

ومن الاسباب التي أدت الى هزيمة المسلمين « لما عاملهم كربوقا اولامن الاستهانة والاعراض عنهم »(٥) وبذلك حقق الصليبيون انتصارا على سلاجقة الروم والشام وفارس في حين ازداد الصليبيون قوة وحماسة على مواصلة الزحف على البلاد الاسلامية .

استيلاء الصليبيين على الباره ومعرة النعمان :

قام الصليبيون في منتصف يوليه ١٠٩٨ م/ ٤٩١ هـ بهجوم على معرة النعمان وتل منس (تلمنس) وهي الجهات الواقعة الى الجنوب الشرقي من انطاكية ، وكانت هذه المناطق من ضمن ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقي ، وكان النصارى والارمن والسريان شاركوا الصليبيين في هذا الهجوم وتعاونوا معهم ضد المسلمين ، ونازلوا معرة النعمان وحصروها « وقاتلهم أهلها قتالا شديدا ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ، ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم ، فعملوا

---

(٣)ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٦

(٤) ابن الاثير المصدر السابق ص ٢٧٧ - ٢٧٨

(٥) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٧ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر حوادث سنة ٤٩١هـ ، ثم انظر
Chalandon: premiere croisade, p 220

عند ذلك برجا من خشب يوازي سور المدينة »[٦] وضيقوا على المدينة ، فطلب أهلها القوت من الملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص « فلم ينجدهم احد »[٧] وتمكن الصليبيون من دخول البلد ووضعوا في أهلها « السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير ، وملكوه » في ١١/ ١٢/ ١٠٩٨م/ ٤٩٢ هـ وغـدروا بالمسلمين ورفعـوا الصلبان فوق البلـد ونهبوا ما وجدوه وطالبوا المسلمين بما لا طاقة لهم به وكان الصليبيون بقيادة ريموند الصنجيلي قاموا بحملة على البارة (وهي مدينة تابعة لمملكة حلب تقع شرقي نهر العاصي بين جسر الشغر ومعرة النعمان) ولم يقم رضوان صاحب حلب بنجدتهـا فاستولى الصليبيـون عليهـا في ٢٥/ ٩/ ١٠٩٨ م/ ٤٩١ هـ وكان ريموند شديد البأس والقسوة « وعاقب الـرجال والنساء واستصفى اموالهم وسبى بعضا وقتـــل بعضا » وجعـــل جامعهـــا كنيسة للنصارى .[٨]

أما عن موقف الامارات العربية في اواسط بلاد الشام من الصليبيين فقد ذكرنا أن معظمهم آثر الدخول في طاعة الصليبيين والاتفاق معهم وقبول ما تقدموا به من عروض[٩] ومن بين هؤلاء امراء حمص وطرابلس وشيزر[١٠] الذين قبلوا الدخول في طاعة الصليبيين في حين كان موقف الأتراك السلاجقة مغايرا لذلك ولم يعرفوا سوى الجهاد ضد الصليبيين معتقدين بضرورة قتال عدوهم والصبر في الجهاد فاما النصر واما الشهادة في سبيل الله في حين نجد موقف الدولـة الفاطميـة في بدايـة الحركـة الصليبية كان ضد الاتراك ، وكان الفاطميون يؤيـدون الصليبيـين ضد السلاجقة والسبب في ذلك الموقف الغريب ان الاتابـك أتسز بن أبق تمكن من الاستيلاء على بيت المقدس باسم السلطان ألب ارسلان من الفاطميـين سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١م وبذلك اصبحت فلسطين تحت حكم أتسز منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ٤٧٢ هـ/

---

(٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٨
(٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٤١ - ١٤٢
(٨) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٤١ ،
Chalandon,: premiere croisades pp. 284- 289 Gesta Francorum pp 167- 169.
(٩) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ ، ٨١ أ ٨٣
Setton History of the crusades, I pp. 164- 165
(١٠)

١٠٧٩ م عندما آلت فلسطين الى تتش الذي جعل أرتق بن أكسب حاكما على بيت المقدس (مؤسس بيت الإراتقة) وعندما توفي أرتق سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١م حكم بعده ابنه سكمان تحت سيادة تتش ثم تحت سيادة ابنه دقاق بن تتش ملك دمشق ، ولهذا كان الفاطميون يقفون موقفا معاديا للاتراك السلاجقة ، بل شعروا بالسعادة والغبطة عندما وجدوا نفوذ الاتراك السلاجقة قد انهار دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو السلطان بركياروق أن يوقف تقدم الصليبيين ، واعتقد الفاطميون أن ساعة الانتقام من الأتراك قد ازفت ، حقيقة ان هذا الموقف من الفاطميين قد جانب الصواب ، وكان يرتكز على المصلحة الشخصية والانانية والأثرة ، والمفروض ان المسلمين جميعا يقفون صفا واحدا ضد عدو اتحدث كل قواه في العالم كله من أجل قتال المسلمين(١١)

ثورة الرأي العام الاسلامي من أجل الجهاد :

وكان عامة المسلمين قد انزعجوا لما حل بارض الاسلام من هزائم واحتلال الصليبيين لبيت المقدس واجزاء واسعة من أرض الاسلام في بلاد الشام ، وخرج جماعة من أهالي حلب وشكوا الى الخليفة العباسي وسلطان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان ازاء الصليبيين وعدم مقاومته لهم بل استكانته لتنكرد حاكم انطاكيه ، وطلب اهالي حلب من الخليفه العباسي الجد في جهاد الصيبيين ، ووصف ابو المحاسن رضوان صاحب حلب بقوله« وكان ظالما بخيلا شحيحاً قبيح السيرة ، ليس في قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين ، وكانت الفرنج تغاور وتسبي وتأخذ من باب حلب ولا يخرج اليهم »(١٢)

وفي الوقت نفسه وصلت الى الخليفه العباسي والسلطان السلجوقي سفارة من الامبراطور البيزنطي لاستثارتهم ضد الصليبيين وخصوصا تنكرد ، لأن الصليبيين لم يسلموا الامبراطور البيزنطي كل الاراضي التي استولوا عليها في آسيا الصغرى والتي كانت من ضمن اراضي الامبراطورية البيزنطية ، ولذلك راسل خليفة بغداد

---

(١١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، Grousset: Histoire de croisades, vol, I pp 144- 145; setton: History of the crusades, vol I p. 316

(١٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٢٠٥

من أجل قتال الصليبيين « والايقاع بهم والاجتماع عن طردهم ، وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل اعضال خطبهم واستفحال شرهم »[١٣]

وكثر انتقاد المسلمين لموقف الخلافة العباسية وعدم جدية الخليفة العباسي المستظهر والسلطان محمد السلجوقي ، فهبت ثورة من المسلمين، وصاح الناس في السلطان « أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم اكثر حمية منك للاسلام ، حتى أرسل اليك في جهادهم »[١٤]

وكان أهل بغداد قد انضموا الى المسلمين الذين وصلوا الى بغداد مستنفرين على الفرنج ، ويقول ابن الاثير «فلما وردوا بغداداجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا، ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر ، فوعدهم السلطان بانفاذ العساكر للجهاد ، وسير من دار الخلافة منبرا الى جامع السلطان . فلما كان الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ، ومعهم أهل بغداد ، فمنعهم حاجب الباب من الدخول ، فغلبوه على ذلك ، ودخلوا الجامع ، وكسروا شباك المقصوره وهجموا على المنبر فكسروه وبطلت الجمعة ايضا ، فأرسل الخليفه الى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه ، فتقدم حينئذ الى من معه من الامراء بالمسير الى بلادهم ، والتجهز للجهاد ، وسير ولده الملك مسعودا مع الامير مودود ، صاحب الموصل وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الامراء ويسيروا الى قتال الفرنج »[١٥] هكذا كان موقف المسلمين وقضاتهم من الخليفة والسلطان السلجوقي والثورة عليهم وضرورة حثهم على القتال والزامهم بالجهاد ضد اعداء الاسلام ، فواجب عامة المسلمين تحريض ولي امر المسلمين على الجهاد إن هو أحجم عنه وأظهر الخذلان ، فان خالف الأمة الاسلامية في هذا فانه يفقد طاعتهم ، وواجبهم اقامة رجل آخر ينتصب للجهاد .

---

(١٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣

(١٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٣

Chaladon: Aexis comnene, p 252

(١٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٢ - ٤٨٣

ولقد أشار المؤرخ ابـن الاثير في حوادث سنة ٤٩٧ هـ الى احوال المسلمين واختلافهـم بقولـه « لمـا استطال الفرنج ، خذلهم الله تعـالى ، بما ملكـوه من بلاد الاسلام واتفق لهم اشتغال عساكر الاسلام ، وملوكه بقتال بعضهم بعضا . تفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء ، واختلفت الاهواء ، وتمزقت الاموال »[١٦]

استغـل الصليبيـون هذا الـوضع ، وساروا الى حران وحصروهـا نتيجة لاضطراب احوالها ، فلما سمع معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش ذلك وكـان بينهما حرب ، وسقمان يطالبه بقتـل ابـن أخيـه وكل منهما يستعـد للقاء صاحبه . . أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه الى الاجتماع معه لتلافي أمر حران ، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى ، وثوابه ، فكل واحد منهما أجاب صاحبه الى ما طلب منه ، وسارا فاجتمعا على الخابور ، وتحالفا ، وسارا الى لقاء الفرنج ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ومع جكرمش ثلاثة الاف فارس من الترك والعرب والاكراد ، فالتقوا على نهر البليخ وكان المصاف بينهـم هناك ، فاقتتلـوا ، فأظهـر المسلمون الانهزام فتبعهـم الفرنج نحو فرسخين ، فعـاد عليهـم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم . . وأما جكرمش فانه سار الى حران فتسلمهـا واستخلف بها صاحبه وسار الى الرهـا ، فحصرهـا خمسة عشر يوما ، وعاد الى الموصل ، ومعه القمص (صاحب الرها) الـذي أخذه من خيـام سقمان ففاداه بخمسة وثلاثين ديناراً ، ومائة وستين أسيرا من المسلمين ، وكان عدة القتلى من الفرنج يقارب اثني عشر ألف قتيل[١٧] » وفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م استعان مودود صاحب الموصل بجيرانه من الترك والاكراد مثل امراءميافارقين ومراغه وأربل وهمذان فاجتمعوا وساروا الى « سنجار ففتحوا عدة حصون للفرنج ! وقتل من بها منهم ، وحصروا مدينة الرها مدة ، ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها ، وكان سبب رحيلهم عنها ان الفرنج اجتمعت جميعها فارسها وراجلها وساروا الى الفرات ليعبروه ليمنعوا الرها من المسلمين ، فلما وصلوا الى الفرات بلغهم كثرة المسلمين ، فلم يقدموا عليه . وأقاموا على الفرات ، فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرها

---

(١٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٣

(١٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥

الى حران ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات اليهم ويقاتلوهم فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة والذخائر ، الى الرها فجعلوا فيها كل ما يحتاجون اليه ، بعد أن كانت قليلة الميرة ، وقد أشرفت على أن تؤخذ . وأخذوا كل من فيه عجز وضعف وفقر ، وعادوا الى الفرات فعبروه الى الجانب الشامي ، وطرقوا اعمال حلب ، فأفسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا خلقا كثيرا »[18]وفي تلك الاثناء هاجم جيش المسلمين بقيادة مودود الرها مرة ثانية بعد أن « قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم » فترك المسلمون حصارها وعبروا الفرات وحاصروا مدينة تل باشر غربي الفرات في ٢٨/ ٧/ ١١١١م/ ٥٠٥هـ وكانت في حكم الصليبيين ونجح أميرها الصليبي في مقاومة الحصار الذي دام خمسة واربعين يوما[19] وترك المسلمون حصارها « ورحلوا عنها ولم يبلغوا غرضا » في حين أن رضوان ملك حلب أغلق أبواب مدينته في وجه القوات الاسلامية ورفض أن يتعاون مع مودود ضد الصليبيين فاضطر الامير مودود الى الاجتماع مع طغتكين صاحب دمشق بمكان بالقرب من معرة النعمان واتفقا على الاشتراك في حرب الصليبيين الا أن طغتكين خشي على نفسه من الجيش السلجوقي الكبير كما تخوف من قبل رضوان صاحب حلب ، وبدأ يفكر طغتكين في أموره الخاصة ، فنكث الاتفاق ويقول ابن الاثير ان طغتكين عندما اجتمع بالامير مودود « اطلع من الامراء على نيات فاسدة في حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سرا »[20] وهكذا أدى التفكير في المصالح الشخصية الى تفكك القوة الاسلامية وكان المفروض أن يقدم كافة الامراء والحكام في ذلك الحين مصلحة الاسلام والمسلمين على مصالحهم الخاصة ، واعتمدوا على الشك دون اليقين فلم يفعلوا شيئا ضد الصليبيين في هذه الحملة وبقي مودود وطغتكين بالمعرة ، فسارا منها ونزلا على نهر العاصي ، ولما سمع الفرنج بتفرق عساكر الاسلام طمعوا وكانوا قد اجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين »[21]

---

(١٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب
Rec. Hist. cr. II, pp. 590-595;

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩ ـ ١٧١ ،
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩
(١٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٦ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥
(٢٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٧ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧
(٢١) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٨٧

واجتمعت قوات بيت المقدس وطرابلس وانطاكية والرها قرب أفامية الواقعة في الجزء الاوسط من حوض نهر العاصي « فسمع بهم سلطان بن منقذ ، صاحب شيزر ، فسار الى مودود وطغتكين وهون عليهما أمر الفرنج وحرضهما على الجهاد ، فرحلوا الى شيزر ونزلوا عليها ، ونزل الفرنج بالقرب منهم فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة ولزوهم بالقتال والفرنج يحفظون نفوسهم ولا يعطون مصافا ، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا الى أفاميه وتبعهم المسلمون فخطفوا من أدركوه في ساقتهم وعادوا الى شيزر »[٢٢] وبهذا لم يدخل جيش السلاجقة في هذه الحملة في معارك حاسمة ، بل كانت عبارة عن مناوشات جانبية وتعتبر هذه العمليات مقدمة لاحياء روح الجهاد ضد الصليبيين ، وكان مودود قد عاد الى الموصل كما رجع طغتكين الى دمشق بينما صار الصليبيون في بلاد الشام يؤلفون جبهة متحدة ضد المسلمين وتمكنوا من مواجهة المسلمين مدة طويلة من الزمن حتى كانت موقعة حطين سنة ١١٨٧م/ ٥٨٣ هـ واختلف ميزان القوى ورجحت كفة المسلمين .

هجوم الاتراك السلاجقة سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م على الصليبيين :

لم يهمل السلاجقة امر الجهاد بعد حملتهم الفاشلة سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١م وخصوصا أن أتابك الموصل الامير مودود «كان من خيار الملوك دينا وشجاعة وخيرا »[٢٣] ولذلك انتهز فرصة استنجاد طغتكين صاحب دمشق به ضد الصليبيين سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م بعد أن ساءت علاقة طغتكين بالصليبيين ، وتحرك بقواته من الموصل الى بلاد الشام ، ويروي ابن الاثير سبب اجتماع المسلمين هذه المرة بقوله « ان ملك الفرنج بغدوين (بلدوين) تابع الغارات على بلد دمشق ونهبه وخربه اواخر سنة ست وخمسمائة وانقطعت المواد عن دمشق فغلت الاسعار فيها ، وقلت الاقوات ، فأرسل طغتكين صاحبها الى الامير مودود يشرح له الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول اليه ، فجمع عسكرا ، وسار فعبر الفرات آخر ذي القعدة سنة ست وخمسمائة فخاف الفرنج »[٢٤] وتبعه في عبور الفرات الى ناحية الغرب امراء

---

(٢٢) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ - ١٧٨
Runciman: History of the crusades, vol I pp. 122-123, Grousset: Histoire des croisades, I p 266.

(٢٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهره ج٥ ص ٢٠٧

(٢٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٩٥

السلاجقة في اقليم الجزيرة واجتمعت القوات الاسلاميـة عند سلميـه الى الجنوب الشرقي من حماه ومعهـم طغتـكين ، واتفق رأي الجميع على ملاقاة الصليبيين ، وتقدموا نحو طبريه وحاصروها ، وامتدت غاراتهم حتى جبل الطور ، ثم علموا بتحرك القوات الصليبية نحوهم فتحصنوا عند الاقحوانه « فالتقوا عند طبريه ثالث عشر المحرم واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، ثم ان الفرنج انهزموا ، وكثر القتـل فيهم والأسر ، وممن أسر ملكهم بغـدوين ، فلـم يعـرف ، فأخذ سلاحه وأطلـق فنجا ، وغـرق منهـم في بحيرة طبريـه ونهر الاردن كثير ، وغنم المسلمون اموالهم وسلاحهم »[٢٥] وكان مودودوطغتكين قد نصبا كمينا للصليبيين كان سببا في هزيمتهم وقتـل حوالي الف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان وذلك في ٨/ ٦/ ١١١٣م الموافق ٥٠٧ هـ ، وكان بلدوين قد طلب النجدة من امراء الصليبيين قبل هزيمته ، فوصل روجر امير انطاكيـه وبونز pons امير طرابلس بقواتهما ، وبذلك « قويـت نفوسهم بهم وعاودوا الحرب ، فاحاط بهم المسلمون من كل ناحية وصعد الفرنج الى جبل غرب طبريه،فاقاموا به ستة وعشرين يوما والمسلمين(*)بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ، ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون الى قتالهم فلم يخرج منهم أحد »[٢٦] وشجع هذا الموقف المسلمين على قتال الصليبيين « فسار المسلمون الى بيسان ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا الى القدس،وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم »[٢٧]

وواصل المسلمون التقدم « ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة »[٢٨] جرى هذا في الوقت الذي قامت فيه حامية عسقلان الفاطمية بهجوم على بيت المقدس نفسه وذلك اثناء انشغـال بلـدوين الاول والجيش الصليبي قرب طبريـه في مواجهـة

(*) هكذا وردت الكلمة في النص وصوابها (المسلمون) .

(٢٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٩٦ ، ثم انظر

Guillaume de Tyr I p. 485

Foucher de chartres, p 426.

(٢٧) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٩٦

(٢٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦

السلاجقة،ولكن هذا الهجوم لم يأت بنتائج كبيرة على الرغم من أن الفاطميين وصلوا الى اسوار بيت المقدس(٢٩) ويرجع عدم فتح القدس في هذه الآونة الى عدم التنسيق بين القوى الاسلامية في ذلك الوقت ، وجعل العدو الصليبي محصورا بين المجاهدين من كل ناحية ، في حين أن الامير مودودا ، أذن « للعساكر في العود والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول ليصلي فيه وطغتكين فلما فرغوا من الصلاة ، وخرج الى صحن الجامع ويده في يد طغتكين ، وثب عليه باطني فضربه فجرحه اربع جراحات وقتل الباطني وأخذ رأسه فلم يعرفه أحد ، فأحرق وكان (مودود) صائما ، فحمل الى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال :لا لقيت الله الا صائما، فمات من يومه رحمه الله . . وكان خيرا عادلا كثير الخير »(٣٠)

وقال ابن الاثير حدثني والدي قال : كتب ملك الفرنج الى طغتكين بعد قتل مودود كتابا من فصوله : ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق على الله أن يبيدها »(٣١)

ولقد استفاد الصليبيون من تلك الجريمة لأن الرأي العام الاسلامي كان يشير الى اتهام طغتكين في تدبير مقتل مودود للخلاص منه ، ودفع هذا الاحساس طغتيكن الى التفكير في محالفته للصليبيين من أجل الاحتفاظ بامارته ولو كان ذلك على حساب مصلحة الاسلام والمسلمين ، ومن ثم يمكن القول أن قتل مودود كان فيه منفعة للصليبيين وضرر بالمسلمين(٣٢)

وهنا ينبغي أن نؤكد على أن جماعة الباطنية من أصحاب المذاهب المختلفة غير

---

(٢٩) Grousset: Histoire des croisades, I, p. 274, Foucher de chartres, pp 26-27

(٣٠) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ ، نفس المؤلف : التاريخ الباهر ص ١٩ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ ، ثم انظر

Guillaume de Tyr p. 484

Albert d'Aix p 700.

(٣١) ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٤٩٧

(٣٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧

Guillaume de Tyr, p 487

Grousset: Histoire des croisades, vol, I pp 276-277.

الاسلام كانوا باستمرار ضد المسلمين وخصوصا انهم يقومون باغتيال القادة والمجاهدين المسلمين المخلصين وبهذا تتفق اهدافهم مع الصليبيين واليهود وخصوم الاسلام والمسلمين في التخلص من الابطال والقادة المسلمين العظماء.

حملة السلاجقة سنة ٥٠٩/ ١١١٥م ضد الصليبيين :

وقد كان على المسلمين أن يبقوا في حذر دائم لاغتنام الفرصة من عدوهم فما ان تعرضت الممتلكات الصليبية في شمال بلاد الشام والعراق لزلزال عنيف في شهر نوفمبر سنة ١١١٤م/ ٥٠٨هـ ادى الى تدمير بلادهم من انطاكية والمصيصة الى مرعش والرها ، وادى كذلك الى سوء احوالهم وانشغالهم بأنفسهم ، حتى استغل السلطان محمد السلجوقي هذا الظرف وأرسل حملة جديدة الى بلاد الشام بزعامة برسق بن برسق صاحب همذان ، والهدف منها الجهاد ضد الصليبيين ثم الانتقام من طغتيكن اتابك دمشق لموقفه من قتل مودود من ناحية وللانتقام من ايلغازي أمير ماردين من ناحية ثانية وذكر ابن الاثير ان السلطان محمد السلجوقي « جهز عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم الامير برسق بن برسق ، صاحب همذان ، ومعه الامير جيوش بك والامير كنتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بالبداية بقتال ايلغازي وطغتكين ، فاذا فروغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحصروا بلادهم »[٣٣] وكان السلطان محمد السلجوقي قد جعل الأمير آقسنقر البرسقي واليا على الموصل واعمالها لما بلغه قتل مودود (وسير معه ولده الملك مسعودا في جيش كثيف وأمره بقتال الفرنج وكتب الى سائر الامراء بطاعته ، فوصل الى الموصل واتصلت به عساكرها ، وفيهم عماد الدين زنكي بن آقسنقر الذي ملك هو واولاده الموصل بعد ذلك ، وكان له الشجاعة في الغاية ، واتصل به ايضا تميرك صاحب سنجار وغيرهما ، فسار البرسقي الى جزيرة ابن عمر ، فسلمها اليه نائب مودود بها ، وسار معه الى ماردين فنازلها البرسقي حتى اذعن له ايلغازي صاحبها ، وسير معه عسكرا مع ولده اياز فسار عنه البرسقي الى الرها في خمسة عشر الف فارس ، فنازلها في ذي الحجة (٥٠٨ هـ) وقاتلها وصبر له الفرنج وأصابوا من بعض المسلمين غرة فاخذوا منهم تسعة

---

(٣٣) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٠١ ، ص ٥٠٩ ، ثم انظر Archer: p 151

رجال وصلبوهم على سورها ، فاشتد القتال حينئذ ، وحمى المسلمون ، وقاتلوا فقتلوا من الفرنج خمسين فارسا من أعيانهم ، وأقام عليها شهرين وأياما ، وضاقت الميرة على المسلمين ، فرحلوا من الرها الى سميساط واطاعه صاحب مرعش . . ثم عاد الى شحنان فقبض على إياز بن ايلغازي حيث لم يحضر ابوه ، ونهب سواد ماردين »[٣٤]

وكان بعض امراء الشام المسلمين قد انضم الى جانب الحملة السلجوقية في حين كان البعض الآخر قد انضم الى الجانب الصليبي ضد المسلمين وعلى رأس هؤلاء ايلغازي صاحب ماردين وطغتكين اتابك دمشق « فاتفقا على الامتناع والالتجاء الى الفرنج والاحتماء بهم ، فراسلا صاحب انطاكيه وحالفاه »[٣٥] ولقد جانب هؤلاء الامراء الصواب بانضمامهم الى جانب الصليبيين ضد اخوانهم المسلمين ، فاستولى برسق على حماه التي كانت تابعة لطغتكين وبها ثقله كما هاجم قلعة أفاميه التابعة لامارة انطاكيه الصليبية ،كما ان صاحب حلب شمس الخواص انضم الى الامراء المتحالفين مع الصليبيين ضد برسق والمسلمين ، وأظهر العصيان ، وتحالف هؤلاء مع ملك بيت المقدس الصليبي وأمير انطاكيه « وغيرهما من شياطين الفرنج » والهدف من هذا التحالف مقاومة سلاجقة فارس الذين شرعوا يجاهدون باخلاص ضد الصليبيين في بلاد الشام[٣٧]

وعلى الرغم من التحالف المذكور ، فان الحملة السلجوقية حققت بعض الانتصارات ضد المتحالفين ثم انسحب برسق بقواته الى الجزيرة ، فاعتقد الصليبيون ان الخطر قد زال فعاد برسق بقواته من جديد فواجهه الصليبيون وانزلوا به هزيمة عند دانيث في ١٤/ ٩/ ١١١٥م / ٥١٠ هـ وقضوا على معظم جيشه « وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة »[٣٧]

---

(٣٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٠١ ـ ٥٠٢

(٣٥) ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣

(٣٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ setton: History of the crusades, part I p. 404

(٣٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥١١ ثم انظر Guillaume de Tyr , p. 489; ابن العديم : زبدة الحلب (Hist, or. III pp. 609-610

وأما برسق وأخوه زنكي « فانهما توفيا في سنة عشر وخمسمائة وكان برسق خيرا دينا وقد ندم على الهزيمة وهو يتجهز للعود الى الغزاة فأتاه أجله »[٣٨] وهكـذا أدى تحالف بعض أمراء الاسلام في الشام مع الصليبيين الى اضعاف المسلمين وزيادة قوة الصليبيين بما عاد على المسلمين بالهزيمة في الحملة السلجوقية المذكورة . ومن نتائج هزيمة المسلمين السلاجقة في موقعة دانيث سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٥م ان استطاع روجر الانطاكـي الصليبي ان يهدد باقي الامارات الاسلاميـة المجاورة لاحساسه بضعف القوى الاسلامية وتفككهاواضطراب احوال بعضها داخليا مما سهل على الصليبيين ابتلاعها بسهولة الواحدة بعد الأخرى ، وكان طغتكين حاكم دمشق قد ذهب الى بغـداد في سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م ليظهـر التوبة عن محالفته للصليبيـين ووقوفه الى جانبهم ضد المسلمين كما أراد أن يطلب العفو من السلطان محمد السلجوقي في قضية اتهامه بقتل مودود « فرضي عنه السلطان وخلع عليه ورده الى دمشق »[٣٩]

أما عن حلب فقد قام بدر الدين لؤلؤ بقتل الب ارسلان ابن استاذه لينفرد هو بحكم امارة حلب (في الفترة من ٥٠٨ ـ ٥١١ هـ/ ١١١٤ ـ ١١١٧م)[٤٠] ولكـي يقوي بدر الدين لؤلؤ من موقفه بعد فعلته تلك طلب محالفة طغتكين اتابك دمشق ، ولكن هذه المحالفة لم تنقذه من الموت ، فقد قتله بعض أعوانه وهو في طريق عودته من قلعة جعبر سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م ، اذ هاجمه جماعة وهم يصيحون « الأرانب ، الأرانب وهدفهم من ذلك ابعاد الشك عنهم وانهم انما يتصيدون ارانب[٤١]

والذي يهمنا في هذه الحوادث انها أعطت روجر الانطاكي الفرصة لكي يطمع في أخذ حلب وخصوصا عندما سمع بعدم وجود ملك يجاهد عنها ، فهـاجم بلاد حلب « واخذ ما قدر عليه من اعمال الشرقية » وعندما تولى الوصاية على حلب الامير ياروقتاش الأرمني الأصل اسرع الى استرضاء روجر الانطاكي ، وعقد معه صلحا وتنازل له عن حصن القبه (قبة ملاعب) الواقعة بين حلب ودمشق كما أعطى روجر

---

(٣٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥١١ ثم انظر اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤٤ .
(٣٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥١٤
(٤٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهو ج٥ ص ٢٠٨
(٤١) ابن العديم : زبدة الحلب Rec.Hist . or III p. 611

الانطاكي الحق في فرض ضرائب على قوافل الحجاج المسلمين بين حلب والحجاز وكان ذلك غاية في الضعف والهوان والذلة والتواطؤ . هذا بالاضافة الى أن جيران حلب المسلمين طمعوا فيها أيضا ، فأسرع الامير نجم الدين ايلغازي بن أرتق امير ماردين الى احتلال بالس على الفرات التابعة لحلب ، وعندما تقدم طغتيكن اتابك دمشق وآقسنقر البرسقي أمير الرحبه لاحتلال حلب سنة ٥١١ ـ ٥١٢هـ / ١١١٧م ـ ١١١٨م استنجد الوصي على عرش حلب وهو الامير ابن الملحي بروجر الانطاكي ضد المسلمين فلم يستطيعا عمل شيء ضد حلب(٤٢)

واصبحت حلب تحت حماية الصليبين في انطاكيه بعد أن فضل أهل حلب خضوعهم للصليبيين بدلا من سيطرة أحد من المشرق الاسلامي ، ولكن نظرا لاحساس اهاليها المسلمين بأن هذا الموقف غير شرعي سلموا بلدهم الى الامير التركماني نجم الدين ايلغازي وهدد الصليبيون حلب وسيطر روجر الانطاكي على جميع الاجزاء المحيطة بحلب من ناحيتي الغرب والشمال(٤٣)

محاولات التحالف بين دمشق والقاهرة :

أشرنا الى أن طغتكين أتابك دمشق مال الى جانب الصليبيين وتحالف معهم وذلك في عهد بلدوين الاول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبعد وفاة بلدوين الاول سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨ م حرص بلدوين الثاني على استمرار الوفاق بين مملكته وطغتكين في دمشق وأرسل اليه عقب توليه عرش بيت المقدس يعرض عليه تجديد الهدنة من الطرفين ، ولكن طغتكين لم يقبل تجديدها الا بشروط رفضها بلدوين الثاني في حين أظهر طغتكين القوة وهاجم الصليبيين في الخليل وطبريه « فنهبها وما حولها » ثم سار الى ناحية عسقلان(٤٤) وكان الوزير الافضل الفاطمي قد أرسل جيوشه الى عسقلان وأرسل اسطوله الى صور بعد أن تم الاتفاق بينه وبين طغتكين اتابك دمشق على توحيد جهودهما في قتال الصليبيين كل من ناحيته ، ومن ثم حضر

---

(٤٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٩

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٣١ ـ ٥٣٢

Mathieu d'Edesse pp. 297- 298;
Runciman : vol, II p. 135.

(٤٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٤٣

طغتكين الى عسقلان ليتولى قيادة القوات المشتركة الشامية والمصرية وكان عدد الجيش الفاطمي « سبعة الاف فارس فاجتمع بهم طغتكين واعلمه المقدم عليهم أن صاحبهم تقدم اليه بالوقوف عند رأي طغتكين والتصرف على ما يحكم به »(٤٥) وكان هذا الموقف ضروريا ، حيث اتحد المسلمون السنة والشيعة في مصر والشام لمواجهة العدو المشترك المتمثل في الاحتلال الصليبي وخشي الصليبيون على أنفسهم من هذا التحالف واستنجد بلدوين الثاني بالصليبيين في انطاكيه وطرابلس ، ثم رابطبلدوين الثاني بنفسه شمالي عسقلان ومضى شهران ولم يقع بينهما قتال ، ثم هاجم بلدوين الثاني حصنا يعرف بالحبس من أعمال طغتكين ويعرف ايضا بحصن جلدك ، كما هاجموا اذرعات فنهبوها « فارسل اليهم تاج الملوك بوري بن طغتكين فانحازوا عنه الى جبل هناك ، فنازلهم فأتاه أبوه ونهاه عنهم ، فلم يفعل وطمع فيهم ، فلما أيس الفرنج قاتلوا قتال مستقتل ، فنزلوا من الجبل وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزموهم بها ، وأسروا وقتلوا خلقا كثيرا وعاد الفل الى دمشق على اسوأ حال(٤٦) » واستغاث طغتكين بأمير حلب ايلغازي « وطلب منه التعاضد على الفرنج فوعده بالمسير معه »(٤٧)

موقعة البلاط سنة ١١١٩ م/ ٥١٣ هـ :

بعد وفاة رضوان ملك حلب سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣م حكم بعده ابنه ألب ارسلان حتى قتل في ٥٠٨ هـ/ ١١١٤م وتولى الحكم في حلب « بدر الدين لؤلؤ البابا » الوصاية على امارة حلب في الفترة من (٥٠٨ - ٥١١ هـ/ ١١١٤ - ١١١٧م) ثم قام في السلطة بعده ياروقتاش ثم ابن الملحي الذي أصبح عميلا للصليبيين واستنجد بروجر الانطاكي الصليبي ، ولم تأت سنة ٥١١ هـ/ ١١١٨م حتى أصبحت حلب تحت رحمة الصليبيين في انطاكيه ، فاستغاث الحلبيون بالامير ايلغازي الأرتقي صاحب ماردين وديار بكر طالبين حمايتهم من روجر الانطاكي

---

(٤٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٤٣

(٤٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٤٣ - ٥٤٤ ثم انظر Guillaume de Tyr. pp 518- 519; Foucher de chartres. pp 517- 619; setton: History of the crusades, vol, I p. 411- 412.

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٤٤

وشدد الصليبيون سيطرتهم على اعمال حلب وفي سنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩م « سار الفرنج من بلادهم الى نواحي حلب فملكوا بزاعه وغيرها وخربوا بلد حلب ونازلوها ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهرا واحدا وخافهم أهلها خوفا شديدا ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد ، لكنهم منعوا من ذلك وصانع الفرنج أهل حلب على أن يقاسموهم على املاكهم التي بباب حلب ، فأرسل أهل البلد الى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة ، فلم يغاثوا »(٤٨) فلم يقبل الامير ايلغازي بهذا الحال فحشد جيوشه والمتطوعين للجهاد « فاجتمع عليه نحو عشرين الفا » وكان معه أسامة بن المبارك ابن شبل الكلابي ، والأمير طغان ارسلان بن المكر صاحب بدليس وأرزن كما استجاب طغتكين اتابك دمشق بأن ذهب بنفسه لمساعدته كما اعلن ابو العساكر سلطان بن منقذ امير شيزر استعداده لمهاجمة امارة انطاكيه من ناحية الجنوب . واحتشدت هذه القوات التي بلغت حوالي اربعين الفا وتحرك بها ايلغازي الى الفرات أولا فهاجم تل باشر والرها ثم عبر الفرات عند بالس واتجه الى قنسرين لينقذ حلب من تهديد الصليبيين ، ولما أدرك روجر الانطاكي خطورة الموقف وقوة المسلمين ، اضطر الى طلب النجدة من بونز امير طرابلس ومن بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي رد عليه بأنه سيحضر على وجه السرعة ومعه أمير طرابلس وخرج بلدوين الثاني ومعه صليب الصلبوت قاصدا الشمال لمواجهة المسلمين(٤٩)

ويروي ابن الاثير هذه الحوادث فيقول « فلما علم الفرنج قوة عزمهم على لقائهم وكانوا ثلاثة الاف فارس وتسعة الاف راجل ، ساروا فنزلوا قريبا من الأثارب بموضع يقال له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق الا من ثلاث جهات ، وظن الفرنج أن أحدا لا يسلك اليهم لضيق الطريق ، فاخلدوا الى المطاولة وكانت عادة لهم ، اذ رأوا قوة من المسلمين ، وراسلوا ايلغازي يقولون له : لا تتعب نفسك بالمسير الينا ، فنحن واصلون اليك ، فاعلم اصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل ، فاشاروا عليه بالركوب من وقته ، وقصدهم ففعل ذلك ، وسار اليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة ، ولم تعتقد الفرنج ان احدا يقدم عليهم لصعوبة المسلك

---

(٤٨) ابن الاثير : المصدر السابق ص ٥٥٣ - ٥٥٤

(٤٩) ابن الاثيرالمصدر السابق ص ٥٥٤ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠

اليهم ، فلم يشعروا الا واوائل المسلمين قد غشيتهم ، فحمل الفرنج حملة منكرة ، فولوا منهزمين ، فلقوا باقي العسكر متتابعة ، فعادوا معهم وجرى بينهم حرب شديدة واحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم وأخذهم السيف وسائر نواحيهم ، فلم يفلت منهم غير نفر يسير ، وقتل الجميع وأسروا » وجرت هذه الموقعة في ٢٨/ ٦/ ١١١٩م/ ٥١٢هـ وتعرف بموقعة البلاط في سهل قريب من ارتاح ، وقد بلغ كثرة قتلى الصليبيين في هذه المعركة ان اطلقوا على هذا السهل اسم ساحة الدم . أما روجر الانطاكي صاحب انطاكيه فقد قتل وحمل رأسه كما أسر نيف وسبعون فارسا من مقدميهم وحملوا الى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم وغنم المسلمون الغنائم الكثيرة . . ثم تجمع من سلم من المعركة مع غيرهم فلقيهم ايلغازي ايضا فهزمهم وفتح منهم حصن الأتارب وزردنا وعاد الى حلب ، وقرر أمرها وأصلح حالها ثم عبر الفرات إلى ماردين[٥٠] .

ومن نتائج هذه المعركة في الجانب الاسلامى ان قويت الروح المعنوية عند المسلمين وخصوصا في حلب حيث كانت فرحة أهلها عظيمة ونظم شعراؤها القصائد في مدح ايلغازي، كما أرسل اليه الخليفة العباسي المسترشد بالله الخلع «وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج»[٥١] ومما مدح به ايلغازي في هذه الوقعة قول العظيمي:

قل ما تشاء، فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الانجيل[٥٢]

وكان في امكان ايلغازي التقدم بقواته الى أنطاكية وتأديب الصليبيين وكما يقول ابن العديم لو أن ايلغازي اسرع الى انطاكية عندئذ «لما امتنعت عليه»[٥٣] .

---

(٥٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب
Rec. pp. 616-618
Guillaume de Tyr, pp. 525— 526.

(٥١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٦٨
(٥٢) ابن الاثير : المصدر السابق ص ٥٥٥
(٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب Rec. Hist. or. III p. 219-220

اما عن نتائج هذه الموقعة في الجانب الصليبي ، ففي مقدمتها ان انطاكية الصليبية اصبحت بلا أمير يحكمها بعد مقتل روجر في المعركة ، وكذلك أصبحت بلا جيش يحميها بعد القضاء على قواتها في المعركة المذكورة فكان ذلك فرصة للملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس لفرض وصايته على انطاكيه لحين وصول بوهيموند الثاني ابن بوهيموند الكبير مؤسس امارة انطاكيه من بلاد الغرب ، كما قام بلدوين الثاني بتنظيم شؤون انطاكيه وعمل على اعادة الثقة الى الاهالي واعداد القوة اللازمة لقهر المسلمين وصدهم عن المدينة وذكر ابن العديم الاجراءات التي اتخذها الملك بلدوين الثاني في انطاكيه انه « قبض على اموال القتلى ودورهم واخذها وزوج نساء القتلى بمن بقي ، وأثبت الخيل وجمع وحشد واستولى على انطاكيه »[٥٤]

واما ايلغازي الارتقي فقد ازداد قوة بانضمام طغتكين اتابك دمشق اليه ، سار الاثنان لمحاصرة الاتارب ، وسقطت في أيديهما في اغسطس ١١١٩م/ ٥١٢ هـ ثم زحفا الى زردنا فاستسلمت لهما بسهولة وفي ١٤/ ٨/ ١١١٩م/ ٥١٢ هـ دارت معركة بين ايلغازي والملك بلدوين الثاني عند موضع يقال له « ذات البقل من اعمال حلب فاقتتلوا واشتد القتال وكان الظفر له »[٥٥]

ثم اجتمع ايلغازي واتابك طغتكين صاحب دمشق وحصروا الفرنج في معرة قنسرين يوما وليلة ثم اشار اتابك طغتكين بالافراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا الى المسلمين . . فأفرج لهم ايلغازي ، فساروا عن مكانهم وتخلصوا »[٥٦]

ولكن إيلغازي الارتقي لم يترك الجهاد ، ففي اواخر مايو ١١٢٠م/ ٥١٤ هـ . اجتاح كل المنطقة بين تل باشر وكيسوم حيث قتل من الصليبيين عددا كبيرا وخرب ضياعهم وقراهم ثم سار ايلغازي من اقليم سميساط وتل باشر ليستولي على عزاز التابعة لامارة الرها ، ولما اقترب ايلغازي من انطاكيه هرب كثير من أهلها وارسلوا الى الملك بلدوين الثاني يطلبون المعونه السريعة ، فاسرع اليهم بلدوين

---

(٥٤) ابن العديم : زبدة الحلب Rec. p. 619-620

(٥٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٦٨

(٥٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٦٨ - ٥٦٩

الثاني ومعه صليب الصلبوت ، وخرج الملك بلدوين الثاني على رأس قواته الى دانيث لملاقاة الاتراك فتقدم ايلغازي بقواته بعد أن حضر لنجدته ايضا طغتكين اتابك دمشق ، ولكن بلدوين لم يدخل في مواجهة مع ايلغازي هذه المرة بل سار بقواته الى الشمال في محاولة لاسترداد الاجزاء التي استولى عليها ايلغازي في العام السابق حول الاتارب وزردنا في حين سار طغتكين وايلغازي الى ناحية حلب[٥٧] وانتهى هذا الموقف بين ايلغازي وبلدوين الثاني بعقد هدنة اوقفت ما بينهما من معارك ، ومع ذلك لم يتوقف العداء بين الاراتقة والصليبيين واستمر حاكم منبج الارتقي في هجماته على اراضي الرها ، فاغار الصليبيون في المقابل على اراضي منبج واقليم صفين على الضفة الغربية للفرات وخرب ايضا بزاعة وهاجم الاتارب الى الجنوب الشرقي من حلب وذبح من أهل الاتارب عددا كبيرا ، كما استمرت الاشتباكات بين طغتكين أتابك دمشق والصليبيين كما وقع جوسلين دي كورتناي أمير الرها في أسر ملك غازي بن بهرام الارتقي صاحب خرتبرت في ١٣/ ٩/ ١١٢٢م فساء موقف الصليبيين ومن ثم كان من الضروري على بلدوين الثاني ملك القدس أن يكون وصيا على الرها[٥٨] توفي ايلغازي في شهر رمضان وملك ابنه حسام الدين تمرتاش قلعة ماردين وملك ابنه سليمان ميافارقين ، وكان بحلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق فبقى بها الى أن أخذها ابن عمه »[٥٩]

وقد حاول الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ان يستفيد من تفكك دولة الاراتقة اثر وفاة ايلغازي ، فهاجم شمال الشام وغزا اقليم بزاعة شمال شرقي حلب ، كما هاجم بالس الى الجنوب الشرقي من حلب على نهر الفرات ، كما استولى على البيرة شرقي حلب وضيق بذلك الحصار على حلب نفسها واصبحت تخشى من تهديد الاحتلال الصليبي ، ولما وجد سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب

---

(٥٧) انظر Foucher de chartres, p. 445- 446
Mathieu d'Edesse, p. 127- 128.
Rec. Hist, or III p. 632- 634

(٥٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٠٤ ؛ Rec.III, pp. 632 - 634

(٥٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٩٣ ، Guillaume de Tyr, p. 535; Foucher de chartres, p. 446

أن الصليبيين « قد اكثروا قصد حلب واعمالها بالاغارة والتخريب والتحريق . . . ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم » فكر في مهادنتهم لأنه لا يقوى على مواجهتهم ، فطلب الصلح من بلدوين الثاني في شهر ابريل ١١٢٣م/ ٥١٧ هـ مقابل رد حصن الأتارب الواقع الى الجنوب الغربي من حلب الى امارة انطاكيه « واستمرت الموادعة على هذا واستقامت احوال الاعمال من الجانبين »[٦٠] وبذلك تمكن بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الصليبي في أقل من أربع سنوات من اعادة حدود امارة انطاكيه الى ما كانت عليه سنة ١١١٨م/ ٥١٢ هـ ، وما كان ذلك ليتم لولا الانشقاق بين صفوف المسلمين واحجامهم عن الجهاد أو معاضدة المجاهدين أو على الأقل عدم مساعدة الصليبيين ضد المسلمين كما يقول الفقهاء في حال اتباع بعض الدول الاسلامية لهذا المسلك الباطل « وانه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل ، بل الواجب قتالهم ومنعهم عما هم فيه »[٦١] وعندما حاول بلدوين الثاني ملك بيت المقدس فك أسر جوسلين دي كورتناي من أسر بلك الأرتقي في قلعة خرتبرت وقع بلدوين الثاني نفسه في أسر المسلمين وذلك في ١٨/ ٦/ ١١٢٣ م/ ٥١٧ هـ وسجن مع جوسلين في خرتبرت، ففكر بلك الارتقي في توحيد ملك الاراتقة ، وكان أخذ حران وهاجم حلب لانتزاعها من ابن عمه سليمان ، ونجح في ذلك في ٢٦/ ٦/ ١١٢٣م/ ٥١٧ هـ ، وكان هدفه من ذلك تقوية دولة الاراتقة الاسلامية ومحاربة الصليبيين ، وفعلا بدأ في مهاجمة انطاكيه ، واستولى على الباره غربي معرة النعمان ، وبينما كان بلك يقوم بغزواته ضد الصليبيين ، تعاون الارمن والمسيحيون في خرتبرت واطلقوا سراح جوسلين وبذلك لم يبق سوى الملك بلدوين الثاني وبعض الأسرى الصليبيين فنقلهم بلك من خرتبرت الى قلعة حران ليكونوا بعيدا عن منال الصليبيين في حين تطرف جوسلين بعد هروبه في الانتقام من المسلمين ، فخرج من تل باشر على رأس قواته وسار نحو حلب ، واستمر طوال الطريق ينهب ويدمر ويحرق ما يصادفه من قرى المسلمين وضياعهم حتى قبورهم لم تسلم من عبثه ،

(٦٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦١٠ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩ .

ثم انظر

Rec. Hist, or III p. 632

setton: vol. I p. 418

(٦١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٧١

وبقي جوسلين يحمل عبء القتال ضد المسلمين طوال فترة أسر بلدوين الثاني ، فاضطر بلك الى العودة الى حلب في اوائل سنة ١١٢٤ م/٥١٨هـ وتحالف مع طغتكين اتابك دمشق ضد الصليبيين ، وكان ذلك واجبا عليهما ، وبينما بلك يقوم بحمله على منبج لأخذها ليقوى بها على قتال الفرنج سار « الفرنج اليه ليرحلوه عنها لئلا يقوى بأخذها » ولكن تغلب بلك عليهم وطردهم ثم عاد الى منبج ليستأنف الحصار ، وعندئذ اصابه سهم طائش قتله فجأة في ٦/ ٥/ ١١٢٤م/ ٥١٨ هـ فخلفه في حكم حلب ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ، الذي كان « رجلا يحب الدعة والرفاهية » فآثر ان يترك حلب ويقيم في ماردين « لأنه رأى الشام كثير الحروب مع الفرنج »(٦٢)

تطور العلاقة بين الأتراك السلاجقة والصليبيين :

بعد وفاة بلك الأرتقي حكم في حلب تمرتاش بن ايلغازي ، ووافق على اطلاق سراح الملك بلدوين الثاني بعد أن بذل أمير شيزر العربي ابو العساكر سلطان بن منقذ وساطته في هذا الأمر على أن يدفع مائة الف بيزانت اي حوالي ثمانين الف دينار يدفع منها عشرين الف دينار مقدما(٦٣) كما تعهد بلدوين الثاني بوصفه وصيا على عرش انطاكيه اعادة عزاز وحصن الأتارب وزردنا والجزر وكفرطاب الى امارة حلب ، واطلق سراح بلدوين الثاني في اواخر يونيه ١١٢٤ م/ ٥١٨ هـ في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون مدينة صور ، ولكن بطرق انطاكيه انكر على بلدوين الثاني قبوله لشرط اعادة عزاز وغيرها من القلاع للمسلمين وحجته في ذلك أن بلدوين وصي على عرش انطاكيه وليس له حق التصرف في الامانة التي أوتمن عليها ، ولهذا فان بلدوين الثاني راسل صاحب حلب في هذا الموضوع ، وطلب منه مسامحته في هذا الشرط والتنازل عنه ، واستمرت الاتصالات والمفاوضات حول تسليم القلاع مدة طويلة دون جدوى ، وكان يخشى بلدوين الثاني من انتقام تمرتاش

---

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦١٩ ، ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب
Rec, III, pp. 636- 639

ثم انظر
Foucher de chartres, p. 457.

(٦٣) اسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠

صاحب حلب من الرهائن الصليبيين الذين يحتفظ بهم عنده لحين تسليم القلاع المذكورة ، وكان من بين هؤلاء الرهائن ابنة بلدوين الثاني وعمرها خمس سنوات وجوسلين الثاني بن جوسلين دي كورتناي أمير الرها ومعهما عشرة من أحسن شباب الصليبيين(٦٤) وأمام اصرار صاحب حلب على تنفيذ شروط الاتفاقية لجأ بلدوين الثاني الى القوة من جديد وتحالف مع دبيس بن صدقه الامير العربي الشيعي الذي طرده الخليفة المسترشد العباسي من حكم الحلة بالعراق ، ولجأ الى الجزيرة ويروي ابن الاثير ان دبيس بن صدقه اطمع الصليبيين في الاستيلاء على حلب ، وسبب ذلك : « ان الفرنج لما ملكوا مدينة صور على ما ذكرنا طمعوا وقويت نفوسهم على المقام الطويل ، وأنهم لا يفارقونها حتى يملكوها ، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر »(٦٥) واستطاع بلدوين الثاني تكوين جبهة من بعض العملاء المسلمين تحت قيادته تقاتل المسلمين ، ومن هؤلاء دبيس بن صدقه المذكور وبنو مزيد وسلطان شاه ابن الملك رضوان السلجوقي الذي عزله الاراتقه من ملكه في حلب ، وما كان لهؤلاء ان يقفوا مع الصليبيين هذا الموقف ضد اخوانهم في الدين ، ولكن الاطماع الشخصية اخرجتهم من الاعتدال الى الضلال والتبعية للقوى الصليبية ، وكان تمرتاش في ماردين يراقب احوالها في حين ترك نوابه في حلب يقاومون الحصار الصليبي الذي قام به بلدوين الثاني وحلفاؤه المذكورون « فلما رأى أهلها (حلب) ذلك ضعفت نفوسهم ، وخافوا الهلاك ، وظهر لهم من صاحبهم تمرتاش الوهن والعجز ، وقلت الاقوات عندهم ، فلما رأوا ما دفعوا اليه من هذه الاسباب ، اعملوا الرأي في طريق يتخلصون به ، فرأوا انه ليس لهم غير البرسقي صاحب الموصل ، فأرسلوا اليه يستنجدونه ويسألونه المجيء اليهم ليسلموا البلد اليه ، فجمع عساكره وقصدهم وأرسل الى من بالبلد وهو في الطريق يقول : انني لا أقدر على الوصول اليكم ، والفرنج يقاتلونكم الا اذا سلمتم القلعة الى نوابي ، وصار أصحابي فيها ، فإنني لا أدري ما يقدره الله تعالى اذا أنا لقيت الفرنج ، فان انهزمنا منهم وليست حلب بيد

(٦٤) اسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٠٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب

Rec. Hist, or, III pp. 644-.645

Mathieu d'Edesse, pp. 312- 313

Micheal le Syrien, p. 212- 225

(٦٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٢٣

اصحابي حتى احتمي أنا وعسكري بها ، لم يبق منا احد ، وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها . فأجابوه الى ذلك ، وسلموا القلعة الى نوابه، فلما استقروا فيها واستولوا عليها ، سار في العساكر التي معه ، فلما أشرف عليها رحل الفرنج عنها ، وهو يراهم ، فأراد من في مقدمة عسكره أن يحمل عليهم فمنعهم هو بنفسه وقال : قد كفينا شرهم ، وحفظنا بلدنا منهم ، والمصلحة تركهم حتى يتقرر امر حلب ونصلح حالها ونكثر ذخائرها ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم ، فلما رحل الفرنج خرج أهل حلب ولقوه ، وفرحوا به ، وأقام عندهم حتى أصلح الأمور وقررها »(٦٦)

وبعد فشل محاولة بلدوين الثاني وحلفائه في الاستيلاء على حلب عاد الى بيت المقدس في حين خاب رجاء دبيس بن صدقه في حكم حلب، بل جمع آقسنقر البرسقي بين ملكي الموصل وحلب ، وبذلك شكل خطرا كبيرا على الصليبيين في شمال العراق وبلاد الشام(٦٧)

وتمتع البرسقي ايضا بتأييد السلطان محمود السلجوقي واعترف بزعامته طغتكين أتابك دمشق كما زار اقسنقر البرسقي شيزر في شهر مارس ١١٢٥ م/ ٥١٩ هـ حيث رحب به أميرها سلطان بن منقذ وسلمه رهائن الصليبيين ومن بينهم ابنة بلدوين الثاني وجوسلين الصغير ولي عهد الرها ، ومن ثم ظهر البرسقي زعيما للقوى الاسلامية في بلاد الشام ، فبدأ بحصار كفرطاب واخذها في اوائل مايو ١١٢٥ م/ ٥١٩ هـ ثم شرع في حصار زردنا ثم ترك حصارها وسار الى عزاز شمالي حلب على الطريق بين انطاكية والرها في الوقت الذي استنجدت فيه انطاكيه بالملك بلدوين الثاني ملك القدس . الذي أسرع المسير اليها ومعه صاحب طرابلس وامير الرها « فاجتمعت الفرنج فارسها وراجلها ، وقصدوه ليرحلوه عنها ، فلقيهم وضرب معهم مصافا ، واقتتلوا قتالا شديدا صبروا كلهم فيه ، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر كثير ، وكان عدد القتلى اكثر من الف قتيل من المسلمين ، وعاد منهزما الى

---

(٦٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤

(٦٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٢٤ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ ـ ٢١٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب Rec III p. 649 ثم انظر Guillaumie de Tyr , vol, I. p 557

حلب فخلف بها ابنه مسعودا ، وعبر الفرات الى الموصل ليجمع العساكر ويعـاود القتال »(٦٨) ثم جرت اتصالات انتهت بهدنة بين الجانبين ، وتقرر بموجبها اعادة ابنه بلدوين الثاني وجوسلين الصغير وغيرهما من رهائـن الصـليبيين في حـين احتفـظ البرسقي بكفرطاب ، وعاد بعد ذلك بلدوين الثاني الى القدس(٦٩) ولكن بلـدوين الثاني هاجم امارة دمشق سنة ١١٢٦ م/ ٥٢٠ هـ حتـى وصـل الى شقحـب الى الجنـوب الغربـي من دمشـق ودارت معـركة بـين طغتكين وبلـدوين الثانـي في ٢٥/ ١/ ١١٢٦م/ ٥٢٠ هـ ويقول ابن الاثير في وصف هذه المعركة: « في هذه السنة اجتمعت الفرنج وملوكها وقمامصتها وكنودها ، وساروا الى نواحي دمشق فنزلوا بمرج الصفر عند قرية يقال لها سقحبا بالقرب من دمشق ، فعظم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم ، وكاتب طغتكين أتابـك صاحبهـا امـراء الرتـكمان من ديار بكر وغيرهـا وجمعهم وكان هو قد سار عن دمشق الى جهة الفرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري ، فكان بها ، كلما جاءت طائفة أحسن ضيافتهـم وسيرهـم الى ابنـه ، فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين الى الفرنج فالتقوا اواخر ذي الحجـة واقتتلـوا ، واشتـد القتال ، فسقط طغتكين عن فرسه ، فظن اصحابه انه قتل ، فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الفرنج وبقي التركمان لم يقـدروا أن يلحقـوا بالمسلمـين في الهزيمة فتخلفوا ، فلما رأوا فرسان الفرنج قد تبعوا المنهزمين وأن معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام حملوا على الرجالة فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد ، ونهبوا معسكر الفرنج وخيامهم واموالهم وجميع ما معهـم ، وفي جملتـه كنيسـة وفيهـا من الذهب والجواهر مالا يقوم كثرة ، فنهبوا ذلك جميعه وعادوا الى دمشق سالمين لم يعدم منهم أحد ، ولما رجع الفرنج من أثر المنهزمين ورأوا رجالتهم قتلى واموالهم منهوبة تموا (كذا !) منهزمين لا يلوي الاخ على أخيه ، وكان هذا من الغريب ان طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها »(٧٠)

---

(٦٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩

(٦٩) Rec. Hist, or III, pp. 651.
Guillaume de Tyr, p. 580

(٧٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٣٩ اما قرية سقحبا لعلها قرية سقبا ، انظر ياقوت : المجلد الثالث ص ٢٢٦ .

ترك بلدوين الثاني الصليبي هذه العملية العسكرية وعاد الى بيت المقدس حيث استنجد به أمير طرابلس لمعاونته في حصار رفنية الذي كان قد أخذه المسلمون من الصليبيين سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥ م ، وكانت رفنية تتمتع بموقع هام بحكم اشرافها على اطراف وادي نهر العاصي فيما بين حماه وحمص . ولم يرض الصليبيون ببقائه مع المسلمين ، ولهذا انشأ أمير طرابلس الصليبي فوق مرتفع على مقربة من رفنية قلعة بعرين لشن غارات دائمة على رفنية ، فاشتد الحصار على رفنية وضيقوا عليها فاستنجد صاحبها شمس الخواص طغتكين اتابك دمشق ، والبرسقي أتابك حلب والموصل ولكن رفنية استسلمت للصليبيين قبل وصول النجدة الاسلامية بعد حصار دام ثمانية عشر يوما ومنها بدأ أمير طرابلس يشن غاراته على منطقة حمص ، كما أمن هذا الوضع الطريق بين بيت المقدس وانطاكيه ، كما أمن امارة طرابلس نفسها من خطر المسلمين في هذه الناحية ، اما عن البرسقي صاحب حلب والموصل ، فقد سار بقواته عن طريق منبج وارسل ابنه عز الدين مسعوداالى حمص ليدفع الصليبيين عنها في حين سار البرسقي نفسه الى امارة انطاكيه ، وحاصر حصن الأتارب مما جعل بلدوين الثاني يسرع لصده ، ولكن الاسطول الفاطمي قام بمهاجمة موانىء فلسطين الصليبية ، وامام هذا الموقف عرض بلدوين الثاني على البرسقي الصلح والعودة الى ما كانوا في سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م فوافق البرسقي على ذلك وعدل عن حصار الأتارب وجددت الهدنة وعاد البرسقي الى الموصل فدخلها في ٢٦/ ١١/ ١١٢٦م/ ٥٢٠ هـ حيث قتل في اليوم نفسه بيد أحد الباطنية كما عاد الاسطول الفاطمي الى مصر[٧١]

ويلاحظ ان الباطنية قاموا بدور سيء للغاية ضد الاسلام والمسلمين وقتلوا معظم القادة المجاهدين والسلاطين والامراء الذين جاهدوا بصدق وعزم ضد اعداء الاسلام ، ويمكن الاعتقاد أن هذه الطائفة ترجع في اصولها الى اليهودية او النصرانية ، فمواقفهم من الاسلام والمسلمين أشد سؤا وقسوة من اليهود والنصارى . ولقد ساءت احوال حلب بعد مقتل البرسقي في نوفمبر سنة ١١٢٦ م/

---

(٧١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٤٠ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤ ، ثم انظر Guillaume de Tyr, pp. 587-588

٥٢٠ هـ وطمع في حلب بعض امراء المسلمين وكذلك امراء الصليبيين ومن ذلك ان جوسلين دي كورتناي أمير الرها أسرع الى حلب سنة ١١٢٧م / ٥٢١ هـ ، كما تحرك بوهيموند الثاني امير انطاكيه في محاولة لأخذ حلب ولكن بلدوين الثاني ملك بيت المقدس اسرع الى انطاكيه ونجح في تسوية النزاع بين بوهيموند الثاني وجوسلين قبل أن يتسع ويزداد حدة ، وكان هذا النزاع قد ازداد وضوحا بسبب المنافسة بين الاميرين على أخذ حلب ، ولكن ظهور خطر التركمان المسلمين في الشمال ازعج الصليبيين ، وكان الامير ايلغازي بن الدانشمند صاحب ملطيه قد ناصب الامير بوهيموند الثاني في انطاكيه العداء وتقابل الطرفان في سهل عين زربه حيث دارت في فبراير ١١٣٠م/ ٥٢٤ هـ معركة انتصر فيها الاتراك التركمان وقتل بوهيموند الثاني نفسه لعدم معرفة شخصيته ، الا أن الامير ايلغازي عرفه وأخذ رأسه وأرسلها الى الخليفة العباسي في بغداد ومعها هدايا كثيرة من الخيل والسلاح[٧٢]

وأصبحت انطاكيه من جديد تحت وصاية الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس[٧٣]

وتجددت الخلافات بين الامراء الصليبيين ، فاستغل الاتراك التركمان هذا الوضع فزحفت جموع كبيرة منهم من ارض الجزيرة وعبروا نهر الفرات وهاجموا الاراضي الواقعة شرقي نهر العاصي التابعة لامارة انطاكيه الصليبية وجعلوا من معرة النعمان وكفرطاب قواعد للقيام باعمالهم العسكرية ضد الصليبيين ، ولكن القوى الصليبية عادت الى الوفاق من جديد وتمكنوا من ابعاد الاتراك التركمان من منطقة انطاكيه ، فسار التركمان الى ناحية طرابلس فخرج بونز امير طرابلس لمواجهتهم وقتالهم فاستدرجه التركمان حتى أوقعوا مذبحة كبيرة بين الصليبيين في حين اضطر امير الرها الى الهرب الى قلعة بعرين الواقعة شرقي انطرطوس وحاصره التركمان بها في اكتوبر ١١٣٣م/ ٥٢٧ هـ[٧٤] « فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه

(٧٢) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٥١٨

(٧٣) Guillaume de Tyr, pp. 599-601;

ابن العديم : زبدة الحلب . Rec. III pp 660-661

(٧٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٧ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ ، ثم انظر

Guillaume de Tyr, pp. 612-613 setton, vol, I p. 483

عشرون فارسا من أعيان أصحابه سرا فنجوا وساروا الى طرابلس وترك الباقين في بعرين يحفظونها ، فلما وصل الى طرابلس كاتب جميع الفرنج ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين ، فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم ، وقتل بينهم خلق كثير واشرف الفرنج على الهزيمة ، فحملوا نفوسهم ورجعوا على حامية الى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم الى وسط بلادهم فعادوا عنهم[٧٥] » وهكذا يمكن القول أن الاتراك السلاجقة سواء أكان هؤلاء من سلاجقة آسيا الصغرى والاناضول أم سلاجقة بلاد الشام أم سلاجقة فارس ، فقد جاهدوا ضد الصليبيين ، وتحملوا الكثير من المشاق واستشهد منهم مئات الالاف في سبيل الله دفاعا عن الاسلام والمسلمين ، وكان دور سلاجقة فارس في الجهاد ضد الصليبيين بارزا الى أن أصاب دولتهم الضعف بعد وفاة السلطان السلجوقي محمد سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨م وخلفه ابنه محمود ، وانتشر الوهن في عهده ، وكذلك الحال بالنسبة لسلاجقة الاناضول ، اذ انشغلوا بالمنازعات الداخلية واهملوا فريضة الجهاد ضد الصليبيين ، فكان لا بد من ظهور دولة مجاهدة قوية ، فظهر ال زنكي ليقوموا بدورهم في الجهاد ضد الصليبيين .

(٧٥) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٧ ـ ٨

الفصل السابع

دور عماد الدين زنكي في الجهاد ضد الصليبيين

ولاية زنكي الموصل وغيرها ـ تآمر الاسماعيلية في دمشق ضد المسلمين! محاولات الصليبيين الاستيلاء على دمشق ـ موقف خيانة ـ اختلاف المسلمين وانقسامهم ـ محاولة عماد الدين زنكي اخذ دمشق ـ عماد الدين يدخل في خدمة الخليفة العباسي ـ عماد الدين يتابع الجهاد ضد الصليبيين ـ الامبراطور البيزنطي يهاجم البلاد الاسلامية ٥٣٢ هـ / ١١٣٨م ـ شجاعة عالم في الاسلام ـ موقف عماد الدين من القوى الاسلامية الضعيفة ـ فتح الرها سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٤م ـ استيلاء المسلمين على البيرة ـ مقتل الشهيد عماد الدين زنكي.

دور عماد الدين زنكي في الجهاد ضد الصليبيين

بدأ آل زنكي في الظهور منذ أن اختار السلطان محمد السلجوقي سنة ٥١٢ هـ/ ١١٨ م آق سنقر البرسقي حاكم الموصل ليكون ممثلا للسلطان في بغداد لدى الخليفة العباسي المسترشد بالله ، وفي سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م رأى السلطان محمود السلجوقي اعادة البرسقي الى الموصل ثانيا ، وأشار ابن الاثير في تاريخه الى هذا بقوله : « في هذه السنة ، في صفر ، اقطع السلطان محمود مدينة الموصل واعمالها وما ينضاف اليها ، كالجزيرة وسنجار وغيرهما ، الامير آقسنقر البرسقي وسبب ذلك أنه كان في خدمة السلطان محمود ناصحا له ، ملازما له في حروبه كلها . . وتقدم الى سائر الامراء بطاعته وأمره بمجاهدة الفرنج وأخذ البلاد منهم ، فسار اليها في عسكر كثير وملكها وأقام يدبر أمورها ويصلح أحوالها »[1]

وحدث أن زاد تهديد الصليبيين لمدينة حلب ، فأرسل أعيانها الى البرسقي يطلبون منه النجدة ، فرحب حاكم الموصل بهذا الطلب كما وافق أهل حلب على تسليمه قلعة حلب ، وسار معه طغتكين اتابك دمشق وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص ، ووصل هؤلاء الى حلب في اواخر شهر يناير ١١٢٥م/ ٥١٩هـ ، وترتب على ذلك أن أصبحت حلب من ضمن بلاد البرسقي التابعة للموصل ، وكان ذلك يعني تشكيل جبهة اسلامية في اطراف الشام والعراق اخذت تهدد الصليبيين في بلاد الشام ، كما يمكن لهذه الجبهة أن تقطع الصلة بين امارة الرها من ناحية وبقية الامارات الصليبية في الشام من ناحية اخرى لا سيما ان المسلمين كانوا في حاجة الى احياء الجهاد ضد الصليبيين ، وكان البرسقي قد انتدبه السلطان محمود السلجوقي للجهاد ، ومن ثم كان ينظر المسلمون اليه على أنه يمثل أكبر قوة

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٥٨٨ ، نفس المؤلف التاريخ الباهر ص ٣٠ ـ ٣١

اسلامية تعقد عليها الامال في توحيد المسلمين وتحرير الاراضي الاسلامية التي احتلها الصليبيون ، ولهذا وقف الصليبيون منه موقف الحذر والعداء كما نافسه في زعامته بعض امراء القوى الاسلامية الصغيرة المنتشرة في اطراف بلاد العراق والشام . بل ان مثل هؤلاء الامراء المسلمين كانوا يرجون استمرار الاحتلال الصليبي ليضمنوا من ناحية اخرى بقاءهم في اماراتهم ومناصبهم . وبقي البرسقي يواجه هؤلاء حتى قتل في يوم الجمعة ٢٦/ ١١/ ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ بأيدي الباطنية في مدينة الموصل، ويقول ابو شامة في وصف هذا الحادث: «وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة . ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة»[٢] وبعد مقتله قرر السلطان محمود السلجوقي «ولده عز الدين مسعودا على ما كان لأبيه من الاعمال وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماه وجزيرة ابن عمر وغيرها ، وكان شابا عاقلا فضبط البلاد»[٣] ولكن الخلاف بينه وبين طغتيكن اتابك دمشق جعل الاخير يتمكن من دس السم له وهو في الرحبه «وتوفي سنة احدى وعشرين وولي بعده اخوه الصغير وقام بتدبير دولتيهما الامير جاولي، وهو مملوك تركي من مماليك ابيهما فجرت الامور على احسن نظام»[٤]

ولاية زنكي الموصل وغيرها :

أرسل جاولي الى السلطان محمود السلجوقي يطلب منه ان يقر البلاد عليه « وكان المرسل بذلك القاضي بهاء الدين ابو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني ، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه »[٥] ولهذا فانهما اتفقا على طلب البلاد لعماد الدين زنكي وقالا للوزير « قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد

---

(٢) ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٧٤ ـ ٧٥، ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣١ ، النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ١٠ (مخطوط)

(٣) ابو شامه : الروضتين ج١ص ٧٥ ، ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٣٣ ـ ٦٣٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣١ ـ ٣٢

(٤) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٥ ، ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٤٣ ، النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٣٩ (مخطوط)

(٥) ابو شامة : الروضتين ح١ ص ٧٥

استولى الفرنج على اكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم ، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم ، فمنذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده طفل صغير ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتهاوقدانهينا الحال اليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل على الاثم من الله تعالى واللوم من السلطان ، فأنهى الوزير ذلك الى السلطان فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد ؟ فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله اكثر من غيره ، فأجاب السلطان الى توليته لما علم من شهامته وكفايته ، فولى البلاد جميعها ، وكتب منشورة بها »[6].وعماد الدين كان والده قسيم الدولة أقسنقر الحاجب قائداً من قادة جيش السلطان ملكشاه السلجوقي «ومن اعيان دولته وأكابر امرائه واخص اوليائه: واعتمد عليه في اموره كلها»[7] وكافأه ملكشاه على شجاعته بأن اعطاه حكم ولاية حلب سنة ١٠٩٢م / ٤٨٥هـ ولكن أقسنقر قتل في عام ١٠٩٤م/ ٤٨٧هـ على يد تتش اخو ملكشاه فنشأ زنكي بعد أبيه في خدمة اتابكة الموصل حتى وصل الى حكم البصرة ، وكان له دور في اخضاع الخليفة المسترشد بالله سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م عندما كلفه السلطان محمود السلجوقي بهذا الأمر وانتصر عماد الدين زنكي على الخليفة في يناير ١١٢٧م / ٥٢١هـ واضطر الخليفة الى الاذعان للسلطان محمود، وكان ذلك من أسباب ظهور عماد الدين وشهرته بالشجاعة والمقدرة فولاه السلطان شحنكية العراق في ابريل ١١٢٧م / ٥٢١هـ ثم وقع اختياره على عماد الدين زنكي ليكون حاكما على الموصل وغيرها سنة ١١٢٧م/ ٥٢١هـ «لما يعلمه من كفايته لما يليه»[8] وبعد أن نظم عماد الدين زنكي الموصل شرع في اتخاذ الخطوات اللازمة لتقوية دولته وجعلها في مركز القوة لتقوم بالجهاد ضد الصليبيين وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم ، وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم ، وضعف أهلها عن كف عاذيهم وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب واستطار في البلاد شرر شرهم وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان الى عريش مصر لم

---

(٦) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٥ ـ ٧٦ ، ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٦٤٣ ـ ٦٤٥

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢

(٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٣٥ ـ ٦٣٨ ، ص ٦٤١ ، نفس المؤلف : التاريخ الباهر ص ٢٨ ـ ٣١ ؛ ابن واصل مفرح الكروب ج١ ص ١٢ ، ٣٤ ـ ٣٦ . اما لفظ شحنكية فهي جماعة يقومون باعمال الشرطة ويرأسهم احد الامراء .

يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق»[9] ولهذا كان ينبغي على عماد الدين زنكي ان يوحد جهود المسلمين لرتق هذا الفتق ، واذا كان ضعف بعض الامارات أو الدول الاسلامية يشكل خطرا على المسلمين ويعطي فرصة للعدو بالتوسع فعلى المسلمين اصلاح الحال أما بانضواء هذه الامارات في ظل دولة واحدة رغبة وطواعية وذلك خدمة للمصلحة العامة للاسلام والا فعلى المسلمين يقع واجب اخضاعهم بالقوة لما في ذلك من مصلحة ظاهرة للاسلام والمسلمين . ولهذا عمل عماد الدين على توحيد الجبهة الاسلامية ليواجه الصليبيين ، وكذلك فعل السلطان صلاح الدين الايوبي عند توليته الحكم وتأكيدا لهذا المعنى شرع عماد الدين زنكي في الاستيلاء على جزيرة ابن عمر «وبها مماليك البرسقي فامتنعوا من التسليم فحصرها وراسلهم ، وبذل لهم البذول الكثيرة على أن يجيبوه فلم يجيبوا ، فجد في قتالهم وبينه وبين البلد دجله ، فأمر الناس بالقاء أنفسهم في الماء ليعبروا الى البلد ففعلوا، وعبر بعضهم سباحة وبعضهم في السفن وبعضهم في الاكلاك (مركب صغير عرف في العراق) وتكاثروا على أهل الجزيرة وكانوا قد خرجوا من الجزيرة الى ارض بين الجزيرة ودجلة تعرف بالزلاقة ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فلما عبر العسكر اليهم قاتلوهم ومانعوهم ، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم فانهزم أهل البلد وتحصنوا ،واستولى عماد الدين على الزلاقة ، فلما رأى ذلك أهل البلد علموا أن لا خلاص لهم منه ، فسلموا اليه البلد بالأمان»[10]

ثم أخذ مدينة اربل في رمضان سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٧م ثم عاد الى الموصل وسار في جمادى الاول ٥٢٣ هـ/ ١١٢٨ م الى سنجار فتسلمها ثم ارسل منها قواته لتأخذ الخابور[11] ثم قصدت قوات عماد الدين مدينة الرحبه فأخذوها عنوة ثم سار بقواته الى نصيبين « وكانت للامير حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق - صاحب ماردين - فلما نازلها سار حسام الدين الى ابن عمه ركن الدولة داوود بن

---

(٩) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٦

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣٤ - ٣٥ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٤٥ - ٦٤٦ ، شامه : الروضتين ج١ ص ٧٧ .

(١١) الخابور ولاية واسعة بين رأس العين والفرات يجري بها نهر الخابور - معجم البلدان ج٣ ص ٨٣ ٣٨٤ . ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣٦

معين الدين سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، فوعده النجدة ، وجمع العسكر وعاد حسام الدين الى ماردين وأرسل رقاعا على جناح طائر الى نصيبين ، يعرف من بها من العسكر انه وابن عمه سائران اليهم في العسكر الكثير ويأمرهم بحفظ البلد خمسة ايام ، فسقط الطائر على خيمة عماد الدين ، فقرأها ، وأمر أن يكتب بطاقة غيرها مضمونها : إني قصدت ابن عمي ركن الدولة وقد وعدني النصرة ، وجمع العساكر ، وما نتأخر عن الوصول اكثر من عشرين يوما ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدة الى أن يصل ، وجعل البطاقة في الطائر وأرسله ، فوقع بنصيبين ، فلما وقف أهل البلد على البطاقة اسقط في أيديهم وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة فسلموا البلد الى عماد الدين فتسلمه وهذا من غرائب الاتفاق »[١٢]

وبعد الاستيلاء على نصيبين سار عماد الدين زنكي بقواته الى حران « وهي للمسلمين ، وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحي جميعها للفرنج ، وأهل حران معهم في ضر عظيم وضيق شديد لخلو البلاد من حام يذب عنها وسلطان يمنعها »[١٣]

ولهذا أرسل أهلها من قبل الى عماد الدين ، يستحثونه على الوصول اليهم ففعل وخرج أهل البلد واستقبلوه واطاعوه وسلموا اليه البلد . ولما كان هدف عماد الدين اقامة جبهة اسلامية قوية تحفظ نفسها من ناحية وتستطيع الوقوف في وجه الصليبيين ، بل تقوم بالجهاد لتحرير الاراضي الاسلامية التي أخذها الصليبيون من ناحية أخرى ، ولهذا الواجب كان مع عماد الدين الحق في أخذ البلاد الضعيفة التي قد يأتي منها الوهن والضعف على المسلمين ، وتحقيقا لهذه الفكرة فان عماد الدين اثناء وجوده في حران أرسل الى جوسلين صاحب الرها الصليبية وعقد معه هدنة لمدة يسيرة « وكان غرضه ان يتفرغ لاصلاح البلاد وتجنيد الاجناد ، وكان أهم الامور

---

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣٦ - ٣٧ ،
ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٤٦ ،
ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٧

(١٣) ابن الاثير : الكامل ج١ ص ٦٤٧
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣٦ ؛
ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٧ ،

اليه ان يعبر الفرات الى الشام ويملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية »[١٤]

وكانت حلب مطمعا للصليبيين وخصوصا اذا اضطربت احوال حلب ، وحدث أن هددها صاحب امارة الرها وصاحب امارة انطاكيه ، فرأى عماد الدين انه من الخير المسير لانقاذ حلب ، فسار بقواته وملك في طريقه بزاعة ومنبج ، ولما اقترب من حلب خرج أهلها اليه «فالتقوه واستبشروا بقدومه »[١٥] وكان ذلك في سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م ورتب عماد الدين أمور حلب وجعل أبا الحسن علي بن عبد الرزاق واليا عليها ويشير ابن الاثير الى اهمية اخذ المسلمين لمدينة حلب بقوله « ولولا ان الله تعالى منّ على المسلمين بملك أتابك ببلاد الشام لملكها الفرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية . . فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين »[١٦] وهذا المعنى الذي أشار اليه ابن الاثير هو السبب الاساسي في حروب ال زنكي والايوبيين والمماليك من بعدهم .

تآمر الاسماعيلية في دمشق ضد المسلمين :

حدث في سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩ م أن ازداد خطر طائفة الاسماعيلية في دمشق وخصوصا بعد أن راسلوا الفرنج يدعونهم للحضور لتسلم دمشق ، وكان زعيمهم في ذلك رجل يقال له المزدقاني الذي اكتشف امره تاج الملوك حاكم دمشق ، فاستدعاه اليه ، فحضر وخلا معه « فقتله تاج الملوك وعلق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنيه ، فقتل منهم ستة آلاف نفس »[١٧] ولما علم اسماعيل والي بانياس بما جرى للباطنية في دمشق خاف على نفسه « فراسل الفرنج وبذل لهم

---

(١٤) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٤٧
ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٧ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣٦

(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣٧ - ٣٩ ؛ ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٨ ، ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٥٠ ، نفس المؤلف : التاريخ الباهر ص ٣٧ - ٣٨ .

(١٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٥١ ، التاريخ الباهر ص ٣٧ - ٣٨

(١٧) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٥٦ - ٦٥٧

* ذكر ابن الاثير في الكامل ج١٠ ص ٦٥٦ - ٦٥٧ ان الاسماعيليه هم الباطنيه وقال ايضا : وكان بوادي التيم من اعمال بعلبك ، أصحاب مذاهب مختلفة من النصيريه والدرزيه والمجوس وغيرهم ، وكان موقف هؤلاء دائما ضد الاسلام ويخدمون مصالح الصليبيين واليهود.

تسليم بانياس اليهم والانتقال الى بلادهم ، فأجابوه ، فسلم القلعة اليهم ، وانتقل هو ومن معه من اصحابه الى بلادهم ، ولقوا شدة وذلة وهوانا ، وتوفي اسماعيل اوائل سنة اربع وعشرين وخمسمائة »[١٨] وهنا يمكن القول ان الطوائف الباطنية من اسماعيلية ونصيريه ودروز ليسوا من المسلمين حقيقة ، لا بالقول ولا بالفعل ولا بالاعتقاد ، وكان موقفهم مناوئا للاسلام والمسلمين ، بل تعاونوا في كل الاوقات مع اعداء الاسلام والمسلمين ، كما انهم كانوا يقومون بعملية اغتيال معظم قادة المسلمين المجاهدين امثال البرسقي وعماد الدين زنكي وغيرهم كثير ، ومن خلال هذا الكتاب وصحفاته سوف يستدل القارىء على صحة هذا الرأي .

محاولات الصليبيين الاستيلاء على دمشق :

لما علم الصليبيون بخبر قتل المزدقاني والاسماعيلية « بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا على دمشق حيث لم يتم لهم ملكها وعمتهم المصيبة ، فاجتمعوا كلهم : صاحب القدس وصاحب انطاكيه ، وصاحب طرابلس وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم ، ومن وصل اليهم في البحر للتجارة والزيارة ، فاجتمعوا في خلق عظيم نحو الفي فارس ، وأما الراجل فلا يحصى ، وساروا الى دمشق ليحصروها »[١٩]

ووصل الصليبيون دمشق في شهر ذي الحجة ٥٢٣ هـ/ اواخر ١١٢٩ م وأرسل تاج الملوك حاكم دمشق شمس الخواص لقتالهم ومعه جمع من المسلمين ، وقاتلوهم ، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم ، فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه اربعون رجلا واخذوا ما معهم وهي عشرة الاف دابة موقرة وثلاثمائة أسير وعادوا الى دمشق لم يمسهم قرح[٢٠]

ولقد شعر عماد الدين زنكي باهمية دمشق ، فأرسل الى تاج الملوك بوري بن طغتكين ملك دمشق يستنجده ، ويطلب منه المعونة على جهاد الصليبيين ، فوافقه على هذا الطلب ، وأرسل تاج الملوك الى عماد الدين من أخذ له العهود والمواثيق ، فلما اطمأن الى ذلك أرسل فرقة من الجيش من دمشق مع جماعة من الامراء ، وساروا

---

(١٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٥٧
(١٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٥٦ - ٦٥٧
(٢٠) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٥٧ - ٦٥٨

الى حماه وبها ابن تاج الملوك بهاء الدين سونج بن بوري وأمره والده بالنزول الى العسكر والمسير معهم الى عماد الدين زنكي ففعل فاكرمهم عماد الدين وأحسن استقبالهم ثم استولى جيش عماد الدين على حماه [٢١] .

معركة حصن الأتارب :

كان عماد الدين زنكي يفعل هذا من أجل الجهاد وخصوصا بعد أن منحه السلطان محمود السلجوقي في سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م « التواقيع السلطانية بملك الغرب كله »[٢٢] وعاد من عند السلطان محمود السلجوقي الى الموصل في سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩ م ومعه « منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بها »[٢٣] فعزم عماد الدين على الجهاد « فنازل حصن الأتارب وكان أضر شيء على أهل حلب فجمع الفرنج جمعاً عظيماً فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة بقيت عظام القتلى بتلك الارض مدة طويلة . ثم رجع الى الحصن فملكه عنوة فاخربه ومحا أثره وأزال من تلك الارض ضرره، ثم رحل الى حصن حارم فحصره فانفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم فاجابهم الى ذلك لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فاراد أن يستريحوا فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر وسيرت البشائر الى البلاد بذلك»[٢٤] .

وكان عماد الدين يريد ايقاع الرعب في قلوب الفرنج عن طريق القتال وادخال الخوف الى نفوسهم ، فيقول ابن الاثير : « ان الاتابك عماد الدين تقدم الى عسكره اثناء معركة حصن الأتارب وقال لهم : هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا ، ولقد اجتزت بتلك الارض سنة اربع وثمانين وخمسمائة ليلا فقيل لي : ان كثيرا من العظام باق الى ذلك الوقت »[٢٥]

---

(٢١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٥٨ - ٦٥٩ ، ابو شامه الروضتين ج١ ص ٧٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٤١ - ٤٣

(٢٢) ابن العديم : زبدة الحلب ص ٦٥٨

(٢٣) ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٤٠

(٢٤) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٨ ، ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٦٢ - ٦٦٣

(٢٥) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٦٣

موقف خيانة :

ومع ان عماد الدين زنكي كان يريد توحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة الصليبيين ، الا أن بعض الامراء المسلمين المحليين كانوا يضعون العقبات في طريقه ، بل يجمعون الجيوش لقتاله كما فعل بعض الأراتقة في حلب عندما انزعجوا لوقوع حلب في حكم عماد الدين وخوفا من ازدياد نفوذه في شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم ومن ثم تعاون حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ومعهم بعض امراء الأراتقة الآخرين في ديار بكر وساروا بقواتهم البالغة حوالي عشرن ألف فارس لمحاربة عماد الدين ولكن الله نصره عليهم عند مدينة سرجى الواقعة بين ماردين ونصيبين وزاد نفوذ زنكي في شمال الشام واطراف آسيا الصغرى[٢٦]

اختلاف المسلمين وانقسامهم :

توفي السلطان محمود السلجوقي في شوال ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م بمدينة همذان فورثه في الحكم ابنه البكر داود ، ولكن داود تعرض لثورة اعمامه سلجوق بن محمد صاحب بلاد فارس وعمه الثاني مسعود بن محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان محمد ، واشتد الصراع بين هؤلاء الاعمام الثلاثة وبخاصة مسعود وسلجوق شاه ، وحدث أن أيد الخليفة العباسي المسترشد سلجوق شاه على مسعود ، فاستنجد الاخير بعماد الدين زنكي اتابك الموصل الذي سار الى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق ، فانشغل عماد الدين في الصراع الدائر في العراق وفارس مما صرفه مؤقتا عن الجهاد ضد الصليبيين في الشام وفلسطين[٢٧] وزحف عماد الدين بقواته على بغداد لمنازلة الخليفة وحليفه سلجوق شاه ولكنه هزم في معركة عند تكريت سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣٢ م وسار عماد الدين زنكي بعد المعركة فعبر دجله بعد أن دخل

---

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٦٤

(٢٧) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر حوادث ٥٢٧ هـ .
ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٧٤ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٧٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٤٧

تكريت نفسها وكان بها نجم الدين أيوب ، فأقام له المعابر ، فلما عبر أمن الطلب من خصومه وسار الى بلاده لاصلاح حاله وحال جيشه « وهذا الفعل من نجم الدين أيوب كان سببا لاتصاله به والمصير في جملته حتى آل بهم الأمر الى ملك مصر والشام وغيرهما »[٢٨] وعاد عماد الدين زنكي لمهاجمة بغداد ومعه دبيس بن صدقه ، وكان السلطان سنجر قد كاتبهما وامرهما بقصد العراق والاستيلاء عليه ، فحضرا والتقى عماد الدين وحليفه دبيس والخليفة العباسي في معركة بحصن البرامكة في السابع والعشرين من رجب ٥٢٦ هـ/ ١١٣٢ م انتصر فيها الخليفة في حين عاد زنكي منهزما الى الموصل مما شجع الخليفه المسترشد على الزحف الى الموصل في صيف ٥٢٧ هـ/ ١١٣٣م ومعه ثلاثون ألف مقاتل ، فاضطر زنكي الى الجلاء عن الموصل وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر « وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشيء ولابلغه عمن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائدا الى بغداد »[٢٩] وهذا الموقف بين حكام المسلمين لم يكن طبيعيا وخصوصا ان هناك عدوا خطيرا مثل الصليبيين يتهددهم ويستولي على جزء كبير من ارض الاسلام ، والذين اخذوا يشددون هجماتهم على حلب ، وتمكنوا من هزيمة الامير سوار نائب زنكي في حلب في موقعة قنسرين (٥٢٧ - ٥٢٨ هـ/ ١١٣٢ - ١١٣٣ م) في حين لجأ اتابك دمشق اسماعيل بن بوري الى مهاجمة املاك عماد الدين زنكي في الشام فحاصر حماه « وزحف الى البلد من جميع جوانبه فملكه قهرا وأمن أهله »[٣٠] وأصبح موقف عماد الدين زنكي حرجا في حين اشتغل « السلاطين السلجوقية بالخلف الواقع بينهم» ومن ثم رأى عماد الدين زنكي سوء احوال المسلمين فبدأ يعيد النظر في خطته وركز جهوده من أجل الجهاد ضد الصليبيين وما يتصل به .

---

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٦٧٥ ، ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر حوادث سنة ٥٢٧ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٤٨ - ٤٩

(٢٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥ - ٦ ، التاريخ الباهر ص ٤٦ - ٤٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٥٢ - ٥٣ ، ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٧٩

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٦ - ٧
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٥٣

محاولة عماد الدين زنكي أخذ دمشق :

استغل عماد الدين زنكي سؤ احوال دمشق للتدخل في شؤونها من أجل ضمها الى الجبهة الاسلامية الموحدة من أجل الجهاد ، وكان صاحب دمشق شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين « ظالما سيء السيرة الى الغاية القصوى مع بخل زائد ودناءة نفس فكرهه أصحابه وأهله ورعيته »[٣١] فلما خاف من أصحابه ورعيته راسل عماد الدين زنكي وحثه على سرعة الوصول الى دمشق لأخذها ، وأخلى دمشق من الذخائر والاموال وتابع الرسل الى عماد الدين يحثه على الوصول ويقول « ان أهملت المجيء سلمت المدينة الى الفرنج » فاتفق اصحابه ووالدته على قتله فقتلوه واقامت امه بدلا منه اخاه شهاب الدين محمود بن بوري « وحلفت الناس له » وسار عماد الدين زنكي بقواته الى دمشق سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤م ، فعلم بما جرى في دمشق ومقتل شمس الملوك اسماعيل وان الامر قد فات ، فسار الى دمشق فحصرها وقاتلها « فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة »وكان القائم باعباء هذه الحروب معين الدين أنر مملوك طغتكين « فقام في حفظ البلد قياما مشهودا »[٣٢]

وبينما زنكي يحاصر دمشق وصله رسول الخليفة العباسي الراشد بن المسترشد بالله ومعه خلع للاتابك عماد الدين زنكي ويأمره بمصالحة صاحب دمشق الملك الب ارسلان محمود ، فعقد معهم الصلح وتركها عماد الدين ورجع[٣٣]

عماد الدين زنكي يدخل في خدمة الخليفة العباسي :

توجه عماد الدين زنكي بعد حصاره لدمشق الى بغداد لمناصرة الخليفة الراشد بالله ، وأمر الخليفة ان يخطب بالسلطنة بعده للسلطان داود وتحالف الخليفة الراشد والسلطان داود والامير عماد الدين زنكي ، وأرسل الخليفة الراشد الى عماد الدين ثلاثين الف دينار ليضمن ولاء عماد الدين له ، ثم جمع الخليفة والسلطان داود والامير

---

(٣١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٥٧ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥

(٣٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢١ ـ ٢٢
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٥٧ ـ ٥٨

(٣٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٥٨

عماد الدين زنكي قواتهم « واتفقت كلمتهم على قتال السلطان مسعود فترك بغداد وسار مع عماد الدين زنكي الى الموصل ، ثم خلع وقطعت خطبته في بغداد في ذي القعدة وسائر البلاد وكانت خلافته أحد عشر شهرا وأحد عشر يوما وقتله الباطنية وبويع بالخلافة المقتفي (٥٣١ ـ ٥٥٥ هـ/ ١١٣٦ ـ ١١٦٠م) وهو عم الراشد والمسترشد ابناء المستظهر ، فأرسل عماد الدين زنكي رسالة الى الخليفة المقتفي حملها اليه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري ، فأمر الخليفة « ان يعطي اتابك زنكي (صريفين) و(درب هرون) و (حربي) ملكا وهي من خاص الخليفة ويزاد في القابه وقال هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الاطراف ، ان يكون لهم نصيب في خاص الخليفة »[٣٤]

وكان هذا يعني حث عماد الدين زنكي على قطع خطبة الخليفة الراشد والاعتراف بخلافة المقتفي ، وفعلا تم ذلك وخطب للمقتفي بالموصل وسائر البلاد التابعة لعماد الدين زنكي ، واصبحت العلاقات بين الخليفة المقتفي وعماد الدين قوية في حين سار الراشد نحو الري ثم توجه الى همذان حتى وثب عليه جماعة من الباطنية في يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م وقتلوه[٣٥] .

وكان الخليفة المقتفي يدرك ضرورة الاستعانة بعماد الدين زنكي « على خلاف السلطان مسعود » مما قوى نفوذ الامير عماد الدين في شؤون الخلافة العباسية ببغداد ، فزاد بذلك نفوذ عماد الدين في نظر المسلمين وخصوصا بعد أن نال تأييد السلطان مسعود ، ورأى عماد الدين بعد ذلك ضرورة الاهتمام بأمر الجهاد ضد الصليبيين والتفرغ لهذا الأمر العظيم[٣٦]

عماد الدين يتابع الجهاد ضد الصليبيين :

ومن العمليات الحربية التي قام بها جيش عماد الدين زنكي ضد الصليبيين في

---

(٣٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٤٤ ـ ٤٥ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٦٧ ـ ٧٠ ، ابو شامه : الروضتين ح١ ص ٨٠

(٣٥) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٨٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧٠ ، ابن الاثير الكامل ج١١ ص ٦٢

(٣٦) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر حوادث ٥٣٠هـ
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٦٧ ـ ٧٩

سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥م قيام قواته بقيادة نائبه في حلب الامير أسوار « وقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم » وهاجموا اعمال اللاذقية بغتة ونجحت القوات الاسلامية في قتل وأسر الكثيرين من الصليبيين اضافة الى الغنائم « وكان الاسرى سبعة الاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة الف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم ، وأما ما سوى ذلك من الاقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد » ولم يستطع الصليبيون القيام بأي عمل ضد هذا الهجوم « عجزا ووهنا »[٣٧] .

وفي سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦م سارت قوات عماد الدين بقيادة صلاح الدين محمد الياغيسياني « وهو اكبر أمير معه » وحاصر حمص وفيها معين الدين أنر فلم يستسلم ، فحضر عماد الدين اليها بنفسه وحصرها وراسل معين الدين أنر في التسليم غير مرة « تارة بالوعد وتارة بالوعيد » ولم يفلح في أخذها فترك حصارها وسار الى بعرين[٣٨] وكانت بيد الصليبيين ونازلها عماد الدين وقاتلها وكانت من أمنع معاقل الصليبيين وأحصنها « فحشد الفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا الى عماد الدين في ملوكهم وقمامصتهم وكنودهم ليرحلوه عن بعرين (بارين) » فلم يرحل عماد الدين وقاتل الصليبيين أشد قتال رآه الناس ثم انكسر الصليبيون « وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب » واحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه منهم فحصرهم زنكي فيه ومنع عنهم كل شيء حتى الأخبار فكان من به منهم لا يعلم شيئا من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنده »[٣٩] وانطلق القساوسة والرهبان في بلاد الصليبيين « وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكي ان أخذ حصن بارين (بعرين) ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها وان همة المسلمين مصروفة الى فتح بيت المقدس ، فحشدت النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك القسطنطينية »[٤٠] وشدد عماد الدين الهجوم على الصليبيين في الحصن قبل وصول

(٣٧) ابن الاثير الكامل ج١١ ص ٤٠
(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧١ - ٧٢ ،
ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٠
(٣٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥١ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٧٢ - ٧٣
(٤٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥١ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٧٣

قوات الصليبيين التي أتت لنجدتهم « فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم » واضطروا الى طلب التسليم وأن يؤمنوا ويتركهم يعودون الى بلادهم فلم يقبل عماد الدين ، فلما سمع بقرب وصول الصليبيين لانجادهم اعطاهم الأمان وقرر عليهم خمسين الف دينار يحملونها اليه وخرجوا من الحصن ، فلما فارقوه بلغهم اجتماع الصليبيين لنجدتهم وقتال المسلمين فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم « وكان لا يصلهم شيء من الأخبار البتة فلهذا سلموا »(٤١) واثناء حصار بعرين تمكنت قوات عماد الدين زنكي من أخذ المعرة وكفرطاب من الصليبيين « وكان الضرر يلحق المسلمين بالفرنج الذين فيهما لتوسطهما البلاد الاسلامية »(٤٢)

الامبراطور البيزنطي يهاجم البلاد الاسلامية ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م :

كان الامبراطور البيزنطي حناكومنين قد تحرك بقواته نحو بلاد الشام واستطاع أن يدخل انطاكيه الصليبية ، وتفاهم مع الصليبيين على أن يحكم الصليبيون انطاكية نيابة عن الامبراطور البيزنطي ، ولم يكن الامبراطور البيزنطي يرغب في تحطيم القوة الصليبية في الوقت الذي كان فيه عماد الدين زنكي يعمل في نشاط ضد الصليبيين وحلفائهم البيزنطيين ، وزحف الامبراطور البيزنطي بقواته « وقصد بزاعه فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب » فاستنجد الحلبيون بعماد الدين زنكي وهو يحاصر حمص ، فأرسل جزءا من قواته الى حلب ليمنعوها من البيزنطيين اذا حاصروها ، في حين شدد الامبراطور البيزنطي الحصار على بزاعه ونصب عليها منجنيقان وضيق على من بها فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨ م ولكن الامبراطور غدر بالمسلمين ، فقتل منهم وأسر وسبى وكان عدد من خرج فيها من أهلها خمسة الاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من أعيانها نحو أربع مائة نفس ليدفعوا عن أنفسهم العذاب والموت ، لأن البيزنطيين كانوا يريدون ابادة المسلمين كافة في هذه المدينة لدرجة انهم بحثوا عن الذين اختفوا من المسلمين فقيل لهم : « ان جمعا كثيرا من أهل هذه الناحية قد نزلوا الى المغارات ،

(٤١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٢ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٧٣
(٤٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٢ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٧٤ ـ ٧٥

فدخنوا عليهم وهلكوا في المغاور »[٤٣] وكان هذا الفعل من البيزنطين والصليبين برهاناً آخر على التعصب الاعمى والرغبة في قتل المسلمين بدون ذنب حتى النسوة والشيوخ والاطفال . وسار البيزنطيون بعد بزاعه الى حلب بعد أن انضم اليهم الفرنج الذين كانوا بساحل الشام « وزحفوا على حلب من الغد في حيهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فقاتلوهم قتالا شديدا فقتل من البيزنطين والصليبين خلق كثير من بينهم بطريق جليل القدر عندهم واقاموا ثلاثة ايام ولم يظفروا بطائل فتركوها وساروا الى قلعة الأتارب فأخلاها المسلمون فملكها الصليبيون والبيزنطيون وتركوا بها سبي بزاعه والاسرى المسلمين ثم رحلوا عنها فلما سمع برحيلهم ابن أسوار نائب عماد الدين بحلب سار ببعض قواته « فأوقع بمن في الأتارب من الروم وخلص الاسرى والسبى وعاد الى حلب »[٤٤]«فسر أهل حلب بهذه النوبة سرورا عظيما »[٤٥]

اما الجيوش البيزنطية الصليبية المتحالفة فانها تحركت بقيادة الامبراطور اليزنطي الى شيزر التي كان يحكمها الامير ابي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني « فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا »[٤٦] فاستنجد صاحبها بالامير عماد الدين زنكي فأجابه عماد الدين بما يقتضيه الواجب الاسلامي بأن سار بقواته اليه ، فنزل على نهر العاصي بالقرب من شيزر واخذ يرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به من المسيحيين المتحالفين ثم أن عماد الدين زنكي أرسل الى الامبراطور البيزنطي قائد الجيوش المسيحية يقول له : « انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقي ، فان ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وان ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها » ولم يكن له بهم قوة وانما كان يرهبهم بهذا القول واشباهه فأثار فرنج الشام على ملك الروم بمصافته وهونوا أمره عليه فلم يفعل وقال اتظنون أنه ليس له من العسكر الا ما ترون ؟ انما هو يريد أن

---

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٦ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٨١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ ثم انظر :
Guillaume de Tyr, I, p. 652,
Runciman, vol, II, p. 215

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧٨ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٧
(٤٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦
(٤٦) ذكر ابن واصل انها ستة عشر منجنيقيا : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ج١ ص ٧٨

تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له »[٤٧]

شجاعة عالم في الاسلام :

ويبدو ان عماد الدين زنكي كان يشعر بضعف قواته امام تحالف الجيوش المسيحية البيزنطية والصليبية ، ولهذا لجأ الى المناورة العسكرية والتهديد عن طريق الرسائل وارسال السرايا كما أرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري الى السلطان مسعود السلجوقي يطلب العون والنجدة ويحثه على الخروج للجهاد ضد الصليبيين الذين أخذوا في تهديد باقي بلاد الشام والعراق ، وكان القاضي كمال الدين قد حذر عماد الدين من الاستعانة بالسلطان مسعود بقوله « اخاف ان تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا وينفذ العساكر ، فاذا توسطوا البلاد ملكوها » فقال الامير عماد الدين : « ان هذا العدو قد طمع في البلاد وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها » قال كمال الدين : « فسرت طالب بغداد وجديت في المسير ، فلما وصلت بغداد وحضرت قدام السلطان وأديت الرسالة بانفاذ العساكر وعرفته عاقبة الاهمال وأنه ليس بينه وبين الروم الا ان يملكوا حلب وينحدروا مع الفرات الى بغداد « فلم يجد عنده حركة » وأنا أخاطب ولا أزد على الوعد شيئا » . ويقول القاضي كمال الدين : فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الامر العظيم احضرت صاحبا لي كان ينوب عني في القضاء وقلت له « خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، واذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وانت معهم واستغاثوا بصوت واحد « واإسلاماه ! وادين محمداه » ويشق ثيابه ويرمي عمامته عن رأسه ويخرج هؤلاء ومعهم الناس من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ويفعلون في جامع السلطان مثله .

فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء فبكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وساروا من الجامع يتبعون الشيخ الى دار السلطان فوجدوا الناس في جامع السلطان قد ثاروا كذلك واحاط أهل بغداد بدار السلطان ومعهم العسكر

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٧ ، النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٧٢ (مخطوط) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٨١ ـ ٨٢ ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧٨ ـ ٧٩

يبكون ويصرخون ويستغيثون « وخرج الامر عن الضبط وخاف السلطان في داره « وقال ما الخبر ؟ » فقيل له : « ان الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة » فقال « احضروا القاضي كمال الدين الشهر زوري . قال القاضي « فحضرت عنده وأنا خائف منه الا انني قد عزمت على صدقه وقول الحق ، فلما دخلت قال : اي فتنة اثرت ؟ فقلت ما فعلت شيئا . أنا كنت في بيتي . وانما الناس يغارون للدين والاسلام ويخافون عاقبة هذا التواني » فقال السلطان : « اردد هؤلاء العامة عنا ، وخذ من العساكر ما شئت والامداد تلحقك » قال : فخرجت الى العامة ومن انضم اليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا ، وانتخبت من عسكره عشرة الاف فارس من خيار العكسر ، وكتبت الى عماد الدين زنكي أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير مسير هذا الجيش اليه ، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك ، فشرعنا في التحميل للرحيل واذ قد وصلني كتاب اتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرني بأن لا استصحب من العسكر احدا ، فلما خاطبت السلطان مسعودا في ذلك أصر على انفاذ العساكر للجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها ، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها ، ولم أزل أحاول مع الوزير وأكابر الدولة حتى عادت عساكر السلطان مسعود من حيث أتت[٤٨] .

وبينما كان عماد الدين ينتظر وصول هذه الامدادات كان يعمل على اثارة الفتنة والشقاق بين المسيحين وكان يرسل الى الامبراطور البيزنطي يوهمه بأن الصليبيين في الشام خائفون منه « فلو فارق مكانه لتخلوا عنه » ويرسل في نفس الوقت الى فرنج الشام يخوفهم من الامبراطور البيزنطي ويقول لهم : ان ملك الروم بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا » فاستشعر كل من صاحبه فرحل الامبراطور البيزنطي من شيزر وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فتبعه زنكي بقواته وأخذ يهاجم ساقه (مؤخرة جيوشه) فظفر بكثير ممن تخلف منهم وأخذ جميع ما تركوه [٤٩] .

---

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٧ - ٥٩ ، ابن واصل مفرح الكروب ج١ ص ٧٩ - ٧١

(٤٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج١ ص ٨١ - ٨٢ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٨١ - ٨٤ ، النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٧٢ ثم انظر :

Guillaume de Tyr ,p. 656; Runciman : vol, II, p. 216 Setton vol, I. p. 440

لما علم الخليفة العباسي الامام المقتفي لامر الله أمير المؤمنين برحيل الروم والصليبيين عن شيزر أرسل رسوله مؤيد الدين سديد الدولة بن الانباري كاتب الانشاء ورسول السلطان مسعود السلجوقي ومعه الخلع تكريماللاتابك عماد الدين زنكي على جهوده في قتال الصليبيين ، فلبس عماد الدين خلعة الخليفة والسلطان وأصبح الاتابك عماد الدين عظيم المنزلة عند المسلمين ومفوضا رسميا من الخليفة العباسي والسلطان مسعود السلجوقي في حكم البلاد والجهاد ضد اعداء الاسلام(٥٠) فزادت مكانته في نظر المسلمين بعد ثباته امام البيزنطيين والصليبيين . وفي المحرم من سنة ٥٣٣ هـ/ سبتمبر ١١٣٨ م وصل عماد الدين الى حلب واستقر أهلها وأهل حماه وأهل منبج على حصن بزاعه حتى فتحه بالسيف وقتل كل من فيه من الروم والفرنج وجمعت رؤوس القتلى وبنيت منها منارة أذن عليها»(٥١).

موقف عماد الدين من القوى الاسلامية الضعيفة :

فكر عماد الدين في الاستيلاء على شهرزور وبعلبك بهدف تقوية دولته وكانت شهرزور وتوابعها في يد قفجاق من ارسلان باش التركماني ، وكان نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم وكان الملوك يتحامون قصد ولايته لحصانتها « فعظم شأنه وازداد جمعه » ولكن لم يجاهد ضد اعداء المسلمين فقصده عماد الدين وهزم عسكره وملك بلاد شهرزور واضافها الى ولايته وأصلح احوالها وخفف عن أهلها المظالم واقام العدل بينهم ، ثم سار الى دمشق لأن شهاب الدين محمودا لما قتل بدمشق حزنت عليه أمه زمرد خاتون حزنا شديدا ، فأرسلت الى عماد الدين تطلب منه أن يسير الى دمشق وأن يثأر لها من قتلة ابنها شهاب الدين ، فتحرك عماد الدين بقواته وسار الى دمشق « فاستعد معين الدين أنر بدمشق واستكثر من الذخائر والعدد والرجال ، ولم يتركوا شيئا يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد في تحصيله واقاموا ينتظرونه » فلما علم عماد الدين بما فعلوا سار الى بعلبك ، وكان الامير جمال الدين محمد بن بوري لما ملك دمشق بعد أخيه شهاب الدين قد أقطع بعلبك لمعين الدين أنر

(٥٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٨٣
(٥١) نفس المؤلف والمصدر والصفحة

فاستناب فيها معين الدين من يتق اليه فجد عماد الدين في محاصرتها « ونصب عليها أربعة عشر منجنيقا ترمي ليلا ونهاراً » فاشرف من بها على الهلاك فطلبوا الامان وسلموا اليه المدينة وبقيت القلعة وفيها جماعة من الشجعان فقاتلهم عماد الدين فلما يئسوا من النصر طلبوا الامان فأمنهم فسلموا اليه القلعة ولكنه عذبهم « فاستقبح الناس منه ذلك واستعظموه وخافوه وحذروه » لا سيما أهل دمشق فانهم قالوا : « لو ملكنا لفعل بنا كذلك فجدوا في محاربته »[٥٢] ولكن الاتابك عماد الدين كان يعتقد أن توحيد القوى الاسلامية وخصوصا في بلاد الشام هي الخطوة الاولى التي يجب أن تسبق أية جهود حربية فعالة ضد الصليبيين ولذلك بدأ يفكر في أخذ دمشق لقربها من الصليبيين وخوفه عليها منهم ، ولذلك سار اليها بعد ان استولى على بعلبك سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م ونزل بالبقاع وأرسل الى جمال الدين متولي امر دمشق يبذل له بلدا يقترحه ليسلم اليه دمشق ، فلم يجبه الى ذلك فتقدم عماد الدين نحو دمشق ونزل داريا في ثالث عشر من ربيع الاول ٥٣٤ هـ/ نوفمبر ١١٣٩ م « فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيون منهزمين » وتابع عماد الدين التقدم الى دمشق « ولقيه جمع كثير من جند دمشق واحداثها ورجالة الغوطة فقاتلوه ، فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف فقتل فيهم وأكثر وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحا » وكادت تسقط دمشق في يد عماد الدين ولكنه كف عن القتال اياما وتابع الرسل الى صاحب دمشق « وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال الى التسليم ، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك ، وخوفوه عاقبة فعله » فلم يسلم البلد الى عماد الدين ، فعاود القتال والزحف من جديد ، واستمر القتال بين الفريقين الى شعبان من سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩م ، وحدث أن توفي جمال الدين صاحب دمشق في الثامن من شعبان وطمع الامير عماد الدين في دمشق « وزحف اليه (أي دمشق) زحفا شديدا » ولكن ولي بعد جمال الدين ابنه مجير الدين ابق وتولى تدبير دولته معين الدين أنر الذي بدأ يراسل الصليبيين من أجل مساعدته « واستدعاهم الى نصرته وأن يتفقوا على منع زنكي عن دمشق وبذل لهم بذولا من جملتها أن يحصر بانياس ويأخذها (من

---

(٥٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٨٥ ـ ٨٦ ،
ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٦٨ ـ ٦٩ ، ٧٥ ـ ٧٦ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٨٥ ـ ٨٦

المسلمين) ويسلمها اليهم وخوفهم من زنكي أن ملك دمشق فعلموا صحة قوله انه إن ملكها لم يبق لهم معه بالشام مقام »[٥٣] فاجتمعت القوات الصليبية وقرروا المسير الى دمشق لمعاونة حليفهم حاكم دمشق وقتال عدوهم المشترك عماد الدين زنكي الذي علم بتحركات الصليبيين فسار الى حوران في الخامس من رمضان ٥٣٤ هـ/ مايو ١١٤٠ م « عازما على قتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين ، فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم »[٥٤] لشدة خوفهم من المجاهد عماد الدين في حين عاد عماد الدين الى حصار دمشق من جديد ولكنه رحل عنها عائدا الى بلاده وأجل موضوع دمشق الى وقت آخر لاحساسه بضعف قواته امام هذا التحالف ، حدث هذا في نفس الوقت الذي وصل فيه الصليبيو ن الى دمشق واجتمعوا مع اتابك دمشق الذي أرسل معين الدين أنر الى بانياس في عسكر دمشق ليأخذها ويسلمها للصليبيين،وكانت من بلاد عماد الدين فنازلها معين الدين أنر « ومعه طائفة من الفرنج » فأخذها وسلمها الى الصليبيين وهذا أسوأ ما يفعله ولي امر جماعة من المسلمين من أجل المحافظة على عرشه ومركز حكمه يضحي بارض الاسلام في سبيل استمراره في الحكم ، ولما سمع عماد الدين اخبار حصار الدماشقة والصليبيين لبانياس عاد الى بعلبك ليدفع عن بانياس من يحصرها ، ولكن سقوط بانياس في أيدي الدمشقيين والصليبيين أغضب عماد الدين وزاد من غضبه أن يتحالف حاكم مسلم مع الصليبيين ضد المسلمين ، ولهذا سار بقواته « فنازل دمشق سحرا ولا يعلم به أحد من أهلها ، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتج البلد » وخرج أهل دمشق لقتاله « فلم يمكن الامير عماد الدين عسكره من الاقدام عليهم ، لغيبة أكثر عسكره في الاغارة وتفرقهم »[٥٥] وعاد الأمير عماد الدين بقواته الى بلاده ، وليس غريبا أن يتعاون الصليبيو ن مع بعض الحكام المسلمين من أجل اثارة الشقاق بين المسلمين وبذل الوهن في صفوفهم بما يتيح للصليبيين فرصة البقاء للاحتلال الصليبي ، وأن يكونوا في مركز القوة بعكس ما

---

(٥٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٧٣ - ٧٤ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٨٧ - ٨٨

(٥٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٧٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ح١ ص ٨٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ٢٦٨ ثم انظر Guillaume de Tyr, pp. 668-669

(٥٥) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٧٤ - ٧٥ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٨٨ - ٨٩ ، اسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٩ ، ١٩٦

ينبغي أن يكون عليه المسلمون من وحدة في الصف والهدف وان يكونوا امة واحدة على من هم سواهم ، ويؤكد على هذا الموقف ما فعله حاكم دمشق والقائم بامر دولته معين الدين أنر الذي دخل في تحالف مع فولك ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ، وعقد معهم اتفاقا ضد المسلمين ، واشار ابن القلانسي الى تلك الاتفاقية بقوله : « وقد كان تقرر الامر مع الفرنج على الاتفاق والاعتضاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج في دفعه (عماد الدين زنكي) والاختلاط في صده عن مراده ومنعه ، ووقعت المعاهدة على ذلك بالايمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه والتمسوا على ذلك مالا معينا يحمل اليهم ليكون عونا لهم على ما يحاولونه وقوة ورهيناً تسكن بها نفوسهم ، واجيبوا الى ذلك ، وحمل المال والرهائن من اقارب المقدمين. . . »[56] وتعهد الدين أنر بدفع عشرين الف دينار شهريا طيلة مدة الحملة الصليبية ، ولم يكتف معين الدين أنر بذلك بل قام بزيارة ملك بيت المقدس في بلاطه ، وقد تمت الزيارة في جو مشبع بروح الود وحسن التفاهم وتبادل عبارات الاخلاص من الفريقين ، كما تبادلا الهدايا وقام معين الدين أنر بجولة في المدن الصليبية لاظهار المودة وتوثيق عرى التحالف بين الجانبين[57] وكان من أثر هذا التحالف ما ذكرناه من تأخير استيلاء عماد الدين على دمشق ، وهنا نذكر أن موادعة ومحالفة الاعداء ضد المسلمين من الامور التي حرمها الاسلام وحذر من عواقبها ومن ثم يمكننا القول أن الامير عماد الدين زنكي كان على حق في مهاجمة دمشق من أجل ضمها للجبهة الاسلامية الموحدة التي ستكون القوة التي تهدد الوجود الصليبي في المنطقة ، وبقي عماد الدين يراقب الاحوال ويزيد في قواته ويوسع بلاده ،ففي سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م ملك الحديثة وخطب له في آمد وصار صاحبها في طاعته ، كما هاجمت قوات عماد الدين في هذه السنة بلاد الفرنج «فنهبوا وظفروا بسرية للفرنج فقتلوا منهم نحو سبعمائة»[58] كما تم الاتفاق بين عماد الدين والسلطان مسعود بن محمد السلجوقي وكان السلطان مسعود قد حقد على عماد الدين حقدا شديداً ولكن ذكاء عماد الدين جعله يتجنب الصدام مع السلطان مسعود وتنقلت الاحوال بالسلطان الى أن احتاج

(٥٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢
(٥٧) اسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ - ١٣٩
(٥٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٠

الى مداراة عماد الدين» وكان هذا الموقف مفيدا لعماد الدين حيث تفرغ للجهاد ضد الصليبيين، وبدأ هذه المرة يفكر في فتح الرها من بلاد الجزيرة[٥٩].

فتح الرها ٥٤٠ هـ/ ١١٤٤ م :

سار الامير عماد الدين زنكي الى جهاد الصليبيين « وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها ، ووصلت غاراتهم الى ادانيها وأقاصيها ، وبلغت آمد ونصيبين ورأس عين والرقة » وكان الامير عماد الدين يعلم أنه اذا سار مباشرة لقتال امارة الرها الصليبية ، فان القوات الصليبية سوف تجتمع من كل النواحي للدفاع عنها علاوة على حصانتها وقوتها « فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد بلادهم » فلما رأى الصليبيون منه هذا « اطمأنوا وفارق جوسلين الرها (حاكم الرها) وعبر الفرات الى بلاد الغربية ، فجاءت عيون أتابك اليه فاخبرته فنادى في العسكر بالرحيل ، وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وجمع الامراء عنده وقال : قدموا الطعام ، وقال : لا يأكل معي على مائدتي هذه الا من يطعن غدا معي على باب الرها ، فلم يتقدم اليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف . لما يعلمون من أقدامه وشجاعته وان احدا لا يقدر على مساواته في الحرب فقال الامير لذلك الصبي : ما أنت في هذا المقام ؟ فقال أتابك : دعه فوالله اني أرى وجها لا يتخلف عني »[٦٠] وكان الاتابك عماد الدين التمس عذرا لمهاجمة الرها في أن جوسلين الثاني تحالف ضد عماد الدين مع بني أرتق في ديار بكر ، ولهذا بدأ الأمير عماد الدين يهاجم بلاد الأراتقة في ديار بكر ليوهم الصليبيين انه لا يريد قصد بلادهم ، ثم سار بقواته الى ناحية الرها وحاصرها في ٢٨/ ١١/ ١١٤٤م/ ٥٤٠ هـ ، وكان هو أول من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبي ، ونازل الرها وقاتله ثمانية وعشرين يوما « فزحف اليه عدة دفعات وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ، ولح في قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه ، فسقطت البدنة التي نقبها النقابون ، وأخذ البلد عنوة وقهرا وحصر قلعته فملكها ايضا ، وكان سقوطها في ٢٣/ ١٢/ ١١٤٤م/ ٥٤٠هـ

---

(٥٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٠ ـ ٩١ ،
ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٩٣ ـ ٩٤ ،
ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٩٢ ـ ٩٣

(٦٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٩٣

رغم « ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبيها »[٦١]

ولقد أعجب عماد الدين زنكي بالرها « ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة »[٦٢] فأمر فنودي في العساكر برد ما اخذوه من الرجال والنساء والاطفال الى بيوتهم واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم « فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منهم أحد الا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من أخذه العسكر ، فعاد البلد الى حاله الاول وجعل فيه عسكر يحفظه »[٦٣] فاطمأن أهل الرها الاصليين على احوالهم وبقيت المدينة مسيحية الطابع معظم سكانها من المسيحيين الشرقيين الارمن والسريان مع العلم بأن هؤلاء كانوا في غاية الاخلاص في تأييد ومناصرة المسيحيين الغربيين ، وفي هذه المرة اظهروا تضامنا قويا مع الصليبيين الغربيين[٦٤]

وكان سقوط الرها في يد عماد الدين يعني انهيار أول امارة أسسها الصليبيون في الشرق ، وأن هذه الخطوة من جانب عماد الدين كانت « فتح الفتوح » وبالنسبة للصليبيين كانت « الخطوة الاولى في هدم البناء الذي شيده الفرنج بالشرق[٦٥] » ويعني ايضا ظهور قوة اسلامية قوية ادت الى ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين ، بل تأييدهم لجهود عماد الدين في الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم ، وكذلك اتبع عماد الدين الرها بالاستيلاء على سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الصليبيين شرقي نهر الفرات ما عدا البيره[٦٦]

استيلاء المسلمين على البيره :

وكانت البيرة من املاك جوسلين الثاني « وكان الفرنج قد اكثروا ميرتها

(٦١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ،
ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٩٨ - ٩٩ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٣ - ٩٤
(٦٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٩٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٤
(٦٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ص ٩٩ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٩٥
(٦٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩
(٦٥) Cambridge Medieval History, vol, 5, p. 307.
(٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٤

ورجالها » وشرع الاتابك عماد الدين في حصار البيرة ولكنه اضطر الى رفع الحصار عنها عندما علم بمقتل نائبه نصه الدين في الموصل ، وأرسل الامير زين الدين علي كوجك الى الموصل لاقرار الامور فيها « وجعله واليا على ما كان نصير الدين يتولاه »(٦٧) أما أهل البيرة من الصليبيين فانهم كانوا يخافون من عودة عماد الدين اليهم « وكانوا يخافونه خوفا شديدا » فرأوا انه من الأسلم لهم أن توضع قلعة البيرة تحت حماية حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي امير ماردين وابنه نجم الدين ، فكاتبوا صاحب ماردين بذلك وسلموها اليه فملكها المسلمون ولم يبق شيء مما هو شرقي الفرات بيد الفرنج(٦٨)

وكان من أهداف الصليبيين بتسليم قلعة البيرة لصاحب ماردين هو اقامة مودة وتحالف مع الأراتقة في الشمال (في ماردين) وكان الأراتقة يريدون الحد من نفوذ عماد الدين زنكي ، كما ان الدماشقة كانوا في تحالف مع الصليبيين ، ولهذا لم يكد الامير عماد الدين يفرغ من القضاء على فتنة الموصل حتى أعد حملة عسكرية الهدف منها الجهاد ضد الصليبيين في حين يرى ابن العديم ان خطة عماد الدين كانت تتجه الى محاربة دمشق ، ولكن قبل أن تحقق هذه الحملة الهدف المطلوب علم الامير عماد الدين زنكي بتآمر الأرمن في الرها ، وكاتبوا جوسلين الثاني وطلبوا سرعة حضوره لهم بنية « الايقاع بمن فيها من المسلمين » والتخلص من الحامية الصغيرة التي تركها عماد الدين في الرها بعد استيلائه عليها ، وكان عماد الدين قد أحسن الى هؤلاء الأرمن واعادهم الى ما كانوا عليه في المدينة ولكن المسيحيين الشرقيين اثبتوا عبر كل الاحداث تعاونهم مع المسيحيين الغربيين ورابطتهم مع اخوانهم في الدين ولم يكن لرابطة المكان او الجوار أو الأصل اثر في سياستهم فغضب عماد الدين لهذا الموقف ، واسرع الى الرها وأعدم المتآمرين وطرد جزءا من سكان الرها الارمن وأحل محلهم ثلثمائة أسرة من اليهود ، لأن هؤلاء اليهود كانوا من اعداء المسيحيين في ذلك الوقت(٦٩)

(٦٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٠١ - ١٠٢ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٦
(٦٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٦
(٦٩) ابن العديم : زبدة الحلب . (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية) p. 687-688
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ ثم انظر : Micheal le Syrien, pp. 267-268.

مقتل الشهيد عماد الدين زنكي :

سار عماد الدين زنكي في سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م الى قلعة جعبر وصاحبها يومئذ مالك بن سالم بن مالك بن بدر العقيلي ، وحاصرها وأرسل جيشا اخر الى قلعة فنك وحاصرها وصاحبها يومئذ الامير حسام الدين الكردي البشنوي « وكان قصد عماد الدين بأن لا يترك قلعة في اعماله متوسطة في بلاده الا ويستولي عليها مبالغة في الحزم والاحتياط » ولكن عماد الدين زنكي « طالت مدة حصره لقلعة جعبر ولم يتيسر له فتحها » وبقي محاصرا لها وفي اثناء ذلك في ليلة الأحد السادس من ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م دخل على الاتابك عماد الدين صبي من غلمانه افرنجي اسمه برنقش ومعه جماعة وقتله على فرّاشه وهرب ومن معه الى قلعة جعبر وأخبروا أهلها بقتله ففرحوا بذلك(٧٠)

وحكى ابن الاثير عن أبيه عن بعض خواص عماد الدين قال : « دخلت اليه في الحال وهو حي فحين رآني ظن اني أريد قتله . فأشار الي باصبعه السبابة يستعطفني فوقفت من هيبته ، وقلت يا مولانا : من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه لوقته »(٧١)

وبقتله خسر المسلمون مجاهدا عظيما « فانه كان لا يرى المقام بل لا يزال ظاعنا ، أما لرد عدو يقصده ، واما لقصد بلاد عدو ، وأما لغزو الفرنج وسد الثغور ، وكانت مباشر السروج آثر عنده من وثير المهاد ، والسهر في حراسة المملكة أحب اليه من عرض الوساد ، وأصوات السلاح ألذ في مسمعه من الغناء ، لا يجد لذلك كله عناء »(٧٢)

ويقول ابو شامه في سيرته « وكانت من أحسن سير الملوك واكثرها حزما وضبطا

---

(٧٠) يروي ابن العديم انهم استبكروا قتله وصاحوا على القاتل « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله »
انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ص ٦٨٨
ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٠٩ ـ ١١٠

(٧١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٠٩ ـ ١١٠ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٩٩ ـ ١٠٠ ؛
ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٠٧ ـ ١٠٩

(٧٢) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٨٥

للأمور ، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف » قال : وكان ينهي اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول : مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد عن ايدينا فان الاملاك تذهب معها ، ومتى صارت الاملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم » وكان يصل اليه كل يوم من عيونه عدة كتب ، وكان مع اشتغاله بالامور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير ، وكان يقول : « اذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا »(٧٣) وكان حريصا على هيبة دولته ويقول : ان البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها »(٧٤)

« واما شجاعته واقدامه فاليه النهاية فيهما وبه كانت تضرب الامثال ويكفي في معرفة ذلك جملة ان ولايته أحدق بها الاعداء والمنازعون من كل جانب » وأما غيرته فكانت شديدة ولا سيما على نساء الأجناد فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها(٧٥)

---

(٧٣) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٠٩ ـ ١١١
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٠٠ ـ ١٠١
(٧٤) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١١١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٠٢
(٧٥) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١١٢ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ١٠٣

الفصل الثامن

جهادُ نورالدّين ضدَّ الصَّليبيّين

أحوال دولة عماد الدين زنكي بعد وفاته - الرها تعلن العصيان على المسلمين - انهيار التحالف بين دمشق والصليبيين - الحملة الصليبية الثانية وموقف المسلمين منها - نور الدين يهاجم امارة انطاكية الصليبية ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م - استيلاء نور الدين على حصن افاميه ٥٤٥ هـ / ١١٥٠م - هزيمة نور الدين امام الصليبيين سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م - أسر جوسلين الثاني ٥٤٦ هـ / ١١٥١م - سقوط عسقلان في يد الصليبيين ٥٤٧ هـ / ١١٥٣م وتهديد دمشق - هجوم نور الدين على حارم ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م - استيلاء نور الدين على بعلبك - موقعة البقعة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣م.

جهاد نور الدين ضد الصليبيين

احوال دولة عماد الدين زنكي بعد وفاته :

لما قتل الاتابك عماد الدين زنكي كان ابنه نور الدين محمود حاضرا معه ، فأخذ خاتم والده من يده ، وسار الى حلب فملكها وسار شقيقه سيف الدين غازي بن عماد الدين الى الموصل . وكان يعاونهما اثنان من رجال عماد الدين زنكي الأوفياء هما جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني « وهو المنفرد بالحكم » ورئيس ديوان زنكي والرجل الثاني صلاح الدين محمد الياغيسياني أمير حاجب وبفضل معونة الاخير تمكن نور الدين محمود من تثبيت اقدامه في حلب في حين تمكن شقيقه سيف الدين غازي من تثبيت اقدامه في الموصل بفضل مساعدة جمال الدين محمد الاصفهاني وبذلك انقسمت دولة عماد الدين بين ولديه نور الدين محمود وسيف الدين غازي ، وكان الحد الفاصل بين املاك الاخوين هو نهر الخابور[1] واستقر الملك بالموصل لسيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ، وأرسل اليه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي الخلع وأقره على البلاد « وكان السلطان مسعود يحبه ويأنس به . فلم يتوقف في تقرير البلاد له والحلف له »[2] واما مملكة نور الدين محمود وقاعدتها حلب ، فقد كان على نور الدين ان يواجه الاعداء من الامراء المحليين في الداخل والصليبيين في الخارج لأن تقسيم الدولة الزنكية بين نور الدين وسيف الدين غازي

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١١٢ - ١١٣ ، نفس المؤلف التاريخ الباهر ص ٨٤ - ٨٥ ، النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٧٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٠٦ - ١٠٨ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١١٩ - ١٢٢ . ثم انظر Stevenson: p. 154

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٠٩ .

ابناء عماد الدين أتاح فرصة طيبة لاعداء الدولة الزنكية ، أما في الجنوب فقد أسرع معين الدين أنر بارسال قواته من دمشق واحتل بعلبك ، وكانت في حكم نجم الدين أيوب نائبا عن عماد الدين كما تمكنت قوات دمشق من اخضاع حمص وحماه . وفي الشرق استرد الأراتقة المدن والبلاد التي أخذها منهم عماد الدين في ديار بكر اما الجانب الصليبي فان ريموند أمير انطاكيه قام بحملة على حلب وتمكن من الوصول الى اسوار المدينة في حين استعد جوسلين الثاني لأخذ الرها واستردادها [٣] هذا بالاضافة الى ظهور الوحشة بين نور الدين من ناحية واخيه سيف الدين غازي من ناحية اخرى ، وسبب ذلك أن سيف الدين غازي لما فرغ من اصلاح امر السلطنة ببلاده ، عبر الى الشام لينظر في احوالها ويقرر القاعدة بينه وبين اخيه نور الدين وهو في حلب ، وتأخر نور الدين عن الحضور لمقابلة اخيه وخافه « فلم يزل يراسله (سيف الدين) ويستميله . فكلما طلب نور الدين شيئا اجابه اليه استمالة لقلبه ، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا » لتصفية الامور بينهما « فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه ، وأمر أصحابه بالعود عنه ، فعادوا ، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجيء الي أكنت تخافني على نفسك ؟ والله ما خطر ببالي ما تكره ، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش ، وبمن اعتضد اذا فعلت السؤ مع أخي واحب الناس الي !! فاطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد الى حلب فتجهز وعاد بعسكره الى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده ، وقال لاغرض لي في مقامك عندي ، وانما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا فمن يريد السؤ بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه ، الى أن قضيا ما كانا عليه ، وعاد كل واحد منهما الى بلده »[٤]

---

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٠٩ ـ ١١٠ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١١ ـ ١١٢ ، ابو شامه : الروضتين ح١ ص ١٢٢ ـ ١٢٣

الرها تعلن العصيان على المسلمين :

ترتب على وفاة عماد الدين زنكي أن طمع الصليبيون في أملاك المسلمين ، كما حاول امراء مسلمون استغلال هذا الظرف للتوسع على حساب املاك عماد الدين وليس على حساب الصليبيين ، بل ان بعضهم تعاون مع القوات الصليبية في سبيل الحفاظ على كيانه من ناحية وضم اراض جديدة من املاك دولة عماد الدين من ناحية اخرى ، ومن هؤلاء صاحب انطاكيه ريموند في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب ، اتصل خبر مقتل الاتابك عماد الدين ، فخرج في نفس اليوم ريموند في جيش انطاكيه وجعل عسكره قسمين احدهما سيره الى جهة حماه وقسما اخر اغار به على جهة حلب «وعاث في بلادها وكان الناس آمنين فقتل وسبى عالما عظيما » ووصل الخبر بهذا الحال الى حلب ، فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان في حلب من الجيش وجد في السير ليواجه الصليبيين حتى لا يشعروا بضعف في المسلمين ، فأدرك جماعة من الفرنج « الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيرا مما كانت الفرنج أخذته » ثم تابع سيره حتى هاجم حصن ارتاح[٥] واستولى على جميع ما للفرنج فيه وعاد الى حلب مظفرا[٦]

أما عن عصيان أهل الرها على المسلمين في عهد نور الدين محمود فان جوسلين الثاني كان يقيم في تل باشر « فراسل أهل الرها وعامتهم من الارمن وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين وتسليم البلد »[٧] فأجابوه الى ذلك وواعدهم على يوم يصل اليهم فيه وجمع العساكر من كل ناحية ومعه بلدوين حاكم مرعش ، وقصد مدينة الرها على غفلة في اواخر اكتوبر ١١٤٦ م/ ٥٤١ هـ وتمكن من احتلال المدينة « وقتل من فيها من المسلمين »[٨] ولكن جوسلين الثاني لم يستطع احتلال قلعة

---

(٥) حصن من اعمال حلب كان يعد من العواصم : معجم البلدان ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٦) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ح١ ص ١١٠ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١١٤ ، ابو شامه : الروضتين ح١ ص ١٢٥

(٨) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٢٥ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١١٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ح١ ص ١١٠ ـ ١١١ ، ثم انظر :

Guillœume de Tyr I, pp. 728- 729

Grousset : Histoire des croisades, II p. 198

Runciman: vol, II pp. 239- 240

المدينة « وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين »[٩] وكانت حاميتها من السلاجقة الاتراك فقاتلهم جوسلين ولكن بدون فائدة ، فأرسل جوسلين يطلب النجدة من أميري انطاكيه وطرابلس والوصية على عرش بيت المقدس « فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكي وهو بحلب » ولم يقبل الانتظار او التريث أو التعلل بالاعذار ، بل نهض في عسكره « ومن انضاف اليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة الاف فارس ، ووقعت الدواب في الطرقات من شدة السير »[١٠] ووصلوا الى الرها وحاصروها ، فاشتد الحال على جوسلين الثاني والصليبيين وقد وقعوا بين نار المدافعين عن قلعة الرها في الداخل ومهاجمة جيش نور الدين لهم من الخارج ، وما كان من جوسلين الثاني الا أن قرر الهروب مع فرسانه ، ولكن فرسان السلاجقة المسلمين لاحقوهم وقتلوا ثلاثة ارباعهم ، وكان من جملة القتلى بلدوين حاكم مرعش في حين أصيب جوسلين الثاني بجرح في رقبته ولم يتمكن من الوصول الى سميساط الا بصعوبة ، واما نور الدين فقد دخل المدينة وعاقب المتآمرين وأخذ جمعاً كبيرا منهم أسرى وخلت الرها من أهلها ولم يبق منهم الا القليل[١١] وكانت الرها من ضمن املاك سيف الدين غازي بالموصل ، فلما بلغه خبر الصليبيين وما فعلوه جهز العساكر الى الرها ، فوصلت وقد تمكن جيش نور الدين من دخول المدينة « فبقيت في يده ولم يعارضه فيها اخوه سيف الدين »[١٢]

وهكذا هزم الصليبيون في الرها هذه المرة هزيمة أشد من هزيمتهم الاولى ايام فتحها الشهيد عماد الدين زنكي سنة ١١٤٤ م/ ٥٤٠ هـ وكان من آثار هذه الحادثة أن غضب المسيحيون لضياع الرها وفشل محاولة الاستيلاء عليها ، وثار شعور أهل الغرب الاوربي ونادوا بضرورة تكاتف الجهود الصليبية في الشرق والغرب للقضاء

---

(٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١١٤

(١٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١١٤ ، نفس المؤلف : التاريخ الباهر ص ٨٦ ، ابو شامه : الروضتين ح ١ ص ١٢٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١١١ .

(١١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١١٤ ـ ١١٥ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١١١

Guillaume de Tyr, I pp. 731-732;

Michel Le Syrien, III 270

(١٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١١١

على المسلمين وتأديبهم ، وبعث الروح المعنوية عند الصليبيين ، ومن ثم بدأ الاعداد للحملة الصليبية الثانية في حين كان السلطان نور الدين محمود قد شرع في الجهاد دون تباطؤ ، وحتى لا يعطي الصليبيين فرصة للشك في قدرات المسلمين وقوتهم في الجهاد ، وحتى لا يدخل الوهن في قلوب المؤمنين . واستطاع في الفترة من ٥٤٢ - ٥٤٣ هـ/ ١١٤٧ - ١١٤٨م أن يستولي على عدة قلاع هامة مثل بسرفوت وارتاح والأتارب وكفرلاتا ، فكان ذلك الوضع مبشرا بالخير للمسلمين مخيبا لآمال الصليبيين ، ومن دخل معهم في موادعة[١٣] « وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا ، وظنوا أنهم بعده يستردون ما اخذه ، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في اوُل أمره علموا أن ما أملوه بعيد »[١٤]

انهيار التحالف بين دمشق والصليبيين :

حاول نور الدين محمود منذ توليته الامور بعد وفاة والده عماد الدين ان يركز جهوده لقتال الصليبيين . وفي نفس الوقت عمل على استمالة القوى الاسلامية المتعددة في شمال العراق وفي الشام ومحاولة كسب ودها وصداقتها من أجل تقوية الجبهة الاسلامية لتستطيع مواجهة العدوالصليبي ، كما أظهر الاحترام لسيف الدين غازي حاكم الموصل[١٥] بل أن نور الدين حاول استمالة حكام دمشق بهدف تهدئة النفوس ولم الشمل وترتب على هذه الجهود توقيع اتفاقية صلح بين نور الدين من ناحية ومعين الدين أنر من ناحية اخرى ، عقدت في دمشق في مارس سنة ١١٤٧ م/ ٥٤١ هـ[١٦] ولكي يؤكد نور الدين هذا الاتفاق واظهار حسن النوايا فانه تزوج من ابنة معين الدين أنر وكان هدفه جمع كلمة المسلمين من أجل الجهاد ولم يدرك الصليبيون خطر هذا التقارب[١٧] وكان معين الدين أنر الشخصية القوية في دمشق

---

(١٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٧
Setton : History of the crusades, vol I p. 466, Runciman: vol, II pp. 240—241
(١٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ص ١٢٢
(١٥) Setton : vol I pp. 513- 514
(١٦) النويري : نهاية الارب ح٢٥ ورقة ٨٠ (مخطوط) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١١ - ١١٢ ثم انظر stevenson: p. 157
(١٧) د . حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٤٣

وصاحب السلطة العليا فيها ويقوم بتوجيه سياسة الاتابك مجير الدين أبق الذي كان لا يزال صغيرا ، وبالرغم من التحالف بينه وبين نور الدين . إلا أنه أبقى على التحالف مع الصليبيين أيضا من أجل حفظ ميزان القوى ، وهدفه الاستفادة من الجانبين عند الضرورة ، بل كان يخشى من دولة آل زنكي على نفسه اكثر من خشيته من الصليبيين ، ومن ثم استمر في اخلاصه لبلدوين الثالث الصغير وأمه مليزاند الوصية عليه ، وكان بدأ هذا التحالف مع الملك فولك من قبل[١٨] ولم يحاول معين الدين أُنر اثارة نور الدين وخصوصا بعد زواج نور الدين من ابنته « واستقرت الحال بينهما على اجل صفه » ولم يحاول نور الدين التوسع جهة الجنوب في حين حاول معين الدين أُنر الاحتفاظ بتحالفه مع الصليبيين ، ولكنهم نقضوا هذا التحالف عندما دخلوا في اتفاق مع حاكم بصرى وصرخد « التونتاش » الذي ذهب إلى بيت المقدس سنة ١١٤٧ م / ٥٤١ هـ يطلب معونة الصليبيين وعرض عليهم أن يتسلموا صرخد وبصرى مقابل معونتهم له في الاستقلال بحوران التابعة لدمشق « وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق » ووافق بارونات بيت المقدس على هذا العرض ، واستعدوا لارسال جيش صليبي الى طبريه لتنفيذ الخطة المتفق عليها[١٩] ولكن الامير معين الدين أُنر حال بينه وبين العود الى أحد الحصنين كما أن معين الدين أرسل الى الصليبيين في بيت المقدس يحذرهم من أن سياستهم تلك ستؤدي الى انهيار التحالف معهم ، بل وتزيد في التقارب مع نور الدين ، ولكن الصليبيين لم يهتموا بهذا التحذير وزحفوا بقواتهم بقيادة الملك بلدوين الثالث الذي بلغ السادسة عشرة من عمره ، وساروا من طبريه الى حوران في مايو ١١٤٧ م/ ٥٤١هـ ، وخرج معين الدين أُنر بقواته لسد طريق بصرى وصرخد في وجوههم « وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة فأجابه »[٢٠] ووصل بقواته الى دمشق في السابع والعشرين من ذي الحجة ، فأقام اياما يسيرة ثم سار منها نحو صرخد « ولم يشاهد احسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته »[٢١]

---

(١٨) Guillaume de Tyr, I, p. 716;
Grousset: Histoire des croisade , I, pp. 209- 211
Stevenson : p. 158

(١٩) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٢٩ ـ ١٣٠

(٢٠) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٢٩ ـ ١٣٠

(٢١) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٣٠

واجتمع العسكران واسرعا للاستيلاء على بصرى قبل أن يستولي عليها الصليبيون « وارسل من بصرخد اليهما يلتمسون الأمان ، والمهلة اياما وتسلم المكان ، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة الى أن يصل عسكر الافرنج لترحيلهم[٢٢] » ثم أجبر أهلها على الاستسلام ولم يستطع الصليبيون تحقيق أي هدف في هذه الجولة ، وعاد الجيش الحلبي والدمشقي الى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم ٥٤٢ هـ/ يونيه ١١٤٧ م في حين لم يتمكن الصليبيون من العودة الى بيت المقدس الا بعد كثير من المصاعب والمتاعب[٢٣] وهنا يجب الاشارة الى نهاية التونتاش والي صرخد الذي صانع الصليبيين واستمالهم ضد المسلمين ، فانه بعد فشل الصليبيين في احتلال صرخد ومناصرته لهم ضد المسلمين « فانه خرج من صرخد الى الفرنج بجهله وسخافة عقله ، الى دمشق من بلاد الافرنج من غير أمان ولا تقرير واستئذان توهما منه انه يكرم ويصطنع » فلما وصل الى دمشق قبض عليه واعتقل في الحال واعتبر مجرما « بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام » وعقد له مجلس حضره الفقهاء والقضاة واوجبوا عليه القصاص ، فسمل واطلق الى دار له بدمشق فأقام بها[٢٤] والذي نركز عليه هنا في هذا الموقف هو اعتبار مثل هذا الخائن للمسلمين ، المتعاون مع الصليبيين مرتدا عن الاسلام لولايته ومحالفته لاعداء الاسلام ووقوفه معهم ضد المسلمين .

الحملة الصليبية الثانية وموقف المسلمين منها :

كان لسقوط الرها في يد المسلمين رد فعل عنيف عند المسيحيين في الشرق والغرب لأنها كانت اول امارة صليبية أسسها الصليبيون في الشرق علاوة على مكانتها الدينية عند المسيحيين ، وكان لسقوطها اعظم الأثر في الاعداد للحملة الصليبية الثانية من أجل انقاذ الوجود الصليبي في الشرق وحمايته من خطر المسلمين ، وتزعم هذه الحملة ملك فرنسا لويس السابع وكونراد الثالث امبراطور المانيا ، وقد عرض

---

(٢٢) المصدر السابق ص ١٣٠

(٢٣) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٣٠ - ١٣١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩ .
Guillame de Tyr, pp. 716- 718; Stevenson: p. 158

(٢٤) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٣١

روجر الثاني ملك صقليه على ملك فرنسا وملك المانيا أن يقدم لهما المساعدة للوصول الى الشرق عن طريق البحر ، ولكنهما رفضا هذا العرض بسبب العداء بين النورمان في صقليه من ناحية وفرنسا والمانيا من جهة ثانية ولهذا تقرر أن تسير الحملة الصليبية الثانية الى الشام عن طريق البر وتم الاتفاق على أن يسبق كونراد الثالث وجيشه الى الشرق ثم يلحق بهم الفرنسيون الى القسطنطينية حتى لا يؤدي مسير الجيشين معا الى صعوبة في التموين[٢٥] ووصل الصليبيون في شهر سبتمبر ١١٤٧ م الى القسطنطينية ، وكان كل جيش من الجيشين الالماني والفرنسي يتألف من حوالي سبعين الف رجل ، وأعلن الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين استعداده للسماح للصليبيين بالمرور من اراضيه وامدادهم بالمؤن وبشرط تعهدهم بالولاء له من جهة وتسليمه ما يستولون عليه من مواقع في آسيا من جهة أخرى ، ولكن امبراطور المانيا وملك فرنسا لم يقبلا بهذا الشرط ، ثم سار الامبراطور كونراد الثالث الى آسيا الصغرى على رأس قواته وشرع في الزحف شرقا ، وسار في جوف البلاد مخترقا اراضي السلاجقة ولم يتبع الطريق الساحلي سوى القليل من الجيش الالماني ، وفي منتصف اكتوبر ١١٤٧ م/ جمادى الاول ٥٤٢ هـ غادر الامبراطور الالماني كونراد الثالث مدينة نيقية في طريقه الى قونيه في نفس الوقت الذي تخلى الدليل البيزنطي عنهم مما عرض الصليبيين الالمان لاسوأ النتائج ، وبدأت الشدائد عندما اقترب الالمان من اسكي شهر فقد هاجم السلاجقة في ٢٦/ ١٠/ ١١٤٧ م/ جمادى الاول ٥٤٢ هـ القوات الصليبية واعملوا فيهم قتلا واسرا ، فتراجع الامبراطور كونراد الى نيقية ومعه من بقي من فلول جيشه في حين غنم السلاجقة المسلمون كميات لا حصر لها من الغنائم[٢٦] ووصل اخيرا الى نيقية في اوائل نوفمبر وهو في اسوأ حال، وقابل هناك لويس السابع ملك فرنسا مع قواته الصليبية التي وصلت الى نيقية لتتلقى نبأ هزيمة الالمان على يد السلاجقة ، ولهذا آثر لويس السابع أن يسير بقواته عن طريق

---

(٢٥) Fletcher: The Making of Western Europe, p 157;
Setton: vol, Ip. 467-469; Runciman, vol II p. 259; Cambridge Med. History, vol, 5 p. 307

(٢٦) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٣٣ - ١٣٤
Vasiliev : II pp. 419- 420; Ostrogorsky: p. 338- 339 Grousset: Tome II pp. 227- 228, 233- 234, chalandon: Cmnenos, II pp 249- 256; Archer: The crusades p 212, Guillaume de Tyr, p. 739- 741, 743, Michel le Syrien, p 276, Runciman: vol II, p. 266, setton : vol I pp. 495

الساحل بعيدا عن داخل البلاد وخوفا من سلطنة سلاجقة الروم ، ثم سلكوا طريق البحر للوصول الى بلاد الشام ثم وصل لويس السابع الى بيت المقدس ليجد الامبراطور الالماني كونراد الثالث في انتظاره في منتصف ابريل ١١٤٨ م/ ذي القعدة ٥٤٢ هـ ، ثم عقد مجلس صليبي في عكا في ٢٤/ ٦/ ١١٤٨ م/ صفر ٥٤٣ هـ حضره لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا والملك القاصر بلدوين الثالث ومعه امراء مملكة بيت المقدس اضافة الى عدد من كبار رجال الدين والامراء الصليبيين في الشرق والغرب ، وقرر هذا المؤتمر مهاجمة دمشق[٢٧]

تقدم الصليبيون يقودهم كونراد الثالث « عازما على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه ، وتوفر امواله وعدده ، فلما وصل الى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا امره ونهيه ، فأمرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصرها ويملكها » فساروا معه ونازلوا دمشق ، وكان صاحبها مجير الدين أبق بن بوري بن طغتكين « وليس له من الامر شيء وانما الحكم في البلد لمعين الدين أنر مملوك جده طغتكين » واستطاع معين الدين حفظ دمشق وبقي الصليبيون يحاصرون دمشق ثم انهم زحفوا في السادس من ربيع الاول ٥٤٣ هـ/ يوليه ١١٤٨ م بفارسهم وراجلهم فتصدى لهم أهل دمشق وصبروا لهم واشترك الزهاد والفقهاء في القتال «وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن دي ناس الفندلاوي المغربي ، وكان شيخا كبيرا ، فقيها عالما ، فلما رآه معين الدين ، وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له : يا شيخ انت معذور لكبر سنك ، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين ، وسأله أن يعود ، فلم يفعل وقال له : قد بعت واشترى مني ، فوالله لا أقلته ولا استقلته ، فعنى قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة »[٢٨] فتقدم الشيخ وقاتل عند النيرب نحو نصف فرسخ من دمشق « وقوي

---

(٢٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٢٩ ، د . حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٥٢ ، ثم انظر
Michaud: II pp. 170- 171

Guillaume de Tyr pp. 755- 759

Grousset: Tome II pp 243- 245;

Runciman: II pp 279—280 Stevenson: p 159; setton: vol I p 505.

(٢٨) ابن الأثير : الكامل ج١١ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، النويري نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٨٠ (مخطوط) ثم انظر: اسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ٩٤ ـ ٩٥

الفرنج وضعف المسلمون » فأرسل معين الدين أُنر الى سيف الدين غازي صاحب الموصل يطلب النجدة ونصرة المسلمين وكف العدو عنهم « فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه اخاه نور الدين محمودا من حلب فنزلوا بمدينة حمص ، وأرسل الى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح في بلادي ، فأريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج ، فإن انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتمينا به ، وان ظفرت فالبلد لكم لا انازعكم فيه »[٢٩] « وكانت المكاتبات قد نفذت الى ولاة الاطراف بالاستصراخ والاستنجاد وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الاطراف تتابع وباركهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم » وكان معين الدين أُنر قد أرسل الى الفرنج الذين جاءوا من الغرب يقول لهم : ان ملك المشرق (سيف الدين) قد حضر ، فإن رحلتم والا سلمت البلد اليه . وحينئذ تندمون وأرسل الى فرنج الشام يقول لهم : بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية وأما أنا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه أن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام ، فأجابوه الى التخلي عن ملك الالمان وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم ، واجتمع الصليبيون من أهل الساحل بملك الالمان (وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه . وأنه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته ، ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد »[٣٠]وقام معين الدين أُنر بتسليم بانياس للصليبيين كما وعدهم وعاد الالمان الى بلادهم ، واستبشر الناس بهذه النعمة التي اسبغها الله عليهم واكثروا من الشكر لله تعالى على ما اولاهم من اجابة دعائهم الذي واصلوه في ايام هذه الشدة[٣١]

---

(٢٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ص ١٣٠ ، التاريخ الباهر ص ٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١٢ - ١١٣ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٣٤ - ١٣٨

(٣٠) النويري : نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٨٠ (مخطوط) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٣٠ - ١٣١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١٢ - ١١٣ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ - ٢٩٩

Guillaume de Tyr, p 766

(٣١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٣١ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٣٧ - ١٣٨

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية في احتلال دمشق ولم تحقق اهدافها لأسباب منها صبر المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين واتباع سياسة التفريق بين كلمة الصليبيين حتى تحول الصليبيون من الهجوم الى الدفاع « وايقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار »[32] » وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غازي صاحب الموصل وشقيقه نور الدين محمود من حلب اكبر الاثر في فشل الحملة الصليبية ، وترتب على هذا الفشل أن قرر الصليبيون الانسحاب في حين طاردت القوات الاسلامية فلول المسحبين ، وانحطت هيبة الصليبيين ومكانتهم بالشام وازداد نفوذ المسلمين ، وارتفعت روحهم المعنوية ، وتشجعت القوى الاسلامية ، وأخذت تهاجم الاملاك الصليبية لتسترد ما سبق أن فقده المسلمون ، وحاول صاحب انطاكيه الصليبي الانتقام من المسلمين فحشد قواته للهجوم على حلب ولكن نور الدين محمودا تقدم لمواجهتهم ، والتقى الجمعان في مكان يقال له يغرى فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فكسر الفرنج كسرة قبيحة وقتل اكثرهم واسر جماعة من مقدميهم ولم ينج الا القليل ، وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسرى الى أخيه سيف الدين غازي ، والى الخليفة المقتفي لأمر الله وللسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه[33]

وبينما كان يزداد نفوذ نور الدين محمود في الشام توفي سيف الدين غازي صاحب الموصل في اواخر شهر جمادى الآخرة لسنة ٥٤٤ هـ/ نوفمبر ١١٤٩ م وكان اخوه قطب الدين مودود مقيما في الموصل ، فاتفق الوزير جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني والامير زين الدين علي كوجك صاحب اربل والمقدم على الجيوش على تمليك قطب الدين ، فاحضروه واستحلفوه وحلفوا له واركبوه الى دار السلطنة « وتسلم جميع ما كان بيد سيف الدين من البلاد » وتقدم نور الدين واخذ سنجار وهي من بلاد قطب الدين ولكن جرى الاتفاق بين الاخوين على أن يأخذ نور الدين حمص ويأخذ قطب الدين سنجار ، وسلم نور الدين سنجار الى أخيه قطب الدين وتسلم حمص وعاد الى بلاد الشام « واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم »[34]

(٣٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩

(٣٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٣٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١٤

(٣٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٣٨ ـ ١٤١ ، التاريخ الباهر ص ٦٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١٨ ـ ١٢٠

نور الدين يهاجم امارة انطاكيه الصليبية ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م :

كان من نتائج حروب نور الدين السابقة وانتصاراته ان زاد نفوذه في الشام وخصوصا بعد أخذه لمدينة حمص سنة ١١٤٩ م/ ٥٤٤ هـ ثم بدأ نور الدين يوجه جهوده ضد الصليبيين ، اذ لم يكن آل زنكي يرغبون في الانصراف عن الجهاد ضد الصليبيين ، وهاجمت قوات نور الدين في صيف ١١٤٩ م/ ٥٤٤ هـ الاقليم المحيط بقلعه حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي ودمر ما حولها من ضياع ، وأخذ يحاصر قلعة انب الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي قرب معرة النعمان ، وأسرع صاحب انطاكيه ريموند دي بواتيه بقواته لملاقاة نور الدين ، وكان نور الدين قد أرسل الى معين الدين أنر في دمشق يطلب معاضدته في الجهاد ضد الصليبيين « فندب معين الدين مجاهد الدين بزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمسير الى جهته وبذل الجهود في طاعته ومناصحته وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران »[٣٥] وبذلك اجتمع لنور الدين « من سائر العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتباع والسواد »[٣٦] فنهض بهم الى الفرنج في الموضع المعروف بانب وهم في نحو اربعمائة فارس والف راجل ، وفي يوم الاربعاء الحادي والعشرين من صفر ٥٤٤ هـ/ اخر يونيه ١١٤٩ م احاط المسلمون بالصليبيين من كل جانب وابادوهم اولا عن آخر ، وكان من جملة القتلى ريموند امير انطاكيه نفسه ورينو صاحب كيسوم ومرعش فضلا عن علي بن وفا زعيم الباطنية الذي كان مرافقا للقوات الصليبية[٣٧] وفرح المسلمون لمقتل امير انطاكيه الذي « كان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم »[٣٨] فحمل رأسه في الحال الى نور الدين « فوصل حامله بأحسن صله »وفي رواية للمؤرخ الصليبي وليم الصوري ان نور الدين أرسل رأس

(٣٥) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ،
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤

(٣٦) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٥٠

(٣٧) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٥٠ ، ابن الاثير : الكامل ح١١ ص ١٤٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ح١ ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، ثم انظر Grousset: Tome II pp 274-275
Michel le Syrien, p. 289

(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ح١ ص ١٢١

ريموند وذراعه الايمن الى الخليفة العباسي في بغداد في صندوق من الفضة في حين أقام المسلمون الافراح في كل مكان ابتهاجا بمقتل ريموند امير انطاكيه ، ونظمت القصائد بهذا النصر العظيم(٣٩)

وتابع نور الدين التقدم نحو انطاكيه نفسها ويقول ابو شامه ان نور الدين نزل في « العسكر على باب انطاكيه وقد خلت من حماتها والذابين عنها » كما وصلت غاراته الى السويدية ميناء انطاكيه ، ولهذا ساءت أحوال أهل انطاكيه وخيم عليهم الرعب حتى انهم عرضوا على نور الدين ان يعطوه كل ما يملكون من اموال ومتاع على أن يترك مدينتهم ويعطيهم مهلة ، فرتب نور الدين فرقة من جيشه للاقامة على انطاكيه ومنع من يصل اليها ، وسار بباقي قواته الى ناحية أفاميه « وقد كان رتب الامير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها فالتمسوا الامان فأومنوا على انفسهم ،وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الاول » وعاد نور الدين بقواته الى انطاكيه ووصلته الاخبار ان الصليبيين في ساحل الشام اجتمعوا وساروا الى ناحية انطاكيه لانجادها « فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية ومَوادعتهم وتقرير أن يكون ما قرب من الاعمال الحلبية له ، وما قرب من انطاكيه لهم » ورحل عن انطاكيه «بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول انطاكيه من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمة »(٤٠)

وكان من نتائج هذه النوبة ازدياد نفوذ نور الدين « وحصل لاسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير وعدة أسارى وخيول كثيرة ، فانفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا ، وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين »(٤١)

أصبحت انطاكية تحت حكم كونستانس ارملة ريموند التي حكمت الامارة باسم ولدها الطفل يوهيموند الثالث في حين قام بطرق انطاكية أيمري بدور كبير في

---

(٣٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢١ ، ثم انظر Guillaume de Tyr p. 774

(٤٠) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٥٠ ـ ١٥١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥ النويري نهاية الارب ج٢٥ ورقة ٨٤

(٤١) ابو شامه الروضتين ج١ ص ١٥١
والمقصود هنا اسد الدين شيركوه واخوه نجم الدين ايوب والد صلاح الدين الايوبي

شؤون الحكم والدفاع عن الامارة في تلك الفترة ، كما حضر الى انطاكيه بلدوين الثالث ملك بيت المقدس فادي حضوره الى تهدئة مخاوف الأهالي ورفع روحهم المعنوية بعد الرعب والخوف الذي لحق بهم[٤٢] .

استيلاء نور الدين على حصن افاميه ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م :

سار نور الدين بقواته الى حصن أفاميه وهو للفرنج « وهو مجاور شيزر وحماه على تل عال من أحصن القلاع وأمنعها » وحاصره نور الدين « وبه الفرنج وقاتلهم وضيق على من به منهم » فاجتمع الصليبيون في بلاد الشام وساروا لانقاذ هذا الحصن « فلم يصلوا الا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج اليه » وسار بقواته للقاء الفرنج قبل أن يصلوا اليه « فحين رأوا قوة عزمه ، وأن الحصن قد ملك ، عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم » وراسلوا نور الدين محمودا في المهادنة[٤٣]

هزيمة نور الدين امام الصليبيين ٥٤٦ هـ/ ١١٥١م

سار نور الدين بقواته الى بلاد جوسلين الثاني صاحب تل باشر وعين تاب وعزاز « وكان جوسلين أشد الفرنج شجاعة وأقواهم بأسا وأصحهم رأيا وأعظمهم مكيدة ، فجمع جمعا كثيرا من الفرنج وسار نحو نور الدين » فالتقوا فانهزم المسلمون وقتل منهم واسر خلقا كثيرا وكان من حملة الاسرى سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين ، وارسله الى الملك مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب بلاد الروم وقال له : « هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه »[٤٤]

---

(٤٢) Guillaume de Tyr , p 774- 775
Grousset : Tome II p. 284;
Runciman: vol, II p. 328

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٤٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٢ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٥٩ ـ ١٦٠

(٤٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٣
اما كلمة سلاح دار فمعناها الامير الذي يحمل السلاح للسلطان في الاحتفالات والمواكب وهو المقدم على السلاح داريه ويقوم ايضا بحراسة السلطان وصاحب هذه الوظيفة يكون من الامراء المقدمين .
انظر : النظم العسكرية الاسلامية في العصر المملوكي ص ٣٢ تأليف د . فايد عاشور (مخطوط) .

أسر جوسلين الثاني ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م :

غضب نور الدين للهزيمة التي لحقت بقواته ، وعظم عليه الامر وهجر الراحة ليأخذ بثأره ، وشرع في الاعداد من أجل الانتقام ، واعتمد هذه المرة على الحيلة « فأرغب جماعة ممن معه من التركمان ووعدهم الوعود الجميلة ان أتوه بجوسلين أسيرا أو عقيرا» واستخدموا العيون في مراقبته ، فاتفق انه خرج متصيدا فظفر به طائفة منهم فوعدهم بمال جزيل إن أطلقوه فأجابه بعضهم الى هذا شريطة احضار المال ، فأرسل في احضاره في حين أن بعض هؤلاء العيون ساروا الى الامير مجد الدين بن الدايه النائب بحلب واعلموه بالحال « فسير عسكرا فكبسوا اولئك التركمان ومعهم جوسلين فاخذوه أسيرا واحضروه الى نور الدين « وكان أسره من اعظم الفتوح لأنه كان شيطانا عاتيا ، شديدا على المسلمين ، قاسي القلب ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره »[٤٥] وشرع نور الدين في الاستيلاء على بلاد جوسلين الثاني وهي تل باشر ثم عين تاب وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفرسود وكفر لاتا ودلوك ومرعش ونهر الجوز ، وكانت خطة نور الدين في الاستيلاء على هذه الحصون انه كلما فتح واحدا منها « نقل اليه من كل ما تحتاج اليه الحصون خوفا من نكسه تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو »[٤٦]

سقوط عسقلان في يد الصليبيين ٥٤٧ هـ/ ١١٥٣ م وتهديد دمشق :

كان الامير مجير الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين حاكم دمشق ويقوم بتدبير أمره معين الدين أنر مملوك جده « وكان الحكم له وليس لمجير الدين الا مجرد الاسم » ثم توفي معين الدين سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م وبقيت دمشق على حالها حتى سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٣م وطرأ تغيير في الموقف العسكري في بلاد الشام ، ذلك أن الصليبيين هاجموا آخر المعاقل الفاطمية في فلسطين وهي عسقلان فأخذوها « وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلا

---

(٤٥) ابن الاثير ؛ الكامل ج١ ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٨٣ ـ ١٨٥ ، ثم انظر Michelle Syrien III pp. 294-895

(٤٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٥٥ ، ١٦٣ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ١٨٥ ، ١٩٣

وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته » وبقيت عسقلان في يد الفاطميين الى أن قتل ابن السلار الوزير واختلفت الاهواء في مصر فاغتنم الصليبيون هذه الفرصة « فاجتمعوا وحصروها » وقاومهم أهل عسقلان « وقاتلوهم قتالا شديدا حتى انهم بعض الايام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج الى خيامهم مقهورين ، وتبعهم أهل البلد اليها فأيس حينئذ الفرنج من ملكه » وأوشك الصليبيون على الانسحاب عنها ولكن بلغهم أن الاختلاف قد وقع بين أهل عسقلان وقاتل بعضهم بعضا بسبب ادعاء كل طائفة منهم أنها سبب النصر على الصليبيين « فعظم الخصام بينهم الى أن قتل من احدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب حينئذ وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم ، فقتل بينهم قتلى ، فطمع الفرنج وزحفوا اليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه »[٤٧] وكان ضياع عسقلان يعني تهديدمصر وفتح الطريق اليها ، وطمع الصليبيون فيها « وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف اذ لا يمكنه الوصول اليهم ودفعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم » وهنا رأى نور الدين رأيا شرعيا وهو أن وجود دمشق في مثل وضعها الضعيف في الجانب الاسلامي يعني اتاحة الفرصة للعدو لتهديدها وتهديد المسلمين بل حرمان نور الدين من مواجهة الصليبيين في تلك الجهة وخصوصا أن الصليبيين بعد أن أخذوا عسقلان « طمعوا في ملك دمشق واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على اعماله واكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وأفضى الامر بالمسلمين الى أن جعل الفرنج على دمشق قطيعة في كل سنة ، وكان رسولهم يجيء ويجبيها من سائر البلاد »[٤٨] ولم يكتف الصليبيون بذلك بل زادوا في اذلال المسلمين « حتى أرسل الفرنج واستصرخوا عبيدهم واماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود الى اوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار اليه »[٤٩] وترتب على ذلك تدهور احوال دمشق « وقلت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق الى أن حصروه في القلعة مع انسان من أكابر أهل البلد يقال له مؤ يد

---

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٦ ، ابو شامه الروضتين ج١ ص ١٩٥ ، ٢٠٠ - ٢٠١ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨

Michaud : II p. 217 setton: A History of the crusades , vol, I p. 536; Guillaume de Tyr p. 778

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٩٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٦

(٤٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٩٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٦

الدين ابن الصوفي » وثورة اهل دمشق على حاكمهم بسبب ضعفه وعدم نهوضه للحد من تدخل الصليبيين في شؤ ونهم الداخلية علاوة على وجود مثل هذا الحاكم الضعيف يعني تشجيع العدو على أخذ بلاد الاسلام ، ومن ثم كانت ثورة اهل دمشق على مجير الدين عملا مشروعا وواجبا وان لم يفعلوا يلحق بهم اثم كبير لسكوتهم على باطل يضر بالاسلام .

ولما علم نور الدين محمود بما جرى في دمشق « لحقته الحمية » وخاف من استيلاء العدو على بلاد المسلمين « وأهمه أهل دمشق » وفكر في طريقة سهلة لأخذ دمشق وانقاذها وكان يخشى ان هو « قصدها ورام اخذها بالغلبة استمال صاحبها الفرنج واستعان بهم على حربه » ولهذا لجأ نور الدين الى اسلوب الحيله والاستمالة فأخذ يلاطف مجير الدين وواصله بالهدايا وأظهر مودته حتى وثق مجير الدين بنور الدين « ثم كان في بعض الاحيان يقول له : « ان فلانا من الامراء قد كاتبني في تسليم البلد الي » فيقوم مجير الدين بابعاد هذا الامير ويأخذ اقطاعه وفعل ذلك مرارا حتى أبعد مجير الدين عنه أكثر الامراء ، وبقي عنده أمير يقال له عطاء بن حفاظ السلمي ، ففوض اليه مجير الدين أمر دولته وجعله في مقام معين الدين أنر ولكنه اختلف معه وقبض عليه وقتله واصبح مجير الدين وحيدا في دمشق لا يعاضده أحد من الامراء « فتم غرض نور الدين إلى دولته وكاتب الاحداث بدمشق ووعدهم الاحسان اليهم واستمالهم اليه » ثم زحف نور الدين بعد هذا الترتيب بقواته الى دمشق وحاصرها « فأرسل مجير الدين الى الفرنج وبذل لهم الاموال ، ووعدهم تسليم بعلبك اليهم ان نجدوه ورحلوا نور الدين عنه ، فجمعوا فارسهم وراجلهم »[٥٠] وأرسل نور الدين رسالة الى مجير الدين أبق جاء فيها : « ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعا الى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان ، بأن الفلاحين الذين أخذت اموالهم وشتتت نساؤهم واطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم لا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالهم والذب

---

(٥٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٩٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٦ - ١٢٧

عنها والتقدير الذي دعاكم الى الاستصراح بالفرنج على محاربتي » فرد مجير الدين على رسالة نور الدين برسالة جاء فيها « ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت علينا »[٥١]

ولكن الاحداث في دمشق ثاروا وفتحوا الباب الشرقي لمدينة دمشق ، فدخل نور الدين بقواته وملك دمشق وحاصر مجير الدين في القلعة وراسله في التسليم ، وبذل له اقطاعا من جملته حمص ، فأجاب مجير الدين الى هذا العرض وسلم قلعة دمشق الى نور الدين ، وسار الى حمص ولكنه ارسل الى أهل دمشق يدعوهم لمؤازرته من أجل العودة الى دمشق واخراج نور الدين منها فعلم نور الدين بذلك التآمر ، فأخذ منه حمص وسار مجير الدين الى بغداد وتوفى بها « وصفت المالك بالشام لنور الدين »[٥٢] وكان نور الدين محمود خلال هذه الاعمال العسكرية لأخذ دمشق حريصا كل الحرص على المسلمين ، ولم يكن يرغب في قتل مسلم بيد مسلم وانما هدفه تقوية المسلمين ودفع العدو عنهم ومحاربة المتعاونين مع العدو ضد المسلمين ، ورغم قوة نور الدين فانه « لا يأذن لأحد من عسكره في التسرع الى قتال احد من المسلمين وكانوا (اهل دمشق) يحملهم الجهل والغرور على التسرع والظهور ولا يعودون الا خاسرين مغلولين »[٥٣] هذا على الرغم من أن الصليبيين احتشدوا لانجاد اهل دمشق ، فان نور الدين كان يكره سفك دماء المسلمين « تحرجا من قتل المسلمين وقال لا حاجة الى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين »[٥٤]

ولما تقدم الاسطول الفاطمي في هذه السنة وهاجم موانىء فلسطين الصليبية ، وصلت اخباره الى نور الدين ، فوعد بالمسير الى « ناحية الاسطول المذكور لاعانته على تدويخ الفرنجيه »[٥٥] ومما تقدم نرى أن نور الدين كان يقوم بفتوحاته في المناطق

(٥١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩
(٥٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٢٧ ، ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٢٠١ - ٢٠٣ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٧
(٥٣) ابو شامه : الروضتين ج١ ص ٢٠١
(٥٤) ابو شامه : المصدر السابق ص ٢٠٣
(٥٥) ابو شامه : المصدر السابق ص ٢٠٢

الاسلامية ليس لاهداف شخصية ، ولا لزيادة املاكه وبسط سيطرته على الآخرين وليس غرورا وانما كان هذا من لوازم الاعداد للجهاد في سبيل الله ، ولأن القاعدين عن الجهاد مقصرون فيما امر الله به ، ومن ثم يجب دفعهم اليه أو ابعادهم عن تولي القيادة واتاحة الفرصة لغيرهم من المخلصين الذين يجاهدون في سبيل الله خصوصا اذا عرفنا ان من أسباب الاعداد للقوة ازالة اسباب الضعف في المسلمين .

هجوم نور الدين على حارم ٥٥١ هـ/ ١١٥٦م :

وفي سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م سار نور الدين بقواته وحاصر حارم التابعة لامارة انطاكيه الصليبية ، وجمع الصليبيون قواتهم وساروا لمحاربته « فمنعوها منه » وكان في هذا الحصن رجل صليبي من دهاة الافرنج يرجعون الى رأية نصحهم بمفاوضة نور الدين وصالحوه على أن يعطوه « نصف اعمال حارم » واصطلحوا على ذلك ورحل نور الدين عنهم(٥٦)

استيلاء نور الدين على بعلبك :

كان يحكم بعلبك رجل يقال له ضحاك البقاعي . فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك ببعلبك ولم يستطع نور الدين محاصرتها لقربها من الصليبيين ، وخاف نور الدين ان هو حاصرها أن يقوم ضحاك بتسليم بعلبك الى الصليبيين « فتلطف الحال معه الى أن عوضه عنها وتسلمها »(٥٧)

موقعة البقيعه ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م :

جمع نور الدين قواته في سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م وسار بها الى ناحية الصليبيين ، ونزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد « عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس » وبينما نور الدين وعساكره في « خيامهم واذا بصلبان الفرنج وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوا المسلمين » وهم في غفلة ووضعوا السيف فيهم واكثروا القتل والأسر وهاجموا خيمة نور الدين ، فخرج منهم بصعوبة وكاد ان يهلك وسار الى حمص فنزل بظاهرها واجتمع اليه كل من نجا من المعركة ، وأرسل الى دمشق

(٥٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٨٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٨

(٥٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩

واحضر الاموال والدواب والأسلحة والخيام ، وجمع جميع ما يحتاج اليه « وفرق ذلك على من سلم ، ومن قتل أقر اقطاعه على اولاده . ومن لم يكن له اولاد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر في مدة قريبة كأنه لم يفقد منه أحدفرحمه الله وقدس روحه ، وهكذا فلتكن الملوك »(٥٨) وكان الصليبيون بعد هزيمة عساكر المسلمين قد تشجعوا على قصد مدينة حمص واخذها ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها بقواته قالوا : « لم يفعل هذا الا وعنده من القوة ان يمنعنا » ولهذا راسل الصليبيون نور الدين من أجل المهادنة « فامتنع فتفرقوا في بلادهم » خوفا من الدخول في معركة مع نور الدين(٥٩) وكان نور الدين بعد هذه المعارك في حاجة الى المال لاعادة تنظيم قواته بعد الكسرة المذكورة فقال له بعض اصحابه : « ان لك في بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء وغيرهم فلوا استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح ، فغضب من ذلك وقال : والله انني لا أرجو النصر الا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ـ كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني ، وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا راني بسهام قد تصيب وقد تخطىء وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي ان اعطيه غيرهم ؟(٦٠)

الأمر الهام في هذه القصة هو ضرورة ان يكون المال المستخدم في الجهاد مالا حلالا لأن ذلك من أسباب النصر كما ان اعطاء الحقوق الى ذويها واعانة المحتاجين ورفع الظلم عن المظلومين ، كل ذلك يؤدي الى قوة المسلمين في ميدان القتال .

---

(٥٨) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ص ١٣٥
(٥٩) ابن الاثير : الكامل ج١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٣٥
(٦٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩٦
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٦

الفصل التاسع

توحيد مصر والشام

اضطراب احوال مصر بسبب اختلاف الوزراء وضعف الخلفاء - موقف نور الدين من الخلافة الفاطمية وسير قواته الى مصر - هزيمة الصليبيين وفتح حارم ٥٥٩ هـ / ١١٦٤م - فتح بانياس ٥٥٩ هـ / ١١٦٤م - فتح حصن المنيطرة سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥م - سير قوات نور الدين مرة ثانية الى مصر ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م - حصار الصليبيين للاسكندرية - فتح صافيتا والعزيمة سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦م - سير قوات نور الدين الى مصر للمرة الثالثة سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩م وقتل شاور - وفاة اسد الدين شيركوه .

توحيد مصر والشام

اضطراب احوال مصر بسبب اختلاف الوزراء وضعف الخلفاء :

حدث في سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م ان وزر شاور للخليفة العاضد الفاطمي ، وكان شاور يخدم الوزير صالح بن رزيك فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد « وهو اكبر الاعمال بعد الوزاره » واظهر شاور مقـدرة في ادارة عملـه « واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم ، فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله ، فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته » ولما تحكم صالح بـين رزيك في الدولـة التحكم العظيم ، واستبد بالأمر والنهي ، ودبرت عمة الخليفة العاضد مؤامرة لقتله فطعنوه وجرح ، ولما جرح الوزير صالح توفي متأثرا بجراحة في سبتمبر ١١٦١ م وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه « وخوفوه منه أن أقره على عمله ، فأرسل اليه بالعزل » فما كان من شاور الا أن جمع « جموعا كثيرة وسار الى القاهرة بهم » فهرب منه العادل بن صالح بن رزيك ثم قبض عليه وقتله وصار شاور وزيرا[١] ولقب نفسه بأمير الجيوش ولكن الامير ضرغام نازعه الوزارة « وظهر امره وانهزم شاور منه الى الشام » وصار ضرغام وزيرا[٢] .

موقف نور الدين من الخلافة الفاطمية :

حدث في سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣ م ان هرب شاور الوزير الفاطمي إلى نور الدين

(١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٧٤ ـ ٢٩٠
ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦
(٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٨
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٧

لأن ضرغاما نازعه في الوزارة وغلب عليها واستجار بنور الدين فاكرم مثواه واحسن اليه وانعم عليه ، وطلب شاور من نور الدين ان يرسل « العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر ويكون الامير اسد الدين شيركوه مقيما بعساكره في مصر « ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره » واطمعه في الديار المصرية « وقال له « أكون نائبك بها واقنع بما تعين لي من الضياع والباقي لك » فبقي نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة يحمله رعاية لقصد شاور بابه ، وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق ، وان الفرنج فيه ، وتخوف من ان شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفي »[٣] واستمر تردد نور الدين واحجامه وقلقه « ثم قوى عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة عللها ، وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي بمخافه » وسار اسد الدين شيركوه بقوات نور الدين الى مصر في شهر جمادى الاول ٥٥٩ هـ/ ابريل ١١٦٤ م ومعه ابن أخيه صلاح الدين وكان في السابعة والعشرين من عمره « وتقدم نور الدين الى شيركوه أن يعيد شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه »[٤]

وسار نور الدين بقواته الى اطراف بلاد الصليبيين مما يلي دمشق « ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين » ووصلت قوات نور الدين بقيادة اسد الدين الى بلبيس ، فخرج اليهم ناصر الدين شقيق ضرغام بعسكر من المصريين وقاتلهم « فانهزم وعاد الى القاهرة مهزوما » وتقدم اسد الدين بقواته الى القاهرة في اواخر جمادى الاخرة ٥٥٩ هـ/ ابريل ١١٦٤ م ، وحاول ضرغام الخروج من القاهرة فقتل عند مشهد السيدة نفيسه « وخلع على شاور مستهل رجب واعيد الى الوزارة وتمكن منها » واقام أسد الدين مع عساكره خارج القاهرة وغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا بل اكثر من ذلك « وارسل اليه يأمره بالعود الى الشام »

---

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٤٦
ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩٨ ، ابن واصل : مفرح الكروب ج١ ص ١٣٨
(٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ابن واصل : مفرح الكروب ج١ ص ١٣٨
(٥) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٨

ولكن اسد الدين رفض هذا المطلب ، وطلب ما كان قد استقر بينهم « فلم يجبه شاور اليه ، فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية » وأيقن شاور أن أسد الدين لن يترك البلاد « فأرسل شاور الى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر »[٦] وكان الصليبيون قد بدأوا يفكرون في أخذ مصر من قبل ، فقد هدد مصر سنة ١١٦٠ م الملك بلدوين الثالث ولكن الدولة الفاطمية تعهدت له بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون الف دينار ، ولما جاء عموري الاول بعد وفاة بلدوين الثالث مباشرة ١١٦٢ م ، ادعى عدم وفاء الدولة الفاطمية بدفع الجزية فهاجم الدلتا سنة ١١٦٣ م حتى وصل بلبيس وحاصرها ، ولكن فيضان النيل لم يمكن عموري الاول من السير في الاراضي المصرية واضطر الى الانسحاب الى فلسطين ولكن الى حين آخر يتمكن فيه من تحقيق هدفه بغزو مصر واخذها[٧] وكانوا قد استولوا على عسقلان آخر المعاقل الفاطمية في فلسطين وايقنوا بالهلاك ان امتلك نور الدين بلاد مصر « فلما أرسل شاور يطلب منهم أن يساعدوه على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في ملك الديار المصرية ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا »[٨] فلما علم نور الدين بذلك سار بقواته الى اطراف بلاد الصليبيين من ناحية الشمال « ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم اذا ملك أسد الدين مصر أشد فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقين الى مصر »[٩]

وكان قد وصل الى الشام جمع كبير من الصليبيين من الغرب لزيارة بيت المقدس ، فاستعان بهم الصليبيون ، وسار بعضهم معهم الى مصر بينما بقي البعض الآخر في البلاد لحفظها ، وعندما اقترب الصليبيون من مصر انسحب أسد الدين بقواته الى

---

(٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩٩ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٩

(٧) Setton: A History of the crusædes vol, ı pp 550-551 schlumbeger, campgnes de roi Amoury pp 38-48

(٨) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٩٩ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ١٣٩
Schlumberger: Campangnes du roi Amoury p 58

(٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٣٩ - ١٤٠

مدينة بلبيس « وجعلها له ظهرا يتحصن به » واجتمعت القوات الصليبية مع القوات الفاطمية وهاجموا أسد الدين في مدينة بلبيس « وحصروه بها ثلاثة اشهر » دون جدوى « فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا » فبينما هم على هذا الحال اذ أتاهم الخبر بهزيمة الصليبيين واستيلاء نور الدين على حارم ومسيره الى بانياس « فحينئذ سقط في أيديهم » وكان نور الدين هاجم بلادهم ليشغلهم من ناحية ويجبرهم على الانسحاب من مصر ، وحدث ما اراد فقد راسلوا أسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر على أن يسلم ما بيده الى المصريين ، ويعود بقواته الى الشام بعد أن تعهدوا بدفع ثلاثين الف دينار لاسد الدين « فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولأن الاقوات والذخائر قلت عليه » فسار اسد الدين شيركوه بقواته الى الشام ، كما عاد الملك عموري الاول بقواته الصليبية الى بيت المقدس وذلك في اواخر ٥٦١ هـ/ ١١٦٤ م[١٠]

هزيمة الصليبيين وفتح حارم ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م .

بعد هزيمة المسلمين في معركة البقيعة تحت حصن الاكراد سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م ، بدأ نور الدين في سرعة لاعادة تنظيم قواته « فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا ، واخذوا في الاستعداد للجهاد والاخذ بثأره » واتفق ان سار الصليبيون بقيادة عموري الاول ملك بيت المقدس سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م لاخراج أسد الدين شيركوه من مصر واحتلالها،ولم يكن يقبل نور الدين ترك مصر وشأنها«فاراد أن يقصد بلادهم (الصليبيين) ليعودوا عن مصر » وقبل أن يقدم على تلك الخطوة أرسل الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة وآل فخر الدين قرا ارسلان صاحب حصن كيفا والى نجم الدين ألبى صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الاطراف يستنجدهم ويدعوهم الى الجهاد ،فاما قطب الدين فانه جمع عسكره وسار مجدا، واما فخر الدين صاحب حصن كيفا فانه أخبر من حوله عندما سألوه على أي شيء عزم؟ فقال على القعود ، فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، فكلهم وافقه على هذا الرأي، فلما كان الغد أمر

(١٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، التاريخ الباهر ص ١٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج١ ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

بالاستعداد للجهاد فقال له اصحابه: ما الذي غير رأيك ؟ فارقناك أمس على حالة، فنرى اليوم ضدها؟ فقال: ان نور الدين قد سلك معي طريقا ان لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي. فانه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب ان يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قصد كل واحد من اولئك ومعه اصحابه واتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون علي، فلا بد من المسير اليه، ثم تجهز وسار بنفسه» هذا عن موقف صاحب حصن كيفا من الجهاد، وأما نجم الدين صاحب ماردين «فانه سير عسكرا»[١١] وكذلك سار اليه كل من كاتبه، واجتمعت العساكر الاسلامية عند نور الدين في الساحل ولم ينتظروا عودة عموري الاول من حملته على مصر «فجاؤوا في حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسيسيهم ورهبانهم واقبلوا اليه (حصن حارم) من كل حدب ينسلون» وكان المقدم عليهم بوهيموند الثالث صاحب انطاكية وريموند الثالث امير طرابلس وحاكم قيليقية البيزنطي وثوروس الثاني الأمير الأرمني، وسارت قوات هذا الحلف المسيحي الى ناحية حارم، وكان نور الدين سار بقواته الى حارم وحاصرها، فلما علم بمسير الصليبيين اليه ترك حارم واتجه صوب ارتاح «طمعا ان يتبعوه فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم اذ لقوه»[١٢] ولما تبعوه ادركوا عجزهم عن لقائه فعادوا الى حارم فلما عادوا تبعهم نور الدين في ابطال المسلمين على تعبئة الحرب، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، وبدأ الصليبيون بالهجوم على ميمنة المسلمين، فانهزم المسلمون فيها، وتبعهم الصليبيون «فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه وهو أن يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف فيقتلونهم، فاذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلا يلجأون اليه، ولا وزرا يعتمدون عليه ويعود المنهزمون في اثارهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم، فكان الأمر على ما دبروه»[١٣] ودارت معركة حامية في ١١/ ٨/ ١١٦٤ م/ ٥٥٩هـ «فاشتدت الحرب

---

(١١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠١ - ٣٠٢ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٢٤٣ - ١٤٤
(١٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠١ - ٣٠٢
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤٤

وقامت على ساق وكثر القتل في الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الأسر فأسروا مالا يحد» وكان من بين الاسرى بوهيموند امير انطاكية وريموند الثالث امير طرابلس « وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة على المسلمين» وجوسلين الثالث دي كورتناي وهيو الثامن لوزجنان وحاكم قيليقيه البيزنطي، وسيق الاسرى الصليبيون الى حلب «وكانت عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل»(١٤) وزحف بعد ذلك نور الدين الى حارم واخذها في ١٢/ ٨/ ١١٦٤م/ ٥٥٩هـ واصبح الطريق مفتوحا امامه الى انطاكيه ولكنه لم يفعل خوفا من تسليم انطاكيه الى الامبراطور البيزنطي ولأن قلعة انطاكية منيعة ولهذا آثر نور الدين أن يسير الى غيرها ، ثم جرى الاتفاق على اطلاق سراح بوهيموند الثالث بعد أن دفع فدية كبيرة وتعهد أن يرسل مالا كثيرا وان يطلق سراح الاسرى المسلمين الذين عنده(١٥)

فتح بانياس ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م :

كان الصليبيون قد اخذوا بانياس سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م وهي قلعة هامة ، ولما فتح نور الدين حارم سار منها الى جهة « بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها ، وضيق عليها وقاتلها » وكان في جملة عسكره اخوه « نصرة الدين » أمير اميران فاصابه سهم فأذهب احدى عينيه ، فلما رأى نور الدين قال له :

لو كشف لك عن الاجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى » وهذا من دلائل الايمان عند نور الدين والمعروف ان الايمان الصادق والتقوى من اكبر الاسباب التي تحقق النصر للمسلمين لقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) واما الصليبيون فقد جمعوا قواتهم ولكن بدون جدوى ، فقد فتحها نور الدين في اكتوبر ١١٦٤ م/ ٥٥٩ هـ « وملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا » وشاطر الصليبيين في اعمال

---

(١٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠٣
(١٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤٥
(١٥) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠٣ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ١٤٥

طبريه « وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطرهم عليها مالا في كل سنة[١٦] » ومن الاسباب التي أدت الى استسلام حصن بانياس « ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم » كما ان الصليبيين الذين هاجموا مصر بقيادة عموري الاول لما علموا بما جرى في حارم وبانياس صالحوا أسد الدين شيركوه « وعادوا ليدركوا بانياس ، فلم يصلوا الا وقد ملكها »[١٧] وهكذا نلاحظ كيف يجاهد نور الدين في شمال الشام ليشغل الصليبيين عن مصر ولا يتيح لهم فرصة الانفراد ببلد اسلامي وانما اذا هاجموا طرفا من ارض الاسلام قام بالهجوم على طرف آخر ليشغلهم ويبدد قوتهم .

فتح حصن المنيطرة ٥٦١ هـ/ ١١٦٥ م :

كان حصن المنيطرة للصليبيين (يقع على الطريق بين جبيل وبعلبك) وسار اليه نور الدين على غرة من الصليبيين « وعلم انه ان جمع العساكر حذروا وجمعوا » وهاجمه وجد في قتاله فأخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة ولم يستطع الصليبيون انقاذه[١٨]

مسير قوات نور الدين مرة ثانية الى مصر ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧م

عاد أسد الدين شيركوه بقواته من مصر الى بلاد الشام في المرة الاولى « وهو في غاية من القهر »[١٩] ولم يستطع بعد عودته منها انينسى مصر فظل « بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير »[٢٠] وكان نور الدين يخشى على قواته ولا يرغب في تقسيمها وخصوصا ان الوضع في بلاد الشام يتطلب مزيدا من الحذر واليقظة ، ولكنه في نفس الوقت كان يخشى من وقوع مصر في قبضة الصليبيين فتزيد قوتهم بها ويضعف الجانب الاسلامي ، ومن الافضل ان تكون مصر في الجانب الاسلامي فيقوى بها المسلمون ، ولهذا اعد نور الدين القوات

---

(١٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤٧
(١٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٠٤
(١٨) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٢ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ١٤٨
(١٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٧ ص ٣٤٨
(٢٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٤

اللازمة وسيرها بقيادة اسد الدين شيركوه «وسير معه جماعة من الامـراء ، فبلغـت عدتهم الفي فارس ، وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسـلام »[٢١] وسار معه نور الدين الى اطراف البلاد خوفا من تعرض الصليبيين له ، وكان صلاح الدين بن نجم الدين ايوب بن شادي مع عمه أسد الدين في هذه السفره[٢٢]

وهناك أسباب اخرى لمسير أسد الدين شيركوه الى مصر كما ذكرها المؤرخ ابو المحاسن بقوله : « وسببـه ان العاضـد لما غلـب عليه شاور كتـب الى نور الـدين يستنجده على شاور ، وأنه قد استبد بالامر وظلم وسفك الدم »[٢٣]

سار اسد الدين شيركوه الى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه ووصل البلاد المصريه ، وعبر نهر النيل عند اطفيح ونزل بالجيزة مقابل الفسطاط « وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفا وخمسين يوما »[٢٤] ولما رأى شاور اسد الدين بقواته « أرسل الى الفرنج يستنجدهم فأتوه على الصعب والذلول » وحملهم على ذلك امران : احدهما الطمع في تملك الديار المصريه ، والثاني الخوف من تملك العساكر النوريه لها ، وعلموا انه ان ملكها نور الدين واستضافها الى البلاد الشاميه لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام ، وانه يستأصلهم وتصير بلادهم في وسطبلاده »[٢٥] فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهـم الى ان وصـل الصـليبيون الى مصر وعبـروا الى الجانب الغربي من النيل بعد أن اجتمعوا بعساكر شاور وساروا جميعا يقصدون أسد الدين في الصعيد ، ووصل هؤلاء في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ٥٦٢ هـ/ مارس ١١٦٧ م الى مكان يعرف بالبابين ، وكانت جواسيس أسد الدين قد اخبروه بكثرة عدد الفرنج والمصريين وقوتهم « فجمع اصحابه واستشارهم فكلهم اشاروا

---

(٢١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤٨
schlumberger: Campagnes du roi Amoury pp. 101-102
(٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ص ١٤٨ ١٤٩
(٢٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٨
(٢٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤٩
(٢٥) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٤٩

عليه بعبور بحر النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام ، وقالوا له : « ان نحن انهزمنا فالى من نلتجىء ، وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وفلاح عدو لنا » فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش ـ صاحب الشقيف وكان شجاعا وقال : « من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبه وبلاء نعذر فيه ليأخذن اموالنا وما معنا من الاقطاع والجامكيه وليعودن علينا بجميع ما اخذناه منه من يوم خدمناه الى يومنا هذا ويقول : تأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار ! والحق بيده » فقال الأمير اسد الدين شيركوه : « هذا الرأي وبه أعمل »[٢٦]

وقبل الدخول في معركة بين الطرفين رغب الصليبيون في الاتفاق مع شاور ومساومته على أجرهم ومعرفة نصيبهم في مقابل معونتهم لشاور في قتال أسد الدين والمسلمين ، فتعهد لهم شاور بدفع اربعمائة الف دينار في حالة بقائهم في مصر حتى يتم طرد اسد الدين شيركوه منها بشرط أن يدفع نصف هذا المبلغ فورا كما ارسل عموري الاول سفارة الى الخليفة الفاطمي زارته في قصره حيث تم ابرام الاتفاقية النهائية لهذا المشروع . وبعد ذلك دارت معركة بين الطرفين عند مكان يعرف بالبابين في جمادى الآخرة ٥٦٢ هـ/ مارس ١١٦٧ م ، واشترك فيها صلاح الدين ، وكان أسد الدين قد جعل ابن أخيه صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه : ان المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم أني فيه ، فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا في اعقابهم ، واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في الميمنه ، فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره ، وحملوا على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا ، وانهزموا بين ايديهم غير متفرقين ، وتبعهم الفرنج ، فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الذين حملوا على المسلمين ، وقاتل الفارس والراجل ، فهزمهم ، ووضع السيف فيهم فاثخن واكثر القتل والأسر ، فلما عاد الفرنج من المنهزمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرض منهم

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٠ ، والجامكيه هنا تعني المرتب أو الارزاق

قفرا ، فانهزموا ايضا « وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل »[٢٧]

اما عن الملك عموري الاول ملك بيت المقدس ، فقد رجع ببقية جيشه حيث عسكر قرب الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل ، وكان يمكن لأسد الدين النجاح في اخذ القاهرة « فلو ساق أسد الدين خلفهم في الحال ملك القاهرة وانما عدل الى الاسكندريه فتلقاه أهلها طائعين ، فدخلها وولى عليها صلاح الدين »[٢٨] وهذا الموقف من أهل الاسكندريه يؤكد عدم موافقتهم على موقف الدولة الفاطمية وشاور في التعاون مع الصليبيين ضد المسلمين .

حصار الصليبيين للاسكندريه :

وبعد هزيمة الصليبيين في موقعة البابين عادوا واجتمعوا عند القاهره « واصلحوا حال عساكرهم وجمعوا وساروا الى الاسكندريه فحصروا صلاح الدين بها ، واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر أهلها على ذلك »[٢٩]

ويروي ابو المحاسن عن حصار الاسكندريه وصبر أهلها على الحصار فيقول « فحصروا الاسكندريه اربعة أشهر ، وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين ويقوونه بالمال »[٣٠] وبلغ اسد الدين شيركوه ما جرى للاسكندريه وصلاح الدين فجمع عرب البلاد وسار الى الاسكندريه ، فرحل عنها شاور وحلفاؤه ثم راسلوا اسد الدين يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين الف دينار سوى ما اخذه من البلاد وتبادل الاسرى بين الفريقين، فوافق اسد الدين على هذا شريطة ان يعود الصليبيون الى بلادهم «ولا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة ، فأجابوا الى ذلك»[٣١] وتم

---

(٢٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٠ ـ ١٥١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ ، د . حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١١٤

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٤٩

(٢٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥١

(٣٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٤٩

(٣١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٢

الاتفاق بينهم وانسحب اسد الدين وعموري الاول بقواتهما من مصر وسارا الى بلديهما ، وبقي شاور ينعم بمصر من جديد[٣٢] واما الصليبيون فانهم اتفقوا مع شاور على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (حاكم ينوب عن عموري) وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ العساكر الى مصر ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار ومن سكن منهم القاهرة يبقى على حاله . «هذا كله استقر مع شاور، فان العاضد لم يكن له معه حكم لأنه قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلها»[٣٣] .

عاد الصليبيون الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم ، وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهي محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته وضمن على نفسه أنه يفعل هذا ويجمع الكلمة بمصر على طاعته . وبذل مالا يحمله كل سنة الى نور الدين فوافقه الى ذلك « وحمل اليه مالا جزيلا » وبقي الامر على ذلك الى أن سار الصليبيون الى مصر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م[٣٤]

فتح صافيتا والعزيمه ٥٦٢ هـ/ ١١٦٦م :

جمع نور الدين محمود قواته في هذه السنة وسار اليه قطب الدين مودود من الموصل ، فاجتمعوا على حمص ، فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الصليبيين فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقه فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة واخذوها وخربوها ، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناوشمالاً تغير وتخرب البلاد وفتحوا العزيمه[٣٥] وصافيتا ثم هاجموا حصن هونين وهدموا سوره جميعه وعادوا الى حمص بسلام[٣٦]

---

(٣٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٦

(٣٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٧ ، التاريخ الباهر ص ١٣٤ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٤٩ ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٢

(٣٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٢

(٣٥) ذكرها ابن الاثير : باسم العريمه : الكامل ج١١ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨

(٣٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣

مسير قوات نور الدين الى مصر للمرة الثالثة سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م

وكان سبب ذلك تحكم الصليبيين في مصر « وأنهم جعلوا لهم في القاهرة شحنة (نائب) وتسلموا ابوابها وجعلوا لهم بها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالأذى العظيم » فلما رأى الصليبيون في مصر ضعف الخلافة وسوء احوال البلاد وتمكنهم منها « وأنه ليس بها راد ولا عن أخذها صاد » ارسلوا الى عموري الاول ملك بيت المقدس « واعلموه خلوها من ممانع وهونوا امرها عليه ، فلم يجبهم الى ذلك ، فاجتمع اليه فرسان الفرنج وذوو الرأي منهم ، وأشاروا عليه بقصدها وتملكها ، فقال لهم : الرأي عندي اننا لا نقصدها ، فانها طعمة لنا واموالها تساق الينا ، فنقوى بهاعلى نورالدين ، وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من ارض الشام ، فلم يقبلوا قوله وقالوا له: انها لا مانع ولا حامي والى ان يتجهز عسكر نور الدين ويسير اليها ، نكون نحن قد ملكناها ، وفرغنا من امرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة »[٣٧] « فوافقهم على كره وتجهز للسفر وأظهروا انهم يريدون قصد حمص »[٣٨] وكان عموري الاول قد حاول الدخول في حلف مع امبراطور القسطنطينية سنة ١١٦٨ م/ ٥٦٥ هـ للقيام بعمل عسكري مشترك ضد مصر ، وتم عقد اتفاقية بينهما في سبتمبر ١١٦٨ م/ ٥٦٥ هـ تنص على تقسيم مصر بين البيزنطيين والصليبيين ، ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ ، فقد رغب عموري الاول في أن تكون مصر خالصة له ، وان ينفرد بالصيد وحده ، اضافة الى رغبة عموري الاول في الاسراع الى مصر تخوفا من شاور وتغير سياسته ضد الصليبيين[٣٩]

---

(٣٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٥ - ١٥٦
(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٦
(٣٩) Guillaume de Tyr: -. 755, 947;
Chalandon: comnenes II, pp 537- 538;
schlumberger: Campagnes du roi Amoury, Ip 185, Grousset: Histoire des croisades, II p. 504

ولما سمع نور الدين محمود بهذه الاخبار ، جمع العساكر وتأهب للخروج في حين جد الصليبيون في المسير الى مصر ، فوصلوا الى مدينة بلبيس فنازلوها وملكوها غرة صفر من هذه السنة (٥٦٤ هـ) ونهبوا أهلها وقتلوا وسبوا واسروا « واحرق جل دورها »ثم رحلوا عنها الى القاهرة[٤٠] « وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصرة عداوة لشاور » منهم ابن الخياط وابن فرجله فقوى جنان الصليبيين بهذا وساروا الى القاهرة وحاصروها في العاشر من صفر ٥٦٤ هـ/ نوفمبر ١١٦٨ م« فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد ، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه وفي التاسع من صفر امر شاور باحراق مصر وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة ، وأن ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت مصر ، وافتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمهم وذلك قبل نزول الصليبين على القاهرة بيوم واحد « فبقيت النار تعمل في مصر اربعة وخمسين يوما الى خامس ربيع الآخر ، واشتد الأمر وعظم الخطب ، وضاق الحصار وخيف البوار ، وعلم شاور عجزه وضعفه وان البلاد ذاهبة لا محالة »[٤١] وبدأ في التحايل على الصليبيين ، وارسل الى عموري الاول يذكر له مودته ومحبته وان هواه معه وتخوفه من نور الدين وان المسلمين لا يوافقونه على التسليم وعرض عليه الصلح واخذ المال ، فأجابه عموري الاول على ذلك على أن يدفع شاور للصليبيين « الف الف دينار »[٤٢] يعجل البعض ويؤخر الباقي . ورأى الصليبيون أن المصلحة في ذلك لئلا يتدارك نور الدين البلاد ، فعجل لهم شاور مائة الف دينار وماطل بالباقي خداعا ومكرا[٤٣] في حين أخذ شاور يرسل الكتب والرسائل الى نور الدين « مُسوَّدة وفي طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة » وواصل الكتب مستنفرا ومستنصرا ويقول : « ان لم تبادر ذهبت البلاد » وارسلها مع نجابين يتلو بعضهم بعضا وشاور

---

(٤٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٦ - ١٥٧
Guillaume de Tyr; p. 951.

(٤١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٧

(٤٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٧ - ١٥٨

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٨ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٥٠
schlumberger: Campagnes du roi Amoury I pp. 208-209

منتظرا ما يرد عليه من نور الدين « وهو مع ذلك يدافع الفرنج ويماطلهم »(٤٤) وأرسل الخليفه العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين « وأرسل في الكتب شعور النساء وقال : « هده شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » فشرع نور الدين في تسيير الجيوش ولم ينتظر لأن الواجب الاسلامي يحتم عليه نصرة المسلمين اينما كانوا ، وعلى الرغم من اختلاف المذهب الديني فالعاضد خليفة فاطمي مذهبه التشيع ، ونور الدين مذهبه السنة ورغم بعد مصر عن نور الدين ووجود صعوبات في الطريق وخطر الصليبيين ، فانه لم يترك الامر دون اهتمام وخصوصا ان كتب شاور والعاضد وأهل مصر تتواصل الى نور الدين وأسد الدين يستغيثون ويطلبون النجدة ضد الصليبيين , . وحضر أسد الدين شيركوه الى نور الدين قبل سفره « واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه في العسكر والخزائن واختار من العسكر الفي فارس واخذ المال وجمع ستة الاف فارس » من التركمان واعطى كل فارس « ممن مع اسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبه من جامكيتيه » واضاف الى اسد الدين جماعة اخرى من الامراء ومعهم صلاح الدين بن يوسف بن نجم الدين «على كره منه» وتعلل لنور الدين كثيرا فيقول صلاح الدين «فشكوت اليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج اليه، فاعطاني ما تجهزت به، وكأنما اساق الى الموت»(٤٥) فخرج مع عمه وساروا بالجيش الى مصر ولما اقتربوا منها وعلم بهم الصليبيون رحلوا عن مصر خائبين، وكفى الله المؤمنين القتال، ووصلت الاخبار بذلك الى نور الدين «فأمر بضرب البشائر في البلاد الاسلامية فانها كانت أجل الفتوح وأعظمها، اذ لو استولى العدو لعنه الله ـ على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الاسلامية»(٤٦) .

وفي اليوم الرابع من ربيع الآخر ٥٦٤ هـ/ مارس ١١٦٩ م وصل أسد الدين الى القاهرة ، فاستدعاه الخليفة العاضد الى القصر واجتمع معه وخلع عليه « وسر

---

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٨
(٤٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٩ ـ ١٦٠
ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٥٠
(٤٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ، التاريخ الباهر : ص ١٣٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٦٠

أهل مصر بذلك »[٤٧] وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يستطع شاور منع ذلك « لأنه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم ، فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه « واقام أسد الدين مكانه وارباب الدولة يترددون الى خدمته في كل يوم » وخشي شاور على نفسه ، فكاتب الصليبيين ، واستدعاهم وقال لهم ، يكون مجيئكم الى دمياط في البحر والبر ، فبلغ ذلك اعيان الدولة بمصر فاجتمعوا عند الملك المنصور اسد الدين شيركوه وقالوا له : شاور فساد العباد والبلاد وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام » وحرضوه عليه ولكن اسد الدين كان يريد الأناة في هذا الأمر »[٤٨]

ولجأ شاور الى حيلة اخرى يقضي بها على أسد الدين ودبر أن يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الصليبيين فنهاه ابنه الكامل وقال له : والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه فقال له ابوه : والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا ، فقال : صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه»[٤٩] .

ولما رأى جيش نور الدين في مصر مماطلة شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين مع بعض الأمراء على قتله واعلموا اسد الدين بخطتهم فنهاهم عنه « فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله » واتفق ان شاور ذهب الى عسكر أسد الدين على عادته فلم

---

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٦٠ - ١٦١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٥٠ - ٣٥١

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ج١ ص ٣٣٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٦١ ، ابو المحاسن : لنجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٥١

(٤٩) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٣٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٦١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ح٥ ص ٣٥١

يجده في الخيام ، وكان قد مضى يزور قبر الامام الشافعي فلقيه صلاح الدين يوسف وجورديك في جمع من العساكر واعلموه بأن أسد الدين في زيارة قبر الامام الشافعي فقال نمضي اليه فساروا جميعا فسايره صلاح الدين وجورديك والقياه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فأخذ أسيرا ولم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وارسلوا الى أسد الدين يعلمونه الحال فحضر « ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر ، فارسل الى اسد الدين يطلب منه انفاذ رأس شاور وتابع الرسل بذلك ، فقتل وأرسل رأسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ثم دخل اسد الدين القاهرة ثم دخل قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب بالملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة « واستقر في الامر وغلب عليه ، ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق به من اصحابه »[٥٠]

وفاة اسد الدين شيركوه :

لما ثبت قدم اسد الدين وظن أنه لم يبق له منازع أتاه أجله (حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون)[٥١] فتوفي في يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة اربع وستين وخمسمائة ، وكانت ولايته شهرين وخمسة ايام ، فخلع العاضد بالوزارة على صلاح الدين ، وسارت الامور في مصر من أجل مصلحة الاسلام ، وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب سوف نعالج موضوع جهاد المسلمين في الحروب الصليبية في العصر الايوبي .

تم بحمد الله .

---

(٥٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٤٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٦١ - ١٦٨ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ج٥ ص ٣٥١ - ٣٥٢

(٥١) الانعام - آية ٤٤

ثَبتَ بالمصَادِرِ وَالمرَاجع

اولا : « المصادر العربية »

- القرآن الكريم
- ابن الاثير : « توفي ٦٣٠هـ/ ١٢٣٤ م) الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير
١ - « الكامل في التاريخ »
دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م .
٢ - « التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيه بالموصل »
نشر وتحقيق عبد القادر احمد طليمات - القاهرة - ١٩٦٣ م (وكذلك بجموعة مؤرخي الحروب الصليبية بالمكتبة العامة بجامعة الاسكندرية)
- ابن ابراهيم المقدسي (عاش من ٥٥٦ - ٦٢٤ هـ/) بهاء الدين عبد الرحمن « العدة شرح العمدة » الطبعة الثانية - المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٢ هـ .
- ابن جبير : (عاش في القرن السادس الهجري) أبي الحسين محمد بن أحمد من جبير الكناني الأندلسي البلنسي
« الرحلة في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقليه »
تحقيق حسين نصار - مكتبة مصر - القاهرة - ١٩٥٥ م
- ابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) الامام ابي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي
« زادالمسير في علم التفسير »
المكتب الاسلامي - الطبعة الاولى ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م .
- ابن حزم (توفي ٤٥٦ هـ) ابي محمد علي بن احمد بن سعيد « المحلى » ١٢ جزء
تحقيق الاستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري
الناشر مكتبة الجمهورية العربية - القاهرة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م .
- ابن خلدون (توفي ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ - مصر

- ابن خلكان : شمس الدين ابو العباس احمد : (توفي ٦٨١ هـ) « وفيات الاعيان وابناء أهل الزمان » القاهرة - ١٢٩٩ هـ .
- ابن شداد :(توفى ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٨ م) بهاء الدين بن شداد : « سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » طبع في مصر ١٩٠٣ م
- ابن الطقطقي (توفي ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م) فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا « الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية » القاهرة - ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م .
- ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر (توفي ٦٦٠ هـ) « زبدة الحلب من تاريخ حلب » ، جزء نشر الدكتور سامي الدهان - طبع في دمشق ١٩٤٥ - ١٩٥١ م (بالاضافة الى مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الموجودة بالمكتبة العامة - جامعة الاسكندرية)
- ابن العماد الحنبلي (توفي ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٩ م) ابو الفلاح عبد الحي بن علي بن كثير بن العماد الحنبلي .
« شذرات الذهب في اخبار من ذهب »
طبع في بيروت .
- ابن قدامه المقدسي : الامام موفق الدين عبد الله بن احمد :
« المقنع في فقه امام السنة احمد بن حنبل الشيباني » الجزء الاول - الطبعة الثالثة طبع في الدوحة - مطابع قطر الوطنية/ ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م .
- ابن القلانسي(توفي ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) ابى يعلى حمزه بن أسد بن علي بن محمد : « ذيل تاريخ دمشق »
طبع في بيروت - مطبعة الأباء اليسوعيين - ١٩٠٨ م/ ١٣٢٦ هـ . ونسخة منه موجودة بمكتبة البلدية - الاسكندرية
- ابن قيم الجوزيه (٦٩١ - ٧٥١ هـ) الامام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين ابي عبد الله محمد ابن ابي بكر الزرعي الدمشقي :
« زاد المعاد في هدى خير العباد » ٥ اجزاء
بيروت ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م .
- ابن كثير : (توفي ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣ م) عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي :
١ - « البداية والنهاية في التاريخ »
مطبعة السعادة - مصر ١٣٥١ هـ/ ١٣٥٨ هـ .
٢ - « تفسير القرآن العظيم »
الناشر دار المعرفة - بيروت ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م .
- ابن منقذ : (توفي ٥٨٤ هـ/ ١٨٨ م) اسامه بن منقذ :
« كتاب الاعتبار »
طبع ونشر وتحقيق فيليب حتي برنستون ١٩٣٠ م .

- ابن واصل : (توفي ٦٩٧ هـ) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل :
« مفرج الكروب في اخبار بني ايوب »
تحقيق د . جمال الدين الشيال
مطبوعات ادارة احياء التراث القديم - القاهرة -١٩٥٧ م
- ابو شامه ؛ (توفي ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي :
« الروضتين في اخبار الدولتين »
نشر وتحقيق محمد حلمي محمد احمد
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٦ م
- ابو الفداء : (توفي ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن علي :
« المختصر في اخبار النشر »
طبع في القاهرة - ١٣٢٥ هـ
- أبو المحاسن : (٨١٣- ٨٧٤ هـ) جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي :
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة »
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
الناشر : وزارة الثقافة والارشاد القومي - القاهرة
- البعلي : (١١٠٨- ١١٨٩ هـ) احمد بن عبد الله بن احمد
١ - « الروض الندي شرح كافي المبتدي »
القاهرة - المطبعة السلفية بالروضة .
٢ - « كشف المخدرات والرياض الزهرات »
المطبعة السلفية - الروضة بالقاهرة .
- الحاح : الشيخ خالد محمد علي
« كتاب مصرع الشرك والخرافة
حققه الشيخ عبد الله ابراهيم الانصاري .
طبع في قطر - الدوحة - ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م
- حجازي : محمد محمود (دكتور)
« التفسير الواضح »
الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م .
مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة .
- الحسين بن المبارك : ابي العباس زين الدين احمد بن احمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي الشهير بالحسين بن المبارك :
« التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح » الجزء الثاني دار الارشاد - بيروت .
- الحسيني : تقي الدين ابي بكر بن محمد الحسيني الحصيني الدمشقي الشافعي (من علماء القرن

السابع الهجري)
« كفاية الاخيار في حل غاية الاختصار »
الطبعة الثالثة ـ قطر ـ الدوحه .
ـ الخوارزمي : الشيخ الامام العلامه جمال الدين ابي بكر :
« مفيد العلوم ومبيد الهموم »
مراجعة وتحقيق وتقديم عبد الله ابراهيم الانصاري
الدوحه ـ قطر ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .
ـ الدهلوي : العلامه أحمد حسن :
« حاشية الدهلوي على بلوغ المرام »
الطبعة الاولى ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م ـ المكتب الاسلامي دمشق .
ـ الذهبي : (توفي ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين :
« العبر في خبر من غبر »
تحقيق د . صلاح الدين المنجد ـ الكويت ـ ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م .
ـ سبط بن الجوزي : (توفي ٦٥٤ هـ)
« مرآة الزمان » طبعة الهند سنة ١٣٥١هـ
ـ سرهنك : اسماعيل :
« حقائق الاخبار عن دول البحار »
الطبعة الاولى بولاق ١٣١٢ هـ/ مصر .
ـ السيوطي (توفي ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) ابو الفضل عبد الرحمن بن الكمال بن بكر جلال الدين السيوطي :
١ ـ « حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة »
دار الكتب المصرية برقم ٤٦٠٠ تاريخ
٢ ـ « تاريخ الخلفاء »
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة المدني بالقاهرة ـ ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م .
ـ الشوكاني : (توفي ١٢٥٥ هـ) الشيخ الامام المجتهد العلامة الرباني قاضي قضاة القطر اليماني محمد بن علي بن محمد .
« نيل الاوطار »
الناشر دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٣ م .
ـ الصنعاني : (١٠٥٩ ـ ١١٨٢ م) محمد بن اسماعيل
« سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع ادلة الاحكام للحافظ ابن حجر العسقلاني »
الناشر مكتبة الجمهورية العربية بالأزهر ـ القاهرة .
ـ الطبري : (توفي ٣١٠ هـ) ابي جعفر محمد بن جرير

« جامع البيان عن تأويل آى القرآن »
الطبعة الثالثة ـ القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م
ـ القلقشندي (توفي ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) احمد بن علي بن احمد بن عبد الله :
« صبح الاعشى في صناعة الانشا »
طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ١٣٣١ هـ/ ١٣٣٨ هـ .
ـ كلاري : روبرت : (عاش في زمن الحملة الصليبية الرابعة)
« فتح القسطنطينية على يد الصليبيين »
ترجمة وتعليق د . حسن حبشي ـ القاهرة ١٩٦٤ م
ـ المقريزي (توفي ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) تقي الدين ابو العباس احمد بن علي : « السلوك لمعرفة دول الملوك »
نشر وتحقيق د . محمد مصطفى زياده .
الجزء الأول طبعة ثانية ١٩٥٦ م/ ١٩٥٧ م .
ـ النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب :
« نهاية الأرب في فنون الادب » (مخطوط) بجامعة الدول العربية .
ـ ياقوت : شهاب الدين ابو عبد الله الحموي :
« معجم البلدان » بيروت ١٩٥٥ م .

ثانيا : المصادر الاصلية الاجنبية

— Guillaume de Tyr:
Willerni Tyrensis Archie Piscopi Historia rerum in parfibas transmorinis gęstarum, Ed. R.H.C. oce tome I
· VI Paris 1869.
— Mathiew d'Edesse:
«Chroniques (Doc Arm, t.I)
— Recueil des Historiens des croisades
in 16 huge folio vols,
Paris 1841-1906.
— Brehier (L.):
L'Eglise Et l'orient au Moyen Ages . Les croisades paris 1928.
— Kanterowicz. E.
«Frederick the Second»
«1194-1250»
London 1931.
— Molmenti: p.
Venice its individual Growth from the Earliest Beginnings to the fall of Republic part I,The middle Ages, London 1906.

— Michaud : J. F;
Histoire des Croisades
Paris 1817 - 1822.
— Oliphant:
« The Makers of Venice» London 1898
-- Schlumberger. G.
Les Campagnes du roi Amoury 1er de Jerusalem eu Egypte, Paris 1906
— Okey: T.
1- Venice and its story London 1930
2- The story of venice London 1905
— Raimond d'Agiles
«Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem»
(R.H.C. ccc. T. III)

ثالثا : المراجع العربية الثانوية

- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول » بيروت ١٩٥٨ م .
- حسن ابراهيم حسن : و.د. علي ابراهيم حسن « النظم الاسلامية »
مكتبة النهضة المصرية طبعة ثانية ١٩٥٩ م
- حافظ حمدي : « الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي » دار الفكر العربي - مصر ١٩٥٠ م .
- سيد قطب : « في ظلال القرآن »
الناشر دار احياء التراث العربي - بيروت. الطبعة السادسة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م .
- د. سعيد عاشور: «الحركة الصليبية»
الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م - مكتبة الانجلو المصرية القاهرة
- شلبي : احمد دكتور
« موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية »
الطبعة الثانية ١٩٧٥ م . مكتبة النهضة المصرية .
- عفيف عبد الفتاح طباره :
« روح الدين الاسلامي »
الطبعة السادسة عشرة / دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ م .
- حبشي : حسن حبشي دكتور :
« نور الدين والصليبيون »
دار الفكر العربي - القاهرة ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م .
- جوزيف نسيم يوسف : « العرب والروم واللاتين »
- عاشور : فايد

« العلاقة بين البندقية والشرق الادنى الاسلامي في العصر الايوبي »
دار المعارف بالاسكندرية ١٩٨٠ م . طبعة اولى .
ـ عبادي وسالم : « تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام » بيروت ١٩٧٢ م .
ـ عبد العزيز سالم :
« دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي »
بيروت ١٩٧٠ م . طبعة اولى .
ـ غوستاف لوبون :
« حضارة العرب »
نقله الى العربية عادل زعيتر ـ الطبعة الثالثة ، القاهرة ـ دار احياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥ م .
ـ زكي محمد حسن : دكتور
« الفنون الايرانية في العصر الاسلامي »
القاهرة ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٤٠ م .
ـ ديل : شارل
« البندقية جمهورية ارستقراطية »
ترجمة د . احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر القاهرة ١٩٤٨ م .
ـ دروزه : محمد عزه .
« الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث » اليقظة العربية ـ دمشق ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م .
ـ سعداوي : نظير حسان .
« التاريخ الحربي المصري في عصر صلاح الدين الايوبي »
القاهرة ١٩٥٧ م .

رابعا : المراجع الاجنبية الثانوية

— Atiya (A.S.)
1- The Crusade in the Later Middle Ages» London 1938
2- Crusade, Commerce and culture New york 1966.
— Archer: (T.) Kings ford, (c.):
The crusades
London 1894.
— Brown :
«Venetian Republic» London
— Broane : (E.O.):
«A Literary History of Persia»
London 1906

— Bury (J.B.):
« Cambridge Medieval History
Cambridge 1957
— Chalandon: (F.):
1— Histoire de la premiere croisade»
Paris 1925
2- « Les comnenes» Paris 1913.
— Crawford (F.M.)
«Cleanings From Venetian
History, vol. I, London 1905
— Daru: Histoire de Venice
— Elton: (6. R.,)
Medieval Monarchy in action»
London 1972
Grousset (R..)
1- L'Empire de Levant, Paris 1964
2- Histoire des croisades et du Royaume Franc, de Jerusalem, Paris, 1943.
— Gibbon (E.)
« The History of the Decline and Full of the Roman Empire»
London 1957.
— Gibb, Brown:
« Islamic society and the west»
London 1957
— Heyd:
Histoire du commerce du Levant au Moyen Age.
Leipzig 1885.
— Hodgson, (F.C.,) Hodgsone MA;
«The Early History of Venice from the foundation to the conquest of constantinople A.D.1204
London 1901
— Hitti: History of the Arabs.
— Jorga, (N.9)
Breve Histoire des croisades et de leurs fondation en terre sainte, Paris 1924.
— King. E.J.;
The Knights Hospitallers in the Holy Land
London 1931
— Le strange:
«Baghdad During the Abbasid Caliphate».
oxford 1900

— Michaud, J.F;
«Histoire de croisades»
Paris 1817- 1822.
— Ostrogorosky (G;)
«History of the byzantine state»
oxford 1956.
— Pirenne: «Histoire Economique, de L'occident Medieval »
1951.
— Richard: «Le Royaume de Latin, de Jerusalem»
Paris 1953
— Runciman: s, «A History of the crusades, cambridge 1954
— Setton, K
«A History of the crusades»
London 1969.
— Stevenson: B.B.)
«The crusaders in the East»
Cambridge 1907
— Thompson: «Economic and social History of the Middle Ages»
London 1959
— Vasiliev (A.)
History of the Byzantine Empire»
Madison 1961
— Wiel: «The Navy of venice»
London 1910

فهرس المحتويات

الفصل الثامن جهاد نور الدين ضد الصليبيين

الفصل التاسع توحيد مصر والشام